كتاب الهلال

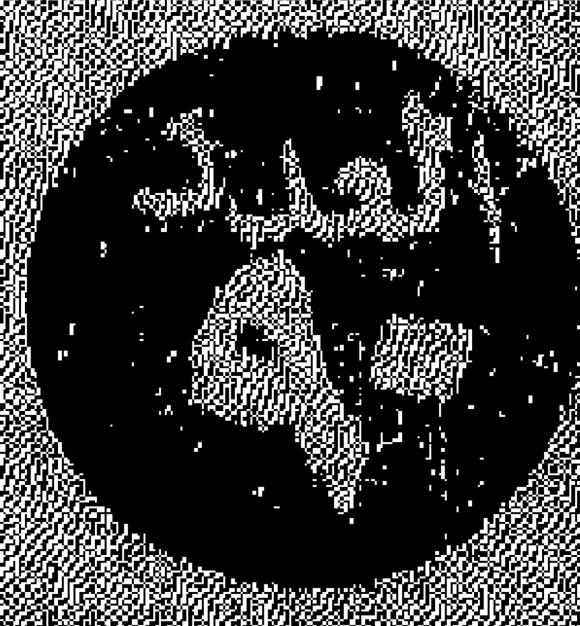
نابغة لبنان

جبران خليل جبران

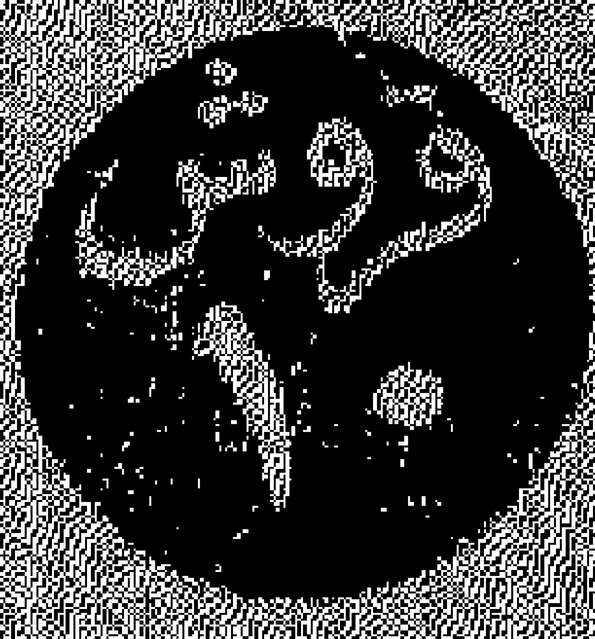
قصة حياته ومأساة موته

بقلم

ميخائيل نعيمة



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٩٠ ــ ٢١ صفر ١٣٧٨ ــ سبتمبر ١٩٥٨

No. 90 — September 1958

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

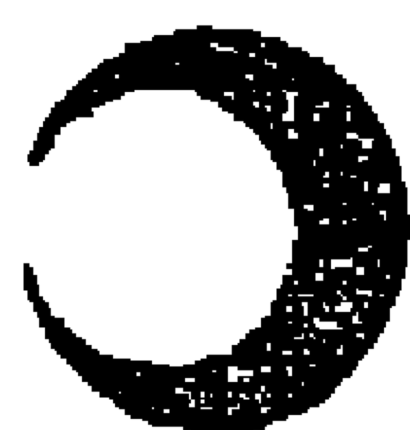
كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشــــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ــ الامريكتين ٥ر٥ دولارات ــ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

نابغة لبنان

جبران خليل جبران

قصة حياته ومأساة موته

حماد عبد العظيم ماهر

بقلم

ميخائيل نعيمة



جبران فى ((الصومعة))

آخر صورة فوتوغرافية له وقد أخذت قبل وفاته بمدة قصيرة

اعتذار
بقلم المؤلف

ترددت كثيرا قبل ان أقدمت على وضع هذا الكتاب . لانى لست أؤمن بأن فى الناس من يستطيع أن يصف من حياته حتى لحظة واحدة بكل ما فيها من معان مشتبكة بمعانى الحياة الكونية . فكيف بمن يحاول أن يحصر بين دفتى كتاب حياة غير حياته ، سواء أكانت حياة عبقرى أم حياة بربرى ، وسواء أكان نصيبه من فن الكتابة وفيرا أم يسيرا ؟ وعندى ان كل ما يرويه الناس عن الناس باسم التاريخ ليس الا رغوة متطايرة فوق بحر الحياة الانسانية . أما أعماق الانسان وآفاقه فأبعد وأوسع من ان يتناولها قلم أو يستوعبها بيان . فنحن حتى اليوم لم نكتب « تاريخ » انسان ولا « تاريخ » شيء على الاطلاق . ولو اننا كتبنا تاريخ انسان واحد لقرأنا فيه تاريخ كل الناس . ولو اننا دونا تاريخ شيء واحد لطالعنا فيه تاريخ كل شيء

ثم ان فى حياة كل انسان « أسرارا » يكتمها عن الناس . وانا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتنى منها الكثير . فهل يليق بى أن أبوح ولو ببعض البعض الذى أعرفه ؟ وان انا كتمته فما معنى الذى أكتبه ؟ أأخون نفسى والقارىء وجبران بكتمان ما ليس مكتوما فى سجل الحياة

الكبرى ـ وان يكن مستورا عن اعين الناس ـ فأصور صورة لاوزن بين ظلالها وانوارها ، لارضي بعض من لاذوق لهم في الفن ولا رأى لهم في الحيـــاة ، وأجور على ذوقي وادفن رايي في التراب ؟

وان انا لم اكتمه فكيف لى أن ابوح به من غير أن اظهر في عين القارىء كما لو كنت أدين أخي بهفوات قـــد لا اكون بريئا منها ؟

وبعد ذلك فكيف لى أن أكتب عن جبران من غير أن اذكر نفسي ، وقد كان بيننا من القرابة ما كان ؟ وان أنا لم أجد بدا من ذكر نفسي فهل يفهم القـــارىء اني ما فعلت ذلك الا مضطرا واني اكره التحدث عن نفسي لا سيما في كتاب أحدث فيه عن سواى ؟

تلك بعض الاسباب التي دعتني الى التردد في وضع هذا الـكتاب . لـكنني عندما عدت الى الشرق بعـد عام لوفاة جبران وجدت صديقي يكاد يكون أسطورة من الاساطير حتى في بلاده . فهو ليس جبران الذى رافقته خمس عشرة سنة وخبرت احلامه وآلامه ، وبلوت قوته وضعفه ، ورقبت جهاده العنيف مع نفسه والعالم ، وقاسمني اشواقه وافكاره وشاركته في افكاري واشواقي . ولكم سمعت أدباء ومتأدبين يطالبونني بكتابة ما أعرفه عنه . فمن قائل ان ذلك دين في عنقي . ومن قائل ان سكوتي في مثل هذه الحالة ضرب من الاثم

فـكان من ذلك كله اني تغلبت على التردد فألفت هـــذا الـكتاب ، على أمل ان يطالع القارىء من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا « تاريخ » حياته الذى لا يعرفه أحد . وان يقع فيه على دروس في الحياة التي يشـــترك فيها كل الناس بالسواء . وها أنا أرسله في سبيله عالما حق العلم ان مافيه من صراحة ســيرضي البعض ويغيظ البعض ويدهش الـكثير ممن لم يعرفوا جبران الا فيما قرأوه من أدبه واطلعوا

عليه من فنه . لكنها صراحة لست لاتخلى عنها . فلولاها لما كان الكتاب اهلا للنشر . ولولاها لانطمس اجمل ما فى حياة جبران . وهو صراعه المستتب مع نفسه لينقيها من كل شائبة ويجعلها جميلة كالجمال الذى لمحه بخياله وبثه بسخاء فى رسومه وسطوره . فالفن مهما تسامى فى نظر صاحبه ونظر الناس ، ليس من الاهمية على شىء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التى لا تحد ـ من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان . والادب ، مهما جمل ، لا معنى له الا على قدر ما يكشف معنى الحياة الذى هو أثبت من الارض وابقى من السماء

ميخائيل نعيمة



ميخائيل نعيمة

بريشة جبران

الفصل الأول

الشفق

الاحتضار

حشرجة الموت !

كم سمعت بها قبل أن أسمعها . أما منذ تلك الليلة ـ ليلة العاشر من ابريل سنة ١٩٣١ ـ فانى لا أكاد أسمع غيرها . اسمعها فى دقات قلبى وفى أنفاسي . أسمعها فى صوتى وفى كل صوت . أسمعها فى همس النسائم وحفيف الاوراق . أسمعها فى سكينة الليل وجلبة النهار

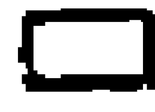
الا تباركت حياة تلتقى الآزال والآباد فى لحظة منها . فيندمج النقيض بالنقيض ، وتستوى الاضداد كالانداد . تباركت لانك تهزئين بمقاييس البشر . وفى هزئك قساوة . وفى قساوتك عدل . فلا تخجلى من أن تجمعى بين العرض والجوهر ، بين الهزل والجد ، بين المتاجر والمقابر ، بين حشرجة الموت وفرقعة التليفون !

النهار الجمعة . والساعة نحو الخامسة والنصف . انا أستعد للانصراف من محل أنحر فيه كل يوم ساعات بكارى من حياتى لعدد محدود من مومسات الريالات ، وقلما أسمع حديثا الا عن البيع والشراء ، عن الربح والخسارة ، عن سوق تصعد وسوق تهبط . يقرع جرس التليفون فيطلبوننى اليه . أهو أحد الزبائن يرغب فى بضاعة أو يشكو بضاعة أو يعتذر عن عدم مقدرته على دفع ما عليه ؟

« هلو ... نعم . أنا هو . مرحبا . مرحبا ... ماذا تقول ؟ جبران فى المستشفى ؟ »

« فى مستشفى القديس فنسنت . وهو فى غيبوبة .

والطبيب لا يقدر أنه يعيش حتى منتصف الليل . وليس حواليه أحد من رفاقه وخلانه . فرايت من واجبي أن أخبرك لعلمي أنك أقرب الناس اليه » .



« تاكسي ! مستشفى القديس فنسنت ــ أسرع أيها السائق ، أسرع ! »

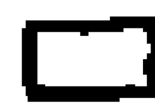
وكيف لهذا المسكين أن يسرع في شوارع مكتظة بالبشرية المسرعة على أقدامها وعلى دواليبها ؟ والى اين يسرع هؤلاء الناس ؟ ــ كل الى مستشفاه . ومستشفى الكل واحد

ومن هو هذا القديس فنسنت وبماذا تقدس حتى يقدس؟ ليس بيني وبين مستشفاه غير ميل واقل من ميل . لكنه اطول ما قطعته في حياتي من المسافات . جبران على فراش الموت . اادركه حيا ؟ أسرع أيها السائق ، أسرع !

« أنا اليوم رجل صحيح يا ميشا » (١) هذه آخر كلمات سمعتها منه وقد خاطبته بالتليفون قبل ذاك بأيام مستفحصا عن صحته . فتواعدنا أن نلتقي فنتعشى معا في أحد المطاعم ونقضي السهرة عندي . وها أنا ذاهب لاتناول واياه العشاء على مائدة الموت في مطعم القديس فنسنت !

« أنا اليوم رجل صحيح يا ميشا ــ أنا غريب في هذا العالم يا ميشا ــ أنا أحب هذا العالم يا ميشا . » ــ الصحة والعلة . والموت والحياة . والوطن والغربة ــ الا من يريني ما بينها من الفروق ؟

أسرع أيها السائق ، أسرع !



« في أية غرفة جبران خليل جبران ؟ » ، سؤال أوجهه الى رجل جالس الى مكتب قريب من الباب داخل المستشفى.

---

(١) هو الاسم الذي كنت اعرف به عند اصحابي الاخصاء في نيويورك، وهو صيغة التصغير والتحبب بالروسية من اسم ميخائيل

فينـــدفع يفحص تحت حـــرف « الجيم » فى قوائمه المنظمة كأنه يفتش عن كلمة فى قاموس غير مبال ان صـــوت الرجل الذى يخاطبه يتهدج بصوت الموت

« ليس عندنا عليل بهذا الاسم يا سيدى » واذ أؤكد له ان عندهم عليلا اسمه جبران يحيلنى الى رجل آخر عنـــد مدخل للمستشفى من شارع اخر فأخرج من حيث دخلت واسرع الى المدخل الذى ردنى اليه . وهناك أعرف ان جبران فى غرفة كذا فى الطبقة الثالثة من تلك البناية المتعددة الطبقات. فأصعد سلالم كثيرة . وأدور فى منعرجات كثيرة . واتفحص أبوابا كثيرة قبل أن أهتدى الى الباب الذى أطلبـــه . ووراء كل باب أقترب منه جسد يتكوى بالاوجاع • وروح تحارب القدر . رباه . رباه . رباه ! هو ذا جانب من خليقتك التى تطلب جابرا لمـــا تكسر من عظامها . وراتقـــا لمـــا تفتق من جلودها . وجامعا لمـــا تفتت من اكبادها . فلا تحصل الا على عقاقير ثم عقاقير . فأين دواؤك ؟ أم هو الالم مصهر المحبة ــ محبتك التى لاتوصف . وسبيل الخلاص ــ خلاصـــك الذى لا يثمن ؟

راهبات يمررن بى وأمر بهن كأنهـــن خيـــالات من عالم لا اعرفه ، وفى سواد أثوابهن ما يسود القلب . وممرضـــات يدخلن من باب ويخرجن من باب ، وفى بيـــاض البستهن ما يجرح العين

« أين الغرفة كذا يا أختاه ؟ ــ الى اليمين ؟ اشكرك »

أمام باب الغرفة رجل تحيط به نسوة ثلاث . واذ أقترب تنفرد من الثلاث واحدة طويلة القامة ، عظيمة الهيكل ، زعفرانية اللون ، حادة الانف ، غارقـــة العينين . فتخطو نحوى مادة يمناها الى . هى شاعرة أميركية فى النصف الاول من عقدها السادس . عرفت جبران منذ سبع سنوات فتقربت منـــه وكانت تساعده فى نسخ مؤلفاته . وقد التقيت بها مرة عنده .

واذ أضع يدى فى يدها تتنهد وتقول :
ـ أشكر الله • أشكر الله لانك هنا
فى قلبى وفى عينى وعلى وجهى سؤال واحد يتردد لسانى فى طرحه فتجيبنى عليه هذه السيدة قبل أن تسمعه من فمى :
ـ لم يبق من أمل . لم يبق من أمل
ـ اخبرينى ماذا جرى
ـ كنت البارحة عنده فوجدته يعانى آلاما لم يعان مثلها من قبل . دعونا الطبيب وسألناه اذا كان من ضرورة لنقله الى المستشفى فى الحال . فأجاب انه لا بأس لو بات ليلته فى بيته . ولم اشأ أن اتركه وحده فقضيت الليل عنده . وفى الصباح ـ صباح اليوم الجمعة ـ اشتد عليه الوجع فجئنا به الى هنا بين الساعة العاشرة والحادية عشرة
ـ ولماذا لم تخبرينى امس ، أو اليوم باكرا ؟
ـ امس كنا نظن أنه عارض ويزول . واليوم عندما جئنا به الى هنا كنت أول من خطر ببالى . غير انى اجهل رقم تليفونك • فبقيت أفكر بواسطة أتوصل بها اليك الى أن خطر لى ـ وكان ذلك الهاما ربانيا ـ أن أتلفن (١) الى ادارة مجلة « العالم السورى » لتطلعك على الامر . وهكذا كان . والآن اشكر الله لانك اتيت
ـ كيف هو الآن ؟
ـ غاب عن الوعى بعد الظهر بقليل ولا يزال فى غيبوبة
ـ هل عرض عليه أحد أن يعترف ويتناول ؟
ـ سألته الراهبة : « هل أنت كاثوليكى » ؟ فأجابها بنبرة قوية : « كلا ! » فتركته وانصرفت . وبعد أن انتقل الى حالة الغيبوبة جاءه كاهن سورى ـ هو رجل قصير لعلك تعرفه ـ وأخذ يناديه بأعلى صوته : « جبران . جبران . جبران » ! وجبران لا يعى . ولقد بلغ استيائى من ذلك الكاهن وخشونته

---

(١) يتحدث بالتليفون

حدا تمنيت معه لو كانت لى القوة الكافية لطرحه من النافذة

ـ هل فعل الكاهن شيئا ؟

ـ هذا كل ما فعله

ـ وأين الطبيب ؟

ـ ها هو

مشيرة الى الرجل الواقف أمام الباب

ـ ما هى علته أيها الطبيب ؟ أليس من أمل ... بالطب ـ بالجراحة ؟

ـ سرطان فى الكبد (١) · لا أظنه يعيش حتى منتصف الليل . هو الآن فى غيبوبة ولا أخاله يفيق منها

كلمات تلفظ بها كأنه يحدث عن الطقس . ولا عجب فليست هذه أولى مقابلاته للموت . ترى أيقابل موته بالبرودة عينها التى يقابل بها موت سواه ؟

الطب . الطب . الطب ! اله العالم المتوجع ووجهه الاكبر

ـ اتسمح لى بالدخول على المريض أيها الطبيب ؟

ـ لا مانع على الاطلاق

غر ـ غر ... غر ـ غر ... عذ ـ ن ...

صوت غريب يفاجىء أذنى حالما أفتح الباب واغلقه بهدوء ورهبة ، فأشعر عندما أجتاز عتبته كأنى قد اجتزت من عالم لا سر فيه الى عالم كله أسرار . وأنسى أن هذا العالم فى ذاك . وذاك فى هذا . وان لا أبواب بين الاثنين ولا عتبات سوى الابواب والعتبات التى يقيمها جهلى ، وتبصرها عينى الكليلة من خلال اغشية الحواس المحدودة

أدنو من السرير الابيض الصغير القائم خلف الباب فلا أبصر لاول وهلة معاون الطبيب الواقف عند راسه ، اذ تتسمر عيناى بوجه عرفتاه من زمان فأحبتاه ، والآن لا تكادان

---

(١) لقد أثبت الكشف الطبى بعدالوفاة تحجرا فى الكبد مع بداية سل فى احدى الرئتين

تعرفانه . فقد كان بلون الرمل يسقيه دم الحياة ، فأصبح رملا يعلوه رماد المنية

هاهو ذا الانف المستقيم الارنبة ، المتلىء المنخرين ، قد انتصب نحو السقف الباهت القاسى ، وليس فيه من الدم الا بقية ضئيلة تنهزم لحظة فلحظة من وجه عساكر الانحلال . فهو لا يكاد يتنفس كأن به زكاما من أنفاس الارض والسماء • وكأن الطبيب الاكبر ـ الموت ـ يداويه بنفحات من سماء غير سمائنا وأرض غير أرضنا

ها هماذان العينان اللتان كانتا تبوحان بأسرارهما . فكم رأيت فيهما من بريق الهام ومن حرقة شوق ومن نور بهجة . كم رأيتهما تغتسلان بالدمع . وتلتهبان بالضحك . وتتغلغلان فى وجوه الناس والطبيعة لتستجليا معانيها . وأحيانا تذبلان وتذهلان عن كل ماحوليهما كأنهما تتطلعان الى ماوراء الستار أو تداعبان طيوف أفكار وعواطف لا تجول فى أزقة الناس ومساكنهم ومعابدهم • والآن لست أرى فيهما لا رعشة ولا ومضة . فهما مطبقتان تحت حاجبيهما المقوسين وقد اسدلتا اهدابهما الطويلة حتى الوجنتين فلا تبوحان بما أغلقتا عليه من أسرار . وقد يكون خلف أجفانهما وميض بروق كثيرة . فمن يدرى ما فى غيبوبة الموت من ظلمات وأنوار ؟

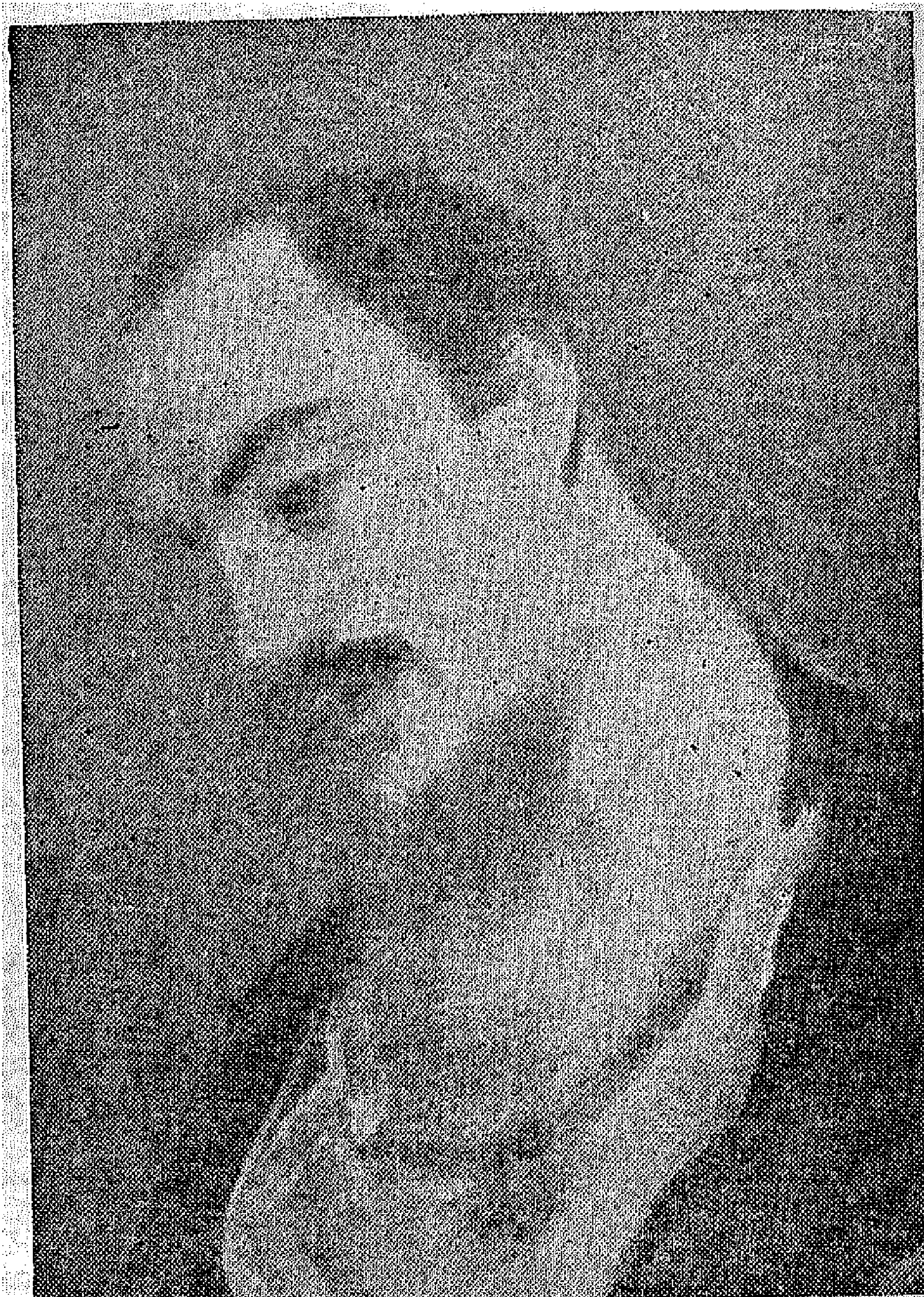
ها هماذان الشفتان الحساستان وقد كانتا بلون القرمز فأصبحتا بلون الرماد . كم انفرجتا من قبل عن بسمة ، وكم تكمشتا بألم • كم قبلتهما أم واخت وحبيبة ، وكم من الشفاه تشتاقهما حتى الساعة ! وتلك الشفة العليا كم ارتجفت بغضب شديد أو بفرح قوى أو بحزن عميق. أما الآن فهاهى ذى قد التصقت بأختها السفلى فى خط كأنه خاتم الحكمة الصامتة أو الحد الفاصل بين ما يمكن وبين ما لا يمكن التلفظ به . ولا تنفصل عن أختها الا لتفتح الباب لانة هى أشبه بزفرة مذبوح منها بأنة مريض

ها هى ذى الجبهة العالية التى تقهقر عنهـا الشعر فزادها ارتفاعا . وابيض عن جانبيها فزادها جمالا. وجعدتها السنون تجاعيد لطيفة فأكسبتها جلالا . هى الجبهـة التى كنت اذا نظرت اليها أكاد ألمس وأبصر ما خلفها من الاشباح والرسوم والمقاصد والمتاعب . أما الآن فهى ابعد من مجال بصرى ولمسى

هاهو ذا الشعر الكستنائى ، وقد عبث المشط بنصـفه ، وبيض الشيب نصف ما تبقى منه ، يغطى الآن جانبـا من الوسادة وكأنه ، بعد أن هربت منه الحياة ، خصل من صوف لا لمعان فيها ولا تجاذب

« بلى » ـ تقـول لى عيناى ـ « بلى . هذا هو رفيق احلامك . وصديق أفكارك . وشقيق روحك . هذا جبران . وهو الآن يحتضر . فاعلم انك فى حضرة الموت »

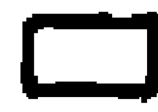
« جبران ! » ـ يناديه قلبى وتناديه كل جوارحى . أما لسانى فلا يتحرك وشفتاى لا تنفتحـان . لاننى عندما أحدق فى وجهه ، وقد امسكت بعضلاته أصابع الالم القاسـية ، وعندما أسمع تلك الغرغرة الهائلة فى حلقه ، والزفرات المتقطعة الهاربة من صدره ، أقول فى نفسى : « لعله ان انا ناديتـه يسمعنى فيتألم اذ لا مقدرة له على الجواب . » ثم أقول : لعله يبصرنى . واسمع فى داخلى صـوتا يقول ـ بل هو يبصرك . فأرتاح هنيهة الى هذا الصوت ، وأهبط الى كرسى بجانب السرير فأصـغى طويلا الى غرغرة تلك النـارجيلة الجهنميـة فى حلق أخى والى الزفرات التى تولدها ، فأهم أن أصيح به ـ الا اتفلها من فمك . الا تقيأها . جاهلا انه ساعة يتفلها يتفل معها آخر انحابه . وبعد أن أستسلم الى القدر النافذ أمام عينى اغرق فى بحر من التأمل هو ملجأى فى كل شدة . وأشعر كأن جبران يحدثنى وكأنى احـدثه . وكم تحدثنا قبل ذلك بالصمت ! ـ فاطمئن بعض الاطمئنان لاعتقادى انه شاعر بوجودى معه ، عارف انه ليس وحـده وان قلب



جبران في الثامنة والعشرين

عن صورة زيتية بريشة يوسف الحويك

صديق يشيعه فى عبوره من هذا الشاطىء الى ذاك



أدير طرفى فى الغرفة فأتناول كل مافيها . عرضها ثلاثة اذرع . وطولها ستة . وعلوها أربعة . فى جدارها المقابل للباب نافذة تطل على الشارع . وفى النافذة طاقة من الازهار الذاوية . الى جانب النافذة خزانة صغيرة للثياب وبجانبها طاولة صغيرة بيضاء عليها عقاقير وطلاسم طبية . ووراء الطاولة السرير . وعند راس السرير معاون الطبيب بسترته البيضاء وقد أخذ بذراع المريض يجس نبضها بين الفينة والفينة ويحقنها بمخدرات أو منبهات هو أدرى بها

ـ هل هو يشعر بألم يا حضرة المعاون ؟

ـ ولا بشىء

ـ كم تدوم هذه المعركة ؟

ـ لقد قاربت النهاية

وينتهى حديثى مع المعاون . فأعود الى حديثى مع جبران . ومع الموت . ومع نفسى . فأقول لجبران :

ـ ما الذى تزودته يا أخى لرحلتك هذه ؟

فيجيبنى جبران :

ـ غر ـ غر . . . غر ـ غر . . . عنـ ـ ن

واقول للموت :

ـ ماذا أنت فاعل بأخى ياموت ؟

فيجيبنى الموت :

ـ غر ـ غر . . . غر ـ غر . . . عنـ ـ ن

واقول لنفسى :

ـ ماذا تبصرين يا نفسى وماذا تسمعين ؟

فتجيبنى نفسى :

ـ غر ـ غر . . . غر ـ غر . . . عنـ ـ ن

ويصعد قلبى الى اذني فيقرعهما قرعا عنيفا . واذ اسأله

عن قصده يجيبنى : « غر ــ غر ... » فتدلهم آفاق فكرى وتضيق . ولــكنها لا تلبث أن تتسع وتلتهب بوابل من شهب الذكريات وبلعلعة بروق كثيرة من الخيالات الدفينة فى أعماق الروح . وكلها لا ينقاد الى نظام ، ولا يتقيد بزمان . فقــد تشتعل الذكرى الواحدة وتنطفىء مرات متواليــة ، حين أن اختا لها لا تنير الا مرة واحدة . وقد تلمع ذكرى قديمة قبل ذكرى حديثة . ويبرق خيال هرم بنور أسطع من نور خيال لمـا يزل فتيا . وعلى أنوار هذه الذكريات والخيالات تبــدو لعينى حياة المحتضر أمامى صفحات مبعثرة . لكنها مخطوطة بقلم واحد ، ومداد واحد ، ويد واحدة . واليد التى خطتها تعرف أن ليس فيها صفحة زائدة أو حرف مهمل . ولانى أعرف ذلك أحاول أن افهم الصلة بين هــذا السطر وذاك ، وتلك الــكلمة وهــذه : بين بشرى ونيويورك . فم الميزاب ومستشفى القديس فنسنت . جبران خليل جبران والنسوة الواقفــات خارجا . وبين كل من عرفهم وعرفوه من رجال ونساء وأطفال . والذين قرأوا ويقرأون فى هــــذه اللحظة مؤلفاته ، أو تأملوا ويتأملون الآن رسومه . والذين أسعدهم بحياته وأشقاهم ، أو اسعدوه واشقوه . وبينه وبينى ــ لماذا تلاقينا وتآخينا فى لحظة من الزمن لا فى سواها ، وفى فسحة من المكان لا فى غيرها . ولماذا كتب له أن يموت بين يدى ، ولى أن أشيعه من هــــذه الديار ؟ فهل تراه يستقبلنى فى تلك ؟ أو تراه يدرك ما هو فيه الآن ؟ كم تحدثنا عن الموت فرأيناه ولادة أخرى . وكم دعوناه والحيــاة توأمين . أتراه يقول الآن ماكان يقوله أمس ؟ وان كان لا يفكر الآن لابالارض ولا بالسماء ولا بالموت ولا بالحيــاة ، فبماذا يفكر ؟ أم ترى غيبوبة الاحتضار أعمق من الفكر والحلم والخيــال . فقد تكون انعتاقا قصيرا من الحس بالوجود الى الوجود الذى لاحس فيه . أو تمهيدا الى الانعتاق الابدى من الوجود الادنى للحظوة

بالوجود الاسمى ـ باللاوجود

لا أكاد افلت بخيالى من عالم الحس حتى تجذبنى حشرجة الموت اليه . فتتدفق على من النافذة أمواج حياة المدينة ـ اصواتها المبلبلة ، شهواتها الملتهبة ، مطامعها المنسابة كالافاعى، افراحها الظاعنة واوجاعها المقيمة . وتنسكب كلها فى مقطعين صغيرين: « غر ـ غر ... » ثم تنفرج جدران الغرفة وتتراجع الى وراء الافق . ويتقلص سقفها كما لو كان سحابة من دخان ، فأدخل بيوت النائمين ، ومعابد المصلين ، ومخازن المتاجرين . واطل على مخادع الحاملات ، ومضاجع العرائس، واسرة المحتضرين ، وعروش الملوك ، وكهوف المتنسكين . وأمشى مع الاسرى والمعتقلين ، وأجلس مع القضاة والمجرمين . أطوف الارض كلها واصيخ الى أصواتها ، واجوب الفضاء وما فيه من عوالم محسوسة فأعود منها كلها بنغمة واحدة ـ « غر ـ غر ... » وتستقر هذه النغمة فى أعماق كيانى كأنها كانت هناك منذ الازل . فأستغرب كيف لم أسمعها من قبل . ويخيل الى أنها نغمة الحياة المثلى ولغتها الوحيدة • وان كل ما تدور به النجوم ، وتتلظى به الشموس ، وتتغنى به الارض ، ويتلفظ به الناس معناه « غر ـ غر .. » وان الـ « وع وع » التى يقذفها صدر الطفل عندما يطل على عالمنا هذا هى عين الـ « غر ـ غر ... » التى تنسل من صدر المحتضر عندما يشرف على عالم غير هذا العالم

خيالات بشرى

« وع ! وع »

الصوت خارج من ذات الحنجرة التى تخنقهـا الآن أمامى غرغرة ولادة اخرى . غير أن القابلة التى تسمع ذاك الصوت لا تسمع فيه هذه الغرغرة فيبرق وجهها عندما تلتفت الى الوالدة الملقاة على فراش المخاض وتقول لها بصوت متهلل :

ـ صبى ، صبى ! الحمد لله على خلاصك بخير ياروحى

وكما تنشب اشعة القمر الناعمة فى الغيوم تنشب ابتسامة هادئة فى تجاعيد الوجع الذى يقنع وجـه الوالدة . فتجيب القابلة بصوت لا يكاد يسمع : « الله يشكر حمدك يا اختى » وبطرفة عين يمتلىء ذلك البيت الصغير بكلمة واحدة ترفرف فى كل جوانبه كأنها عصـفورة افلتت من قفص . فهى على السنة القريبات والجارات الجالسـات حول الموقد بالقرب من فراش الوالدة . وهى فى الجدران العميـاء من كل بصر الا الباب . وهى فى السقف الذى جمل الدخان اخشـابه بلون القير وهى فى الريح الصرصر خارجـا ـ ريـح ديسـمبر تذر قلبـه الابيض على أعماق وادى قاديشـا ، وعلى ذوائب بنات أرز سـليمان وحفيداتها ، وعلى رأس فم الميزاب ـ « صبى ! صبى ! » وتهنىء النسوة الوالدة وبعضهن بعضـا كأن المواود مولود كل واحدة منهن :

ـ مبارك ما جانا ، مبارك ما جانا !

بين وعوعة الطفل ، وتنهدات الوالدة ، وتمتمة القـابلة ، ولغط الجارات والقريبات ينفتح الباب فتندلق من الخارج

موجة من أنفاس ديسمبر الباردة ، ويبقى الباب مفتوحا وفيه رجل ربع القامة ، أشقر البشرة ، أزرق العينين ، كستنائى الشاربين ، حسن تقاطيع الوجه ، قوى العضل ، دون الاربعين بقليل ، فتصيح به القابلة :

ــ قبرتك أمك . أغلق الباب . فأنت تكاد تميتنا وتميت الصبى بردا

عندئذ يغلق الرجل الباب بعنف وبوثبة أو وثبتين يدرك فراش الوالدة فيقف هنيهة بجانبه حابسا انفاسه . وفجأة تشرق أسرته فيمسد شاربيه ويهتف :

ــ صبى ! صبى !

فتجيبه القابلة بين المزح والجد :

ــ يا لضياعه فيك !

ــ لا يا أم حنا • لا ! خليل جبران يستاهل أكثر من ذلك• صحيح انى سكران لكن خوف الله بقلبى . كامله ! ــ مخاطبا زوجته الملقاة على الفراش ــ كامله ! والله لاغسلن رجليك وأشرب ماءهما • مبارك ما جانا • أتعرفين ماذا سنسميه ؟ جبران ــ جد العائلة • أرخى يا امرأة أرخى • كم • اليوم من الشهر ؟ ستة ؟ أرخى ــ ولد جبران خليل جبران ليلة السادس من ديسمبر سنة ١٨٨٣ فى قصبة بشرى من اعمال لبنان

تتململ الوالدة فى فراشها وتبتل حدقتاها الواسعتان الوديعتان بدمعتين تجمدان عند أطراف الاهداب • وتطفو على وجهها الاسمر النحيل سحابة من الكآبة تغطى ما لمع فيه من أشعة البهجة قبل ذلك بقليل

ــ كامله • كامله ! يا للعيب ! أنت تبكين ؟ اذا لم أسكر فى مثل هذه الليلة ، فمتى ؟

فقالت القابلة :

ــ هنيئا لمن رآك صاحيا ولو مرة واحدة

ــ أم حنا ، أم حنا ، الزمى حدودك • مهنتك سحب الاطفال

من بطون الامهات ، لا سحب الرجال من بطون الادنان • كامله • كامله ! يا للعيب ! مليح • مليح • تركنا الكاس • وحياة جبران وبشرف هذين الشاربين

ويمسك خليل جبران بشاربه الايمن وبلمح الطرف يقفز الى خزانة صغيرة فى زاوية البيت فيتناول منها كمية من الزبيب والجوز واللوز ويأخذ يفرقها على النسوة اللواتى فى البيت :

ـ كلوا ، كلوا ، هذه « حلوينة » جبران

النسوة يأخذن ويأكلن ويدفعن ثمن ما يأكلنه طلبات من أجل الوالدة والمولود :

ـ ان شاء الله يكون من أولاد السلامة • الحمد لله على خلاصك بخير

وبعد قليل يشعلن مصابيحهن وينطلقن فى دجنة ديسمبر كل واحدة الى بيتها • ما خلا القابلة التى لا تترك الوالدة ولا الطفل

ومع النسوة العائدات الى بيوتهن ، وعلى أنوار مصابيحهن، تدرج فى الارض حياة لا يعرفن من أسرارها سوى انها صبى • ولا يسمعن من أصواتها الا « وع • وع »

٢

تنام الوالدة ليلتها وبجانبها كتلة اللحم والدم التى انحدرت عنها والتى تدعوها ابنها ولا تعرف من شأنها أكثر مما يعرف ميزاب العين من شأن المياه المنحدرة عنه ـ من أين جاءت ، والى أين تمضى ، وما غايتها من الارض وغاية الارض منها

ولو كان لكامله جبران أن تبصر الصلة التى بين فراشها فى بشرى وبين السرير الابيض الصغير فى مستشفى القديس فنسنت فى نيويورك ، لو كان لها أن ترى قطرات الحياة التى انبثقت من رحمها تلك الليلة تغور بعد ثمان وأربعين سنة فى رحم الزمان ، وفي بلاد قصية ، لتحولت بهجتها الى رعشة ولعادت الى قلبها ومفاصلها آلام المخاض دون آماله • ولو كان

لها أن تلمس أسلاك الروح الخفية التي تربط طفلهــا برجال ونساء وأطفال كثيرين في العــالم ، وبأرواح ما برحت خلف الستار تعد لها الاقدار معداتها لتبرزها الى مسرح هذا الوجود ـ ومنها روح كاتب هذه السطور ـ لو كان لكامله جبران أن تلمس تلك الاسلاك لتكهربت منشدة الدهشة ووقفت أنباضها

غير ان الحياة التي هي أم كل أم تشفق على بناتها وأبنائها . فلا تضع في حدقتي مخلوق من نورها أكثر مما يحتاج اليــه ذلك المخلوق ليستدل على طريقه . ولا تودع ساقية من قوتها أكثر مما يلزمه لقطع المسافة التي تخطها له

٣

لا يطلع الفجر في بشرى حتى يكون الخبر قد تمشى من باب الى باب بأن كامله ابنة الخوري اسطفان رحمه وزوجة خليــــل جبران قد وضعت صبيا . فتعيد جارة بيت جبران على زوجها ما قالته له الليلة السابقة ، ولا فاصــل بينهما وبين جيرانهما سوى جدار مشترك بين البيتين :

ـ صدقني ، كامله تستحق . لماذا الجدال ، امرأة عندها من الآدمية ما يفيض عنها . ليس أرجح من عقلها ، ولا أحسن من طباعها ، ولا أدفأ من لسانها . تمشي فلا تحس بها الارض . لكن ربنا ـ سبحانه في ملكه ـ لم يوفقها بالرجال . تزوجت حنا عبد السلام رحمه ، وكان رجلاطيبا ، فأخذها الى البرازيل ومات هناك بعد أن وضعت له بطرس . والآن أخذت هذا السكير ـ خليل جبران ـ أتراها تقبره كذلك بعد أن جاءته بهذا الصبي؟ يا لضياعها معه . خنصرها يسواه

ـ لماذا لا تقولين يالضياعه معها ؟ أخذها أرملة وعندها صبي

ـ وان تكن أرملة ـ أليست بعد في مقتبــــل العمر ؟ فهي لا تزيد على الخمس والعشرين

ـ بل تخجلين أن تقولي الخمس والثلاثين . ان تكن هي صبية فهو ليس عجوزاً

ـ عجوز وزيادة . عنده أربعون فما فوق

ـ ولا رأى الست والثلاثين • مع ذلك أخبريني بماذا هي أحسن منه ؟ بسبحتها ؟ أم بوجهها الاسمر الهزيل ؟ ان طلبته للرجولة فقليل هم الذين يرفعون أثقالا كالتي يرفعها . وان طلبته للكلام فلست أعرف كثيرين يفوقونه بذلاقة اللسان • وان طلبته للصورة فكم تعرفين في بشرى من هم أحسن منه صورة ؟ وان طلبته للبسط والعشرة فليس أطيب من عشرته وأقرب من بسطه

ـ من حيث البسط ـ الحق معك•متى حضر القدح فلتخرب الدنيا • ألا دعني منك ومنه ومن كل الرجال الذين على شاكلته

٤

يفيق بيت خليل جبران على وعوعة المولود الجديد • فينهض من فراشه في الزاوية صبي في السادسة من سنيه • وللحال يلتقفه خليل بين ذراعيه ويقبل وجنتيه المتوردتين وعينيه الواسعتين الناعستين ثم يضعه من يديه ضاحكا وقائلا :

ـ بطرس ! أعرفت ان أمك جاءتك بأخ ؟ أتحب أن تراه ؟ تقدم يا روحي تقدم

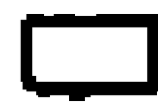
فيدنو بطرس من فراش أمه بخطوات مترددة ، وقلب خافق، ووجه يحاول أن يخفي الفرح الطافح عليه • ويجثو بقرب الفراش فوق أمه التي تمد يدها الى شعره الحريري وتحني اليها رأسه الجميل وترسم قبلة حنونا على جبينه النير وتقول له بصوت هادىء كله محبة :

ـ ماذا تريد أن تسمى أخاك ؟

ـ عنتر !

فتضحك الوالدة ويقهقه الوالد قهقهة يسمعها الجيران ، ويأخذ وجه بطرس بين يديه ويضغط على خديه :

ـ جبران اسمه ، جبران ـ جد العائلة . جبران أحسن من



في تلك الساعة ينتصف الليل في مدينة تدعى كولومبيا من ولاية سوث كارولينا ، من أعمال الولايات المتحدة، فتجلس في سريرها فتاة أمريكية اسمها ماري ، لها من العمر عشرة سنوات ، وتفرك عينيها بشدة كأنها تحاول أن ترى في ظلمة اليقظة . ما رأته في نور المنام

فقد حلمت انها ذاهبة الى المدرسة وأن كلابا كثيرة انبرت من جانبي الطريق تنبح عليها وتكشر عن أنيابها. فأخذت تستغيث برفيقاتها ، ورفيقاتها يقهقهن ساخرات بها وقائلات : « افتحي فمك الجميل يا ماري تهرب الكلاب ! » فأجهشت بالبكاء وطفقت تعدو بكل ما في رجليها الصغيرتين من السرعة الى أن دخلت غابة من الادغال الشائكة . فوقفت هناك لتستعيد أنفاسها ، واذا بها وحدها ولا كلاب ولا رفيقات ولا طريق . فامتلك عليها الجزع كل حواسها وما درت الا وهي على ركبتيها تصلي

وبينما هي تصلي شعرت بقوة تجذبها الى الامام حتى كادت تهمي على وجهها . فالتفتت واذا بخيط من الحرير الابيض قد شد على وسطها ظننته لاول وهلة خيط عنكبوت . واذ حاولت أن تقطعه وجدته أمتن من حبل قنب ، ورأت أنه يمتد في الغابة كأنه شعاع من نور في ظلمة . فنسيت في الحال كل ما بها من جزع وراحت تلملم الخيط وتتبعه لافة اياه على يدها، وقد أصبح شاغلها الاكبر أن تصل الى طرفه الآخر لتعرف بماذا شد ، ويد من تشدها به . وما فتئت تمشي مع الخيط الى أن بلغت شاطىء بحر عجاج . فالتفتت واذا بالخيط يمتد فوق الامواج الى ما وراء الافق . عندئذ جلست على الرمل تفكر في بهلوان رأته يوما في ملعب يمشي على سلك واحد وتقول في نفسها : « ليتني بهلوانة . » وظل هذا الفكر يساورها الى أن نهضت وبعزمها أن تفعل كالبهلوان ، فما وضعت رجلها على

الخيط حتى أفاقت من نومها وقلبها الصغير ينبض كقلب خشف يطارده ذئب • فأخذت تتلمس وسطها ويديها علها تجد أثرا للخيط • واذ لم تقع له على أثر عادت فغرقت في فراشها ، وشدت اللحاف الى فوق رأسها ، وانغمست فى نوم عميق



كانت ليلة الخميس من سبة الآلام • وكانت كامله جبران جالسة على حصير فى بيتها ، وعلى صدرها طفلتها سلطانه ، وعمرها سنة ، والى جانبها ماريانا ، التى سبقت أختها سلطانة الى هذا العالم بسنتين ، وقد ألقت برأسها على فخذ أمها ونامت نوما هنيئا ، وأمام الام بكرها من زوجها الثاني وهو شاخص اليها ومصغ الى كلامها بكل ما فى سنيه الخمس وأشهره الاربعة من الشوق الى استماع الحكايات

في تلك الليلة نام جبران وخلف أجفانه تتسابق خيالات غريبة : أكمة عليها صليب • وعلى الصليب رجل بلحية شقراء وشعر أشقر مسترسل وقد سمر بيديه ورجليه ، ولا ذنب له الا انه نزل من السماء ليجعل الناس كلهم صالحين، ومن حواليه جماهير يبدون تارة أقزاما بلا شعور ، وطورا عمالقة بلحى سوداء تكاد تلمس الارض • وفى أيديهم حراب يطعنون بها الذى على الصليب باصقين فى وجهه ومتهكمين عليه واسمهم اليهود • وفى « السماء » كرسى كبير مرتكز على أربعة نجوم ، وعلى الكرسى « الرب » وقد تدلت لحيته العظيمة البيضاء الى الارض وهو يقول : « هذا هو ابنى الوحيد • » ثم ينفخ في نار ليصبها من فوق على رؤوس اليهود • وعند أسفل الصليب امرأة اسمها العذراء تنتحب وتصيح ــ يا ابنى ! يا ولدى !

أفاق جبران مع فجر الجمعة « الحزينة » فرأى في الباب أخاه بطرس وزمرة من رفاقه ، وكلهم حفاة وعلى أهبة الخروج من البيت . واذ سأل أخاه الى أين ؟ أجابه بأنهم صاعدون الى الجبل « ليتعذبوا » مع المسيح ويأتوا بأزهار يضعونها على محمله فى

حفلة جنازه فى الكنيسة • فتوسل اليه أن يأخذه معه • ومال بطرس الى ذلك لانه كان يحب أخاه من أمه محبة جمة ، لكن رفاقه شدوه من كمه وخرجوا به فى الحـال قائلين ان لا وقت لهم « لمداداة » الاطفال وتمسيح دموعهم

بكى جبران وانتحب طويلا ، ولم تستطع أمه أن تغـريه لا بالزبيب ولا بالوعود • ولم يزده ضرب أبيـه ، الذى كان يدخن سيجارته ويمتص قهوته المرة ، والخصام الذى أدى اليه الضرب بين والديه ، الا عويلا ودموعا • فماكان من أبيه الا أن دفعه الى خارج البيت وأغلق الباب قائلا :

ـ حرمتنى لذة قهوتى وسيجارتى ، انقذف من وجهى

مضى الظهر ، وحان وقت الجنازة ، وجبران لم يرجع • فقالت أمه لعله ذهب مع بعض ابناء الجيران الى الكنيسة . وانطلقت مع زوجها وجاراتها وجيرانها الى الكنيسة . فرأت هناك بطرس ورفاقه وقد جاءوا بالكثير من الازهار . أما جبران فلم تر له أثرا •• وانتهت الحفلة فسألت بطرس عن أخيه فأجابها انه لم يره كل ذلك النهار • فقالت لعله عاد الى البيت • لكنها عندما رجعت الى البيت لم تجده هناك • فاضطربت أفكارها وانهالت على زوجها توبخه وتلقى المسئولية عليه اذا ـ لا سمح الله ـ حل بابنهما سوء • وأخيرا أخذت بطرس وبعض رفاقه وراحت تفتش معهم عن جبران • فوجدوه قبيـل الغروب فى المقبرة خلف الكنيسة وفى يده طاقة صـغيرة من « بخور مريم » ، وعندما أقبلت عليه لتؤنبه على فعلته تحول غضبها الى حنـان ومحبة بعد أن سمعت من فمه كيف انه ذهب الى البرية وحده « ليتعذب » مع المسيح • وكيف جاء بأزهار ليضعها على محمله فى الكنيسة فوجد الكنيسة مقفلة • وعندئذ قصد المقبرة ليفتش ما بين القبور عن قبر المسيح فيضع أزهاره عليه

٦

ذات يوم عاد جبران من مدرسة القرية دامى الفم ، مهشم

الاذنين ، ممزق القمباز • وعندما استنطقته أمه عن السبب أجابها ، والدموع في عينيه ، بأن أحد رفاقه دعاه « سهيان وبكاء » ، فلم يقبل الاهانة وردها بلكمة • غير أن رفيقه كان أقوى منه ، لانه أكبر منه سنا ، فرد له اللكمة لكمات • ولو لم يكن أكبر منه لكان « قبره » ولكنه سيكبر ويقبره بعد . فألقت عليه أمه موعظة فى حسن السلوك وتجنب الشر ، أما أبوه فدعاه جبانا وزاد فى لكماته لكمتين !

٧

وفي يوم آخر عاد بطرس من المدرسة الى البيت عند الظهر، وخلافا لعادته ، لم يكن معه أخوه جبران • واذ سألته أمه عن السبب أخبرها بأن الخورى « زرب » أخاه لأمرين : أولا لانه لم يحسن قراءة مثالته السريانية ، وثانيا لان الخورى فرض عليه كتابة المثالة عشر مرات • وعندما جاء يفحص دفتره وجد انه بدلا من كتابة المثالة قد صور فى الدفتر شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء ، وفى احدى أذنيه قد علق كتاب وفى الاخرى مخلاة

وكان قبل ذلك بأيام قد دخل أبو جبران البيت فوجد ابنه وفى يده فحمة يرسم بها على الحائط أشكالا لم يفهم الوالد لها معنى ــ كأنها بيت وليست بيتا ، وكأن أمام البيت فتاة كئيبة وليست فتاة كئيبة . فضربه وعنفه قائلا : ان خيرا له أن يدرس مثالته السريانية من أن يسود الحائط • لذلك عندما سمع بما فعله به معلمه الخورى قال من كل قلبه : « بيستاهل »

٨

كان جبران يلعب خلف البيت عندما رأى رجلا غريبا يسوق بغلا عليه قربتان وينادى « الزيت الحلو » فأطلت من باب بيتها عجوز فى يدها سبحة طويلة وسألت الرجل أن يذيقها زيته ففعل • وبعد جدال عنيف اتفقت وأياه على السعر ثم دخلت البيت وعادت بزجاجة فارغة وقالت لبائع الزيت أن يكيل لها

ثلاث أواق فكالها . وقبل أن يفرغها فى الزجاجة سألته العجوز عن دينه فأجابها انه روم . فأدارت فى الحال ظهرها عنه وعادت بزجاجتها الفارغة الى بيتها وأقفلت البـاب وراءها بعنف وهى ترسم علامة الصليب وتتمتم بكلمات مبهمة

بعد قليل كان جبران بجانب أمه يسألها :

ـ ما هو ديننا يا أمى ؟

ـ نحن موارنة يا ابنى

ـ ومن هم الروم ؟

ـ هم نصارى مثلنا

ـ ولماذا اسمهم روم واسمنا موارنة ؟

ـ عليك أن تسأل الخورى يا ابنى فهو ينبئك أحسن منى

ـ هل يخنقنا الرب اذا اشترينا زيتا من رجل روم ؟

ـ كلا يا ابنى

وما ان أتم الوالد أسئلته حتى دخل أبوه البيت ونادى بزوجته أن تأتيه بزجاجة فارغة ليبتاع زيتا . فأطل جبران من البـاب ورأى بائع الزيت الذى التقاه سابقا . ورأى أباه يأخذ منـه زيتا وينقده الثمن ويلح عليه بتناول العشـاء معهم وتمضية الليلة عندهم . فكاد يرقص فرحا . لكنه بكى عنـدما انصرف الزيات فى سبيله شاكرا لأبيه لطفه وكرمه

٩

ـ نويت السفر فى الغد من غير شر ؟

ـ نويت

ـ ودبرت فرسا ؟

ـ دبرت اثنين

ـ ولمن الثانى ؟

ـ لجبران

ـ لجبران ؟ لقد فقدت عقلك اذا كنت لا تمزح

ـ لا ، لست أمزح

ـ وكيف لولد عمره احدى عشرة سنة أن يتجول في وعور هذه الجبال على ظهر فرس وان ينام في خيام البدو وبين الماعز والاغنام ومع القمل والبراغيث ؟ أم أنت تريد أن تدربه منذ الآن في الطريق التي سلكتها بالتزام عد الاغنام والماعز ، وتغلم اصحابها ورعاتها ، ليشبع سنه ويجوع اثنتين ، ويقضي حياته فقيرا كما نحن فقراء ؟

ـ بل أريد أن أعلمه منذ الآن أن قرصة البرغوث والقملة لدغدغة لطيفة بالنسبة لقرصات لسان أمه . وان بعر الماعز والغنم لأطهر من جواهر الناس . وخيمة البدوي لأشرف من قصورهم . وبعد ذلك ، آن كنت تعرفين له طريقا أكثر كسبا وسهولة من طريق أبيه فدليه عليها

وأدى الجدال الى خصام بين الوالدين اشترك فيه الاولاد . فأخذ بطرس جانب أمه والابنتان الصغيرتان جانب والدهما . وبقي جبران على الحياد لانه كان يحب أمه حتي العبادة ، ولم يشأ أن يغيظ أباه خوفا من أن يحرم السفر معه في الغد . وانتهى الامر بأن العشاء الذى كانوا قد جلسوا يتناولونه على صينية مستديرة محوكة من قش الحنطة ظل كما كان . فعاد الخبز الى « المعجن » والطبخ الى القدر . وبرزت الفية العرق من مخدعها فنقل أبو جبران بعض ما في جوفها الى جوفه ـ ولم يسافر في الغد

١٠

عاد بطرس الى البيت عصر ذات يوم فوجد أمه وحدها ودموعها تترقرق على خديها . وقبل أن يفوه بكلمة بادرته بقولها :

ـ لاتخف يا ابني ، لا تخف . هو القلب يضيق به الصدر في بعض الاحايين فيهرب من العينين . ومتى كان الصدر صدر أم فياويل قلبها ، ويا ويل عينيها ! أنت مصر على السفر الى أمريكا منذ سنين ، وأنا وقفت في سبيلك حتى الآن . أما اليوم فقد فكرت طويلا وصليت لربي طويلا . وعرفت انك مصيب

فى عزمك . فلا حياة ولامستقبل لك هنا . وها أنت ذا بلغت سن الرشد • فأنا أقول لك « بحفظ الله » • انما ستطأ رجلي ظهر الباخرة قبل رجلك • وسيكون أخوك جبران وأختاك ماريانا وسلطانه معنا . أما هو فسيبقى هنا . وسنفعل كل مافى طاقتنا لنجعل حياته هنيئة وسهلة . فهو — كما تعرف — تهمه سيجارته وقهوته وكأسه اكثر من كل شيء

— اذا وفقنى الرب يا أمي فسيجارته لن تنطفيء وقهوته لن تنقطع وقدحه لن يفرغ • فأنا أحبه بالرغم من كل ما سببه لك من ألم . وسينال جبران قسطه من العلم . ومثله ماريانا وسلطانه • وستكونين أنت معززة مكرمة • وسندفن الفقر باذن الله

— وفقك الله يا ابنى . وفقنا الله جميعنا . ان قلبى يتفتت عليه • فهو سيبقى هنا كوتد ولا أطناب مشدودة به • ولكن ما العمل ؟ ما الحيلة وقد هرب منى الصبر ؟ اننى أخشى هذه السفرة يا بطرس • من يدرى متى نعود ؟ وقد لا نعود الى بلادنا • داخل البحر مفقود ، والخارج منه مولود • لقد اتكلت على الله يا ابنى . فاتكل عليه معى

— لا تخافى يا أمى . ففى بوسطن حيث نحن ذاهبون عدد غير قليل من أبناء بشرى • نحن نعرفهم وهم يعرفوننا • وسيسهلون لنا السبيل فى باديء الامر

وجف دمع الوالدة وتوشح وجهها النحيل بسحابة من آلام ما كان ومخاوف ما سيكون • أما بطرس فمشت فى عروقه عزيمة سنيه الثماني عشرة • وتفشت فى وجهه الناعم حمرة الشباب العذر • واتقدت عيناه الواسعتان بنور الأمل المكمم • وراقه أن أصبح فى عين أمه رجلا تلقى عليه مسؤولية الرجال . ولم يخطر له ولا لأمه ببال انهما ، حتى ولو شاءا لما تمكنا من أن يحيدا عن الخطة التى رسماها قيد شعرة • وان ما ندعوه « قضاء » ليس الا ما نقضيه على أنفسنا ، كل حسب أعماله فى

هذه الحيـاة وما سـبقها • وانهما فيما اختطاه لنفسيهما كانا يتممان مشيئات عديدة غير مشيئتيهما ، وكلها مقنع ومكتوم• ومنها مشيئة الحياة التى لم يبصرا منها حتى ذلك الحين الا اثنتى عشرة سنة برموزها المبهمة ، وأنوارها المتحجبة ، وظـلالها المتنقلة ـ وهى حياة جبران

خيالات بوسطن

لبوسطن « روح » تمتاز بها عن كل مدن الولايات المتحدة. فهى اذا نسبت الى بعض مدن العالم القديمة ، مثل دمشق وأورشليم ورومة ، كانت طفلة بنت يوم ، بل بنت ساعة. غير انها بين مدن الولايات المتحدة من أقدمها ، وهى تباهى كل المباهاة بقدمها • حتى اذا عيرها أحد بأزقتها الضيقة الملتوية دلته فى الحال على ما فيها من آثار تاريخية تعود الى الثورة وما قبلها وبعدها • واذا نافستها مدينة جديدة بعدد سكانها أشارت الى عدد كبير من أبنائها الذين كان لهم أبعد أثر فى تحرير البلاد ، وتوجيه سياستها وتدريب حياتها الداخلية والخارجية • وهى تفاخر بلقبها « مدينة العلم » • ففيها من المعاهد العلمية والفنية ما ليس فى سواها • وقد أنجبت نفرا من خيرة الكتاب والشعراء والفلاسفة فى امريكا . وهى ضنينة بسمعتها ، شديدة الحرص على ثقافتها • وقد بلغ بها حرصها هذا حدا أصبحت معه حياتها خليطا من التقاليد المتحجرة والكبرياء الفارغة • فمن أكبر مفاخرها ان فيها دما انجلوسكسونيا أكثر مما فى سواها من مدن أمريكا • وانها لم تمزج هذا الدم بدم أجنبى الى حد ما فعلته اخواتها • فمدينة كنيويورك أو شيكاغو ليست أمريكا فى نظرها ، وان تكن فى أمريكا . فالامريكيون فى عرفها أنواع ثلاثة ـ أصلاء ، وشبه أصلاء ودخلاء • أما الاصلاء فهم سلالة الذين نزحوا أولا من بلاد الانجليز ـ وهولاندة ـ الى أمريكا الشمالية . وفى مقدمتهم « الحجاج » الذين قطعوا المحيط الاطلنطى على مركب شراعى

يدعى « مايفلور » واستعمروا مقاطعة « انجلترا الجديدة » (نيوانجلند) فى الشمال الشرقى من البلاد التى أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة . حتى ان أعظم شرف تدعيه عائلة أمريكية اليوم هو رد نسبها الى أحد أولئك الحجاج • وقد تضخم عدد هؤلاء « الاشراف » ـ وبالاخص فى بوسطن وجوارها ـ الى حد أن الاسطول الانجليزى بمجموعه لا يكاد يقل فى عام ١٩٣٤ ما أقله ذلك المركب الشراعى فى عام ١٦٩٢ من أسلاف «شرفاء» امريكا اليوم ـ اذا صدق ادعاء كل المدعين !

وشبه الاصلاء هم الذين نزحوا قبيل الثورة وبعدها من أوروبا الشمالية بما فيه المانيا والدانمارك واسوج ونرويج . أما الدخلاء فهم المهاجرون الذين أخذت جيوشهم تتدفق على الولايات منذ منتصف القرن الماضى ما بين يهود وايتاليان ومجر وسلاف وسوريين وسواهم • وهم محتقرون جدا فى نظر الاصلاء وأقل احتقارا فى نظر شبه الاصلاء

فى بوسطن أحياء مختلفة لمختلف الامريكيين الدخلاء . وكلها حقير وقذر • وأحقرها وأقذرها حى الصينيين • مررت فيه يوما فى صيف سنة ١٩٢٥ فكدت أضع منديلا على أنفى لشدة الروائح المتصاعدة من كوم الاقذار الملقاة فى الشوارع وفيها قشور البطيخ والليمون والموز وفضلات المطابخ السابحة فى بحيرات صغيرة من السوائل القاتمة • وللذباب عليها أعراس ومهرجانات • وللكلاب فيها صيد وفير • وعن جانبيها بيوت كالحة الجدران عابسة المداخل تطل عليك من بعض نوافذها قمصان وكلسونات وكلسات تتنشف فى الهواء ان عزت الشمس • وأمامها صبية وبنات من صينيين وسوريين وارلنديين يلعبون ويتشاتمون ويتشاجرون

ذاك هو الحى الذى اختاره فى بدء هجرتهم أكثر السوريين الذين قصدوا بوسطن للارتزاق • فجاورت فيه نارجيلة التنباك نارجيلة الافيون ، وكان بينهما ما يكون بين الجيران . ولك أن

تصور لنفسك هذا الحى كيف كان فى عام ١٨٩٥ حين حلت فيه كامله رحمه جبران مع أولادها الاربعة

١

ـ جبران ، قم يا ولدى ، قم . كفاك درسا

ـ وماذا تطبخين لنا عشاء يا أمى ؟

ـ مجدرة ، يا روح أمك ، أنت تحب المجدرة

ـ كل ما تطبخينه يا أمى لذيذ ، وكل ما تصنعينه حسن . سلم الله يديك

ـ ما كان أبوك يقول كذلك ، وأخوتك كثيرا ما يتذمرون من طبخى

ـ مالك ولأبى وأخوتى ، عندك جبران وكفى

ـ ما بالك تنسى أخاك بطرس ؟

ـ وعندك بطرس ، وهو سيجمع لنا مالا كثيرا . كنت فى مخزنه بعد انصرافى من المدرسة فباع وأنا هناك قميصا بدولار وبرنيطة بدولارين . بطرس سيكون غنيا وسنعود الى بشرى فنبنى بيتا كبيرا . وسنجعلك سيدة ونأتيك بخدم كثيرين

ـ أدامكم الله لى يا ابنى ، فأنا راضية ما زلتم معافين . العافية خير من المال

ـ وسأكتب أنا روايات كالتى أقرأها الآن

ـ وماذا تقرأ الآن ؟

ـ كوخ العم طام

ـ بالانجليزية ؟

ـ أبالعربية اذن ؟ طبعا بالانجليزية

ـ ليكن الصليب سياجك يا ابنى ، أفى سنتين حفظت الانجليزية الى أن أصبحت قادرا على قراءة كتاب كبير كهذا الكتاب ؟

ـ معلمتى الانجليزية تحبنى كثيرا ، وهى التى تسمينى « خليل » لانها تستهجن أن يكون اسمى الاول كاسمي الاخير .

وقد أعطتنى اليوم هذه الرواية · ما أبشع الناس يا أمي وأظلمهم ويا ليت لك أن تقرأى حكاية العم طام وكم ذاق من ظلم الناس · سأقصها عليك عندما أنتهي منها

ـ لقد غيرت الحديث وأنسيتني ما كان بخاطرى أن أقوله لك ، وهو أن تترك كتابك وتخرج فتلعب قليلا · من الكتاب فى المدرسة الى الكتاب فى البيت · ستهلك صحتك

ـ ومع من العب ؟ مع أولاد الصينيين أم الارلنديين أم السوريين ؟ ما أكثر السفهاء والاشقياء بينهم يا أمى ـ حتى بين البنات . وما أجمل اللسان النظيف والقلب النظيف . انى لاحسن حالا فى معتزل عنهم مع كتبى ودفاترى وأقلامى الرصاصية · فهى نقية طاهرة

ـ مع ذلك لا بأس لو خرجت وتمشيت ولو نصف ساعة

ـ او ما أخبرتك بما فعلته معلمة التصوير ؟ جاءت اليوم برجل قالت انه مصور ـ يصور بيده يا أمي لا بالآلة ـ وأرته بعض رسومى · فقال لى : «أنت فرخ مصور» ، ودعانى لزيارته فى الغد

ـ وهل أنت ذاهب ؟

ـ طبعا

ـ أو ما كان الافضل لك ولنا يا ابنى لو ترددت فى أوقات فراغك على مخزن أخيك ودرست تجارته لتصبح في المستقبل عونا له بدلا من أن تصرف وقتك فى التصوير ومطالعة الروايات؟

ـ يا للعيب ! أأم جبران تقول هذا القول ؟ خنصر مصور يسوى ألف تاجر يا أمى ··· ما عدا بطرس · وصفحة من الشعر أثمن من كل ما فى المخازن من الانسجة

ـ لكننا فى حاجة الى المال

ـ وسآتيك بالمال · لا تخافى · اذا قصر بطرس لن يقصر جبران

ـ ليحفظكم لى الرب يا ابنى

٢

ما صدق جبران أن انتهت الصفوف بعد ظهر اليوم التالى حتى راح يفتش عن العنوان الذى أخذه أمس من المصور · كان يمشى ولا يبصر الأزقة وما فيها ومن فيها ، كأنه محمول على سحابة ، وكأن خلف الباب الذى يقصده عالما مملوءا أسرارا ، والرجل الذى سيفتحه له سيكشف له الستار عن سر تلو الآخر · أولم يقرأ ويسمع كيف ان بعض مشاهير الفنانين ابتدأت شهرتهم الفنية على يد انسان مجهول ساقته اليهم المقادير أو ساقتهم المقادير اليه ؟ ولا شك فى أن هذا المصور هو الرجل المقدور لجبران خليل جبران ــ هو ملاكه الحارس الذى سيفتح له أبواب الارض والسماء

كان جبران يؤلف فى فكره الحديث الذى سيدور بينه وبين المصور وأبدا ينتهى بأن يترك المصور مشدوها بغزارة مواهبه، وجميل منطقه ، وحسن مظهره ، وطيب أخلاقه ، هاتفا : « من كان مثلك حرام أن تضيع مواهبه بين أناس لا يعرفون لها قيمة · انى سأهتم بتربيتك الفنية · وستكون مصورا عظيما · » وكان خياله الفتى الخصب يورق ويزهر ويثمر برسوم مستقبل زاهر عندما قرع الباب

رحب المصور بزائره وأخذ بيده وقاده الى سيدة جالسة فى كرسى على دكة خشبية صغيرة وقال لها : ها هو ذا الشاب السورى الذى أخبرتك عنه · وقد رأيت فى رسومه قوة خيال غريبة وذوقا فنيا دقيقا

مدت السيدة يدها الى جبران فأخذها بيده وأحس بدمه يصعد الى وجهه ثم يهرب منه · وبرعشة تتمشى فى كل عروقه فتربط لسانه وتضغط على حلقومه · ونكس عينيه الى الارض لكيلا يرى صدر السيدة المكشوف حتى الثديين وذراعيها العاريتين حتى الكتفين

ــ أنت خجول يا مستر جبران · تقدم ، تقدم واسمح لى أن

أمرر أصابعي فى شعرك الكستنائى الناعم . شعرك طويل كشعر الفنانين • اذن أنت فنان منذ الآن • دعني أقبلك على جبهتك الجميلة ـ هكذا ، هكذا • بظنى ان بلادك جميلة وكل أهلها أصحاب فنون • أليس كذلك ؟ أنا أحب الفن•لكن شغلى فيه حتى الآن لم يتعد جلوسى فى هذا الكرسى لاصور لا لاصور ما قولك فى صورتى هذه ؟ انها لما تكتمل بعد • وقد أوشكت أن تكتمل

وأشارت السيدة الى خامة على المنصب لا يزال دهانها رطبا

عند ذاك رفع جبران عينيه الى الخامة وقال ، وكأنه بما قاله شاء أن ينتقم من محدثته لانها عاملته كما لو كان صبيا صغيرا لا رجلا مدركا :

ـ لا تكتمل الصورة حتى من بعد أن يتركها المصور • نحن لا نصور الا بدايات أو مقدمات•أما الصورة الكاملة فلا يبدعها الا الله

ـ كلامك أكبر من سنيك ، فكم عمرك يا مستر جبران ؟

ـ أربع عشرة سنة

ـ لا غير ؟

ـ وشهران

ـ أنت لم تعطنى بعد رأيك فى صورتى ، قل رأيك بالتمام، وأنا أكفل ان صديقنا المصور لن يغتاظ أبدا

أخذ جبران ينقل عينيه من السيدة الى الخامة ومن الخامة الى السيدة وهو لا يكاد يبصر لا تلك ولا هذه ، لانه ظل حانقا على نفسه كيف انقاد للسيدة فتركها تداعب شعره وتقبله على جبينه • ولو انه كان الرجل الذى يعتقد لما تجرأت السيدة أن تفعل به ما فعلت . لقد كان من الواجب أن يريها بتصرفه وحديثه انه ليس صبيا بعد • وها هى تسأله رأيه فى صورتها فهل يجيبها أم لا ؟ الافضل ألا يجيبها لتعلم انه ليس طوع بنانها وانه ــ كرجل ــ له الحق أن يتمرد . وكفنان ــ أن يحتفظ

برأيه لنفسه

ولكن ، أليس من الانسب أن يعطيها جوابا يدهشها ويدهش المصور فيبرهن لهما انه ليس الصبي الذي يعتقدان . وانه ، على حداثة سنه ، ذو قدم راسخة في الفن ؟ غير انه لم يهتد الى جواب يرضيه لانه كان يفكر في السيدة التي أمامه : ترى كم عمرها ؟ خمس وعشرون ؟ أكثر . ثلاثون ؟ هي أقرب الى الثلاثين منها الى الخمس والعشرين . لكنها فتانة وما أجمل الالفة الفنية بين ثوبها المخملي الارجواني وبشرتها المشربة بالدم والمائلة الى السمرة !

ـ أنا بانتظار جوابك يا مستر جبران

يسمع جبران في صوتها لهجة الكبير يداعب الصغير أو يتلطف معه ، فيزداد حنقا على نفسه وعلى السيدة . لكن لسانه يتحرك بغير ارادته فيجيبها بجد :

ـ سأقول رأيي عندما تكتمل الصورة

ـ حسن جدا ، ستكون الصورة عندي غدا ، فهلا تكرمت علي بزيارة ؟ تعال من كل بد . سأنتظرك عند الساعة الرابعة بعد الظهر . واليك عنواني

٣

خرج جبران من عند المصور وفي جيبه ورقة عليها اسم السيدة وعنوانها ، وفي يده رزمة من الاقلام الملونة أهداها اليه المصور « تذكارا لزيارته » . وفي رأسه خيالات غير التي رافقته من المدرسة الى الباب المجهول . فقد تبين له ان المصور ليس ملاكه الحارس ، أفلا يمكن ان تكون السيدة التي لاقاها عنده ذلك الملاك ؟ لكنها أظهرت شيئا من « السماجة » في بدء حديثها معه . كيفما كان الامر ، هناك باب جديد يطرقه في الغد . ولعله الباب المؤدي الى فردوس أحلامه

في تلك الليلة ، وهم يتناولون العشاء ، قص جبران على أهل بيته ما كان له عند المصور

ـ المصور لا بأس به كمصور ، وكرجل هو لطيف للغاية • لقد دعاني أن أجلس له

ـ أن تجلس له ؟ وما معنى ذلك يا ابني ؟

ـ معنى ذلك يا أمي أن أجلس أمامه مثـــلما يريدني أن أجلس ليصورني مثلما يريد أن يصورني

ـ يصورك ؟ ما لنا وللصور يا ابني ، ومن أين نأتي بالمال لندفع ثمن الصور ؟

ـ لا يا أمي ، لا • أنت لا تفهمين من التصوير أكثر مما أفهم من التركية • المصور يحتاج الى رجال ونساء من كل الاعمار والاشكال ليستعين بهم على تصوير ما في خاطره • مثلا : لو أردت أن أصور مريم العذراء ـ وأنا قط لم أر مريم العذراء ـ فقد أصورك ، لكن بالثياب التي أختارها ، وقد أصورك واقفة أو جالسة أو منحنية ـ باسمة أو باكية ـ وقد أختار أن أصور على ذراعيك طفلا ـ حسبما يوحيه خيالي . افهمت الآن ؟

ـ ليتني لا أعيش لأفهم

ـ وهكذا فسأجلس أنا لهذا المصور عندما يدعوني • وقد وعد أن يعطيني أدهانا زيتية بديلا من الاجر

ـ ليته يعطيك نقدا

ـ فأشتري بالنقد أدهانا ، وهكذا أظل حيث أنا

وسأله بطرس :

ـ أهذا كل ما فعلته في غيبتك الطويلة ؟

ـ لم أخبركم عن الأهم بعد • والاهم هو اني التقيت هناك بسيدة هي من أشراف بوسطن ومن الامريكيين الاصلاء وهي بلا شك من أكبر الاغنيـاء . وقـد احبت أن تطلـع على رسومي • فدعتني لزيارتها في الغد

هنا انهالت الاسئلة على جبران بغير انتظام ومن كل واحد من أفراد العائلة ، فسألته ماريانا :

ـ أصبية هي أم عجوز ؟

ـ تقارب الثلاثين
وسألت الأم :
ـ أمتزوجة أم عازبة ؟
ـ لا أعرف ولا يهمني أن أعرف
وسألت سلطانه :
ـ أجميلة هي ؟
ـ جميلة جدا
وسألت ماريانا
ـ وما اسمها ؟
ـ ذلك سر
وسأله بطرس وأمه معا :
ـ أوذاهب أنت لعندها غدا ؟
ـ طبعا
وهبطت على الكل سكينة عميقة أحس معها جبران بمرارة تتفشى في دمه • فنهض عن كرسيه وضرب الطاولة بيده قائلا:
ـ حتى متى تنظرون الى نظركم الى صبي جاهل ؟ أنا اليوم رجل ولي الحق أن أفعل ما أشاء وأذهب حيث أشاء • أتظنون أني قاصر عن الدفاع عن نفسي وأني لا أعرف الصلاح من الطلاح ؟
فقالت أمه بصوت حنون مخنوق :
ـ وقانا الله يا ابني ساعة التجربة
ـ أنا أكبر من التجربة ، وقد أخطأت عندما أخبرتكم ما أخبرتكم عن هذه السيدة
ولو كان لغريب أن يراه ويسمعه في تلك الحالة لعجب لحمل صغير يقلد بثغائه زئير الاسد

٤

ـ أهلا وسهلا بصديقي اللبناني • لقد جئت ـ ولا بأس • ولو كنت أعرف رقم تليفونك لتلفنت لك أن ترجيء زيارتك الى

الغد . لانني نهضت اليوم بصـــداع أليم في رأسي . فلزمت فراشي طول النهار . لذاك تراني كما أنا ـ في قميص النـوم والكيمونا . فاعذرني . واعذرني اذا ما استقبلتك في مخدعي، لاني أكون أكثر ارتياحا اذا اتكأت في فراشي . وأنت لا شك تريد لي الراحة . ومن ثم فالصورة ـ صورتي ـ معلقة على جدار مخدعي فتعال معي وقل لي لماذا لم تعطني رأيك فيها البارحة . ولعلك تفعل اليوم ما لم تفعله أمس

وقادت صاحبة البيت زائرها الى مخدعها وأجلسته على كرسي كبير من الحرير ، وهو يهم بالاعتذار والانصراف ، قائلا :

ـ قد يكون من الافضل ياسيدتي لو تركتك الآن وعدت في الغد

ـ لا ، لا . أنت هنا الآن . ولعل صداعي يذهب بوجـودك معي . فقد بدأ يخف . وبيننا حديث طويل . فأنت شرقي وأنا أحب الشرق وما فيه من سحر أبدي . فكيف به اذا اتحد ذلك السحر بسحر الفن ؟ وها أنا ، اكراما لقـدومك سأحرق لك بخورا شرقيا

وجاءت بمجمرة من الفضة في شكل تنين ورشت فيهـــا مسحوقا من خشب الصندل وأشعلته بثقاب . فتصاعد دخانه الابيض العطري وامتزج بما في الغرفة من عطور . ثم وثبت الى سريرها وانكفأت بمرفقها على وسادتها ساندة رأسها بيدها، وقد استرسل شعرها الاسود اللامع، بعضه على صدرها والبعض على زندها العارية . وأشرق في عينيها السوداوين الواسعتين نور لم يره زائرها من قبل

ـ أعذر ما بدا مني البارحة . فأنا لن ألعب بشعرك ، ولن اقبلك على جبهتك . وهات قل رأيك في الصورة قبل كل شيء

ـ تمنيت لو قام ليوناردو من قبره ليصورك ، اذن لما أعطاك عين نعجة قريرة ، بل عيني نسر جريح . ولما أطبق شفتيك على بسمة الوردة للشمس ، وفي قلبها قطرة من أجفان الفجر ، بل

على بسمة الوردة وقد طارت من قلبها لؤلؤة الصباح . انى لأرى في وجهك حزنا ليس فى الصورة ، وقناعا من الغبطة الكاذبة يبدو فى الصورة حقيقة راهنة

ـ انك لشاعر وفنان وساحر فى وقت واحد . فمن أطلعك على أسرار حياتى ؟ ومن انبأك أن أهلى زوجونى من تاجر جلود طمعا فى ماله فأفلس بعد زواجنا بشهرين . وأنه يزيدنى سنا بأكثر من عشرين سنة . وأنه لا يعرف من العــــالم الا جلود البقر والماعز والغنم . وانى قضيت فى بيته عشر سنوات هى عشرة دهور من الألم والمرارة ؟ هنيئا لمن يقع فى هــــذه الدنيا على قلب يفهم قلبه . انها لاكبر غبطة يا صــــديقى . وأراك ، بالرغم من سنيك ، صاحب قلب فهيم . صدق ان هذا البيت لقبر لى . اقترب منى قليلا . اقترب . ودعنى أضع يدى فى يدك لعلنى اكتسب من شعرك وفنك وسحرك ما ينسينى الذى أنا فيه

ـ أويجور زوجك عليك كثيرا ؟

ـ يعاملنى كما لو كنت حظية عنده اشتراها بماله . وأنا فى الواقع حظية وقد ابتاعنى بماله ولو كان بامكانه لما سمح لى بالخروج من البيت . ولكن دعنا منه . وهات حدثنى عنك وعن شرقك الجميل

ـ وأين زوجك الآن ؟

ـ لقد جدد تجارته منذ عامين وهو الآن فى مكتبه وعنــده الليلة أمور وجلسات هامة لن يتخلص منها قبل نصف الليل . حاولت كثيرا أن ألبسه جلد انسان بدلا من جلد ثور ، وأن ألين من طباعه الشرسة ، فلم ينلنى من ذلك سوى الوجع المبرح ـ وجع الجسم ووجع الروح . وما صداعى اليوم الا نتيجة معركة جرت بينى وبينه هذا الصباح

ـ وهل خف صداعك الآن ؟

ـ لقد كدت تزيله بما لقيته فيك من جميــــل الحس وطيب

الادراك • ولعلك لو وضعت يدك على جبهتى لزال ما تبقى فى رأسى من وجع • اقترب منى قليلا • اقترب

وارتفع صدرالسيدة بتنهدة عميقة،ولمعت فىعينيها دمعتان• وللحال أجابتهما عينا جايسها بالمثل • وكان سكوت

ـ لست أهلا لدمعة من دموعك يا صديقى • وقدكان الأولى بى أن ألجم لسانى وأبقى ألمى دفينا فى قلبى مثلما كان كل هذه الاعوام • فاعذرنى

ـ منذ اليوم أصبح ألمك ألمى

ـ ما أحن قلبك وأجمل روحك ـ وما أضعف النســاء ! انى لأشعر بثقل على صدرى ، وضغط على حنجرتى ، ودوخة فى رأسى ـ اقترب منى قليلا ••• اقترب •••

٥

ودع جبران « ملاكه الحارس » نحو الساعة الحادية عشرة من الليل ومعها ودع صباه وعفة الصبا وطهارته • وأحس عنـــد خروجه من ذلك البيت كأنه خارج من أتون • وكأن كل قطرة من دمه قد تحولت الى جمرة ملتهبة ، وهو لا يدرى كيف يهرب منها وبماذا يبردها • لكنه ما مشى بضع خطوات فى الشــارع حتى تحول اللهيب فى داخله الى قشعريرة اشمئزاز وندم • وراح يؤنب نفسه تأنيبا موجعا • وتذكر كلمات أمه : « وقاك الله ساعة التجربة » وجوابه لها أنه أكبر من التجربة • « بلى• أنا أكبر من التجربة • ولن أقترب من امرأة فيما بعد الا التى اختارها زوجة لى • وسأخبرها بزلتى هذه ـ التجربة • الزلة ـ ما هى التجربة ؟ ما هى الزلة ؟ الزلة هى أن تسمع استغاثة قلب ولا تغيثه • والتجربة أنيدعوك الحب لتقدم نفسكمحرقة على مذبحه فلا تقدمها • أأتركها فريسة لتـــاجر الجلود ؟ لله ما أجملها ، ولقد اختارتنى من بين كل من فى بوسطن ـ بل فى العالم ـ من رجال • فما أسعدنى ! » وعادت النار تشبفى داخله فلا تلبث أن تنقلب الى قشــعريرة ، وهكذا بين اللهيب

والقشعريرة بلغ بيته ، وبخطوات كأنها خطوات خيال صعد السلم الخشبي اللولبي المظلم الى الطبقة الرابعة ــ وهي الاخيرة ــ حيث كان يسكن مع عائلته • وكان كلما صعد درجة يردد كلمات أمه : « وقانا الله ساعة التجربة »

كان من في البيت قد ناموا ــ الا أمه • فهي كانت تنتظره في ردهة الاستقبال الصغيرة التي كانت غرفة مائدة كذلك • وما أحست بوطأته على الدرج حتى هبت الى الباب ففتحته . وما وقع نظرها على ابنها حتى شعرت بغربة تقصيها عنه ما شعرت قط بمثلها من قبل

ــ جبران ، أطلت غيبتك عنا هذه المرة أكثر من كل مرة يا ابني • انتظرناك للعشاء حتى الثامنة • وقد طبخت لك طبخة تحبها • شغلت بالنا كثيرا •هل تعشيت يا روحي؟

ــ ما معنى شغل البال يا أمي ؟ هل أنا طفل ؟ انني رجل وأكره أن أقدم حسابا لأحد ــ حتى لأمي ــ عن كل خطوة أخطوها

ــ هل آتيك بالعشاء يا روح أمك ؟

ــ لا ، فقد تعشيت

ــ نعم ، عندها

ــ كنت واياها لا غير ؟

ــ بل كان رهط من علية القوم وأشهر الفنانين في بوسطن

ــ وزوجها كذلك ؟

ــ لم أر زوجها ، ولا أعرف اذا كان لها زوج

ــ أهي جميلة ؟

ــ اذا كان لك حديث عن غيرها يا أمي فهاتي نتحدث والا فالنوم أفضل

ــ قم الى فراشك يا عين أمك ، واجتهد أن لا توقظ أخاك بطرس فهو ــ واولداه ! ــ تعبان ، وقد نام باكرا ولم يأكل غير لقمة أو لقمتين

٦

مر عام مزدحم بالزيارات السرية الى البيت السرى . وباللذة والألم . فقد ظن جبران في بادىء الأمر - عندما قطف الثمرة المحرمة - أن بامكانه أن يأكل حلالها دون حرامها ، وأن يتذوق حلاوتها دون مرارتها . ولعله لم يفكر فى حلالها وحرامها على الاطلاق . بل كان يربت لنفسه لتوصله - فى سنة - الى ما يشتهيه الكثير من الرجال ولا يدركونه . غير آنه عندما شعر بالمرارة وأحب أن يطرح الثمرة من يده وجد بذورها فى كل نقطة من دمه ، ووجد انه اذا طرحها سيطرح معها قلبه . فازداد تعلقا بها واعتقادا بأن المرارة ليست فيها بل فى الذين حرموها . وبكل ما فى فكره الفتى من حماسة وفى خياله من لهيب ، راح يعالج فى نفسه شرائع البشر وقوانينهم ، وبالاخص ما تعلق منها بالزواج . فيراها زردات من فولاذ قاس ، لا قلب لها ولا خيال ، وقد حبك الجهل منها شبكة هائلة لكل من له خيال كخياله وقلب كقلبه

لكن التكتم أصبح جرابا من الحيات والعقارب يتوسده فى نومه فيعكر عليه أحلامه . ولماذا التكتم ؟ خوفا من الفضيحة . وأنى المهرب من الفضيحة بالتكتم ؟ انها لدائرة مسحورة ومن الواجب تحطيم حلقاتها كيما يتحرر الناس من سحرها ، وهو سيكرس حياته لذلك الواجب حبا بالانسانية المتألمة . ولكن فى التكتم لذة الجهاد . فلا يكتم الا من فى قلبه سر عميق . ولا يحمل فى قلبه سرا عميقا والعالم كله يحاول انتزاعه منه . فهل يقوى عليه العالم ؟ معاذ الله ! انه لأقوى من العالم

على وقع هذه الافكار وأمثالها كانت خطوات جبران تتسارع فى أول الليل الى البيت السرى . وما أن ادرك الباب ورفع يده ليكبس زر الجرس الكهربائى حتى رأى خلفه - على ضوء مصباح الشارع - رجلا طويل القامة ممتلئها ، حليق الوجه ، لطيف

المعاني ، لا يزيد عمره على الخمسة والثلاثين ، وقد تأبط محفظة جميلة من الجلد الاسود

ـ سأريحك يا سيدى من دق الجرس

وأخرج الرجل مفتاحا من جيبه ، وفتح الباب ، وقال لجبران بصوت كله لطف وتأدب :

ـ تفضل يا سيدى وادخل

دخل جبران مترددا ، مضطربا ، ودخل وراءه الرجل ونادى صاحبة البيت باسمها فكانت أمامه بلحظة • وارتمت على عنقه تقبله ، وقد امتقـــع لونها وهى تحـــاول أن تستر رعشتها ودهشتها :

ـ ماذا جرى يا عزيزى ـ ماذا جرى ؟

ـ لا تجزعى ، لقد نسيت محفظة الدراهم ، فعدت فى الحال من المحطة • اسرعى الى بها قبل أن يفوتنى القطار

فجاءته بها وقالت وهي تناوله اياها :

ـ لقد أصبحت كثير النسيان فى هذه الايام يا عزيزى•وقد تسربت العدوى منك الى . فقد انسيتنى بلهفتك وسرعتك أن أسلم على المستر جبران وأن أعرفك اليه • فهو فنـــان شرقى التقيت به أمس عند بعض الاصدقاء . وقد تلطف الليلة وجاء يحدثنى عن فنه . هذا زوجى يامستر جبران

ـ انى لسعيد بمعرفتك يا مستر جبران • وكنت أتمنى لو لم أكن مضطرا الى السفر لأعرفك أفضل من هذه المعرفة القصيرة • فاعذرنى ، والى اللقاء القريب ان شاء الله

وقبل الرجل زوجته وانصرف



بعد شهر من تلك الليلة كان دخان الصندل يتصاعد من فم التنين الفضى فيتكاثف لحظة ثم يتخلص ، ويلتوى هنـــا ثم يستقيم هنالك ، وجبران يرقب رقصته الهادئة وينفخ فيه بين الفترة والفترة من دخان سيجارته فتتكون من مزيج الاثنين

ألوان وخيالات غريبة • وكان فى الغرفة صمت عميق
ـ الام تعذبنى يا خليل ؟
ـ لاتسميني فيما بعد « خليل » اسمى المستر جبران
ـ ما كنت اظنك حقودا قاسيا الى هذا الحد ، الانى قلت فى صورتي الزيتية ، التى كانت سبب تعارفنا ، انها أجمل من صورتي التى رسمتها أنت بقلم رصاص، تمزق مارسمت وتفعل بى ما فعلت ؟
ـ لم أفعل جزءا من مائة مما كان من الواجب أن أفعل • أنت لا تفهمين من الفن شيئا ولا تميزين بين الرأس وذنبه • لقد صورتك شفافة كروح ، جميلة كخيال ، بعيدة كحلم • صورتك مثلما أراك بعين حبى • فاستغربت الصورة لأنك من تراب ولا تبصرين نفسك الا بعين من تراب • ومن كان من تراب لا يعرف العذاب • فبأى لسان تقولين انى أعذبك ؟ أما صديقك الذى صور هذه الصورة ، والذى تفاخرين بصداقته وتعظمين فنه ، فهو لا يفهم من الفن أكثر مما تفهمين • فالحقى به ودعينى وشأنى
ـ عيب عليك أن تقول ذلك • وللرجل مقامه وشهرته فى عالم الفن • ولعلك متى بلغت سنه ، وحويت اختباره ، تكون أعظم منه • أما الآن فأنت ما تزال فى أول عمرك •••
ـ فى بنصرى من الفن أكثر مما فى كل رأسه • ومن ثم فاعلمى أننى أكبر منك ومنه • وأنك ان كنت لا تزالين تحسبيننى صبيا فبقدرتى أن أريك كيف تستغنى الرجال عن النساء
ـ أما أنا فأريك كيف لا تستغنى النساء عن الرجال
ومد « الملاك الحارس » جناحيه وغمر بهما « محروسه » وكان سكوت ، تلته دموع • وكان عتاب ، تلاه انقلاب
ـ لقد أنسيتنى المهم ، وهو سفرك الى لبنان • أفلا مرد لما أقره أهلك ؟

ـ قلت لك ان رأى أهلى رأيى • ولولا ذلك لما أقدمت على السفر • فأنا لا أكاد أعرف من لغة أجدادى الا ألفها وباءها • ولا أعرف من بلادى غير مسقط رأسى • ومن الضرورى لى أن أدخل مدرسة فى بيروت لاتعلم لغتى على الاقل ، وأتعرف الى بلادى

ـ قد يكون قصد أهلك من ذلك اقصاءك عنى • لقدنجحوا لقد نجحوا . فستنسانى يا خليل . ستنسانى

ـ ان نسيتك فلتنسنى يمينى

ـ لقد أعطيتنى زهرةشبابك ياخليل ـ لقدأعطيتنىرجولتك

ـ بل لقد أعطيتنى رجولتى

هدية الموت

فى شمس ابريل سحر ليس تعرفه بقية الشهور • لاسيما فى المدن المكتظة بالسكان مثل نيويورك ولندن وباريس،حيث يقضى الناس الشتاء وكأنهم فى حصار • أما العدو المحاصر فهو البرد • وأما عساكره فالعواصف والثلوج والامطار والغيوم العابسة الغضوب . وهو عدو لا يكف عن المهاجمة ولا تصده الجدران الغليظة • بل يدخل على الناس فى منازلهم ومعابدهم ومصانعهم والابواب مقفلة والنوافذ مغلقة • وحيثما لمست أصابعه الخفية أجسادهم تقهقر الدم أو تجمد • لذاك يكافحونه بالنار والبخار والالحفة الدافئة . واذا ما التقوه خارجا نازلوه وعليهم دروع ثقيلة من الأكسية الكثيفة ، وفى أرجلهم أحذية من الجلد والمطاط تكاد تكون أغلالا • وتراه ، مع ذلك ، يسد الزكام أنوفهم ويفتك بصدورهم وظهورهم ومفاصلهم • لكنهم عندما تطل عليهم شمس ابريل يشعرون أن بجانبهم حليفة لا تقهر ، وأنهم سينالون الفرج عن يدها • فيفتحون لها نوافذهم ، ويخرجون لملاقاتها جذلين ، ويطربون عندما تغتسل وجوههم بذوب طاهر من أشعتها الدافئة •واذا ما أحسوا فيها بلدغة برد قالوا هو عدونا يتقهقر عنا،ويعضنا

عضته الاخيرة • لكنه قد شاخ ولا قوة بعد فى أنيابه

كان الرابع من ابريل عام ١٩٠٢ وكانت الشمس تدغدغ مويجات نهر السين وتسكب على باريس سيولاً من النور الدافىء ، فتبدوالمدينة كلها ، ببناياتها الكالحةالمخنوقة بأنفاس الشتاء ، وشوارعها المنكمشة من ملامس البرد ، كأنها سجين أطلق سراحه ، أو جبار كان فى صدره غصة وزالت • فالناس من باريسيين وغرباء ، كانوا يسيرون فى الشوارع أنهرا وجداول ، تتلاقى ، فتمتزج ، فتفترق • وفى سيرها خفة وسهولة • كأن أغراضها المتضاربة اندغمت فى غرض واحد• ومجاريها المتشعبة تحولت الى مجرى واحد

وعلى مقعد منفرد بالقرب من كاتدرائية « نوتردام » كان شاب غريب كأنه فى خضم البشرية الباريسية نقطة من الزيت فى بحر من الزئبق . عليه ثياب تكاد تكون ثياب فقير اولا مافيها من نظافة وهندام • ومن تحت قبعته البنية قد تدلت خصل من شعره الكستنائى الطويل•وعيناه المثقلتان بالاهداب قد أطبقتا حتى نصفيهما كأن بهما نعاسا • وفى وجهه النضر كآبة من يبصر غير ما يشتهى • أو يشتهى غير ما يبصر • وكان يحدث نفسه صامتا :

ــ زحمتك السنون يا جبران . وهى مصيبة فيما تقول : من كان بطىء الخطى فليتنح من طريقنا ، وأنت بطىء الخطى ، فماذا فعلت حتى اليوم ؟ ووراؤك عشرون عاما ، انها لمقدمة طويلة للاشىء • كفاك تفرجا مع المتفرجين وآن لك أن تكون بين من يتفرج عليهم المتفرجون • ليوناردو لم يكن متفرجا • ولا ميكلانجلو ولا تشيللى ولا تيتيان ولا رمبراندت ولا روبنس ولا فيلاسكس • هو ذا اللوفر ــ يؤمونه بالملايين من المشارق والمغارب ليتفرجوا على من فيه من رجال الفن المعدودين • لكن من فيه لا يهشون ولا يبشون • ولا يخرجون الى أزقة الناس ليتفرجوا على الناس ، لأنهم أعظم من الناس • لله

ميكلانجلو ! يا ليتك ولدت في زمانه ، اذن لتوسلت اليه أن يسمح لك بالتتلمذ عليه • ما كان أجمل الفن وأسهل التقرب من الفنانين في ذلك الزمان • وما أكثر العقبات في طريق من يرغب فيه اليوم !

« أنت كثير الاحلام يا جبران . من أين تأتي بالمال لتدرس الفن كما تشاء أن تدرسه ، وأنت ما تزال عالة على سواك بدلا من أن تعول سواك ؟ أمك تشتغل ، وأخوك يشتغل ، وأختاك تشتغلان ليقوموا بأودهم وأودك وأود أبيك • وأبوك سلم ذقنه لشريك محتال فأضاع كل ما كان لديه من قليل رزق ومال . وهو ، مع ذلك ، لايفارق قهوته وسيجارته وقدحه . مسكين أبوك ما أسلم نيته ، وأقل تدبيره ، وأطيب معشرة • وما أحسنه رفيقا في السفر ــ بعلبك • الهرمل • حمص • حماه وسهولهما وعاصيهما • وصرود لبنان الشمالي وقراه • لولاه لما عرفت شيئا من جمالها • وتلك الليلة التي قضيتها واياه على « ظهر القضيب » في خيمة رعاة الغنم ، والبدر والنجوم من فوقك ، والأغنام الآمنة ، والتلال البيضاء من حواليك ــ والبحر تحت قدميك ــ لله كم كان فيها من روعة ومن سحر !

« فم الميزاب وبرج ايفل . نهر أبي علي والسين . نوتردام ودير مار سركيس • شوارع باريس ووادي قاديشا • اللوفر ومغادرة قاديشا • الأرز وغابات بولونيا • بيروت وباريس• مدرسة الحكمة والسوربون ــ ما أغرب هذه المقابلات !

« أربع سنوات على مقاعد مدرسة الحكمة ــ ماذا نفعتك ؟ اشكر ربك فقد نجوت من الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والقوافي . وانك ، وان فاتتك فوائدها ، لم تفتك جوهرها • واشكر ربك فقد نجوت من الصلوات في الصباح والمساء • وقد صليت في أربع سنوات ما يكفيك حتى آخر حياتك • فأنت لن تدخل كنيسة منذ الآن • لأن يسوع الذي



جبران في مدرسة الحكمة

تحبه لن تجده في كنيسة قط • ما أكثر المعابد وأقل المتعبدين • وما أوفر الصلوات وأقل المصلين !

« هي كانت تعرف معنى الصلاة والعبادة • وهي كانت تعبد « بالحق والروح » لأنها كانت تعبد بقلبها ، وان كان عقلها في حوزة الكاهن . آه ما أظلم الموت . وما أقسى تقاليد الناس ! يا ليتها بجانبك الآن • فقد كان لك في كل بسمة من بسماتها النقية بلسم لكل جرح • وفي كل لمسة من أناملها الناعمة الطاهرة جناح لكل فكر • لقد وقاك الله «ساعة التجربة» معها ، فصنت عفتها وعفتك ولم تدنس سنواتها الست عشرة بشهوة • ما أجمل الحب اذا كان نظيفا ! وما أعظم الفرق بينها وبين « الملاك الحارس » !

« ماذا تقول غدا « للاكك الحارس » اذا لاقيتها في بوسطن؟ وماذا عساها تقول فيك اذا عرفت أنك هجرتها من أجل سواها؟ لتقل ما تشاء ، فهي ليست الملاك الحارس الذى كنت تحلم به • وهي من التراب وفي التراب وللتراب ، وليس في استطاعتها أن تفهم حلما من أحلامك أو تلمس شوقا من أشواقك

« ومن ذا تهمه أحلامك وأشواقك يا جبران ؟ لا بد من أن يكون لك ملاك حارس يفهمها فيقودك اليها • من هو ؟ من هي؟ بلى • ففي قلب أمك الساذج محبة تفهم بالاشارة • وفي صدر أخيك بطرس ورأسه أحلام وأفكار تكاد ترافق أحلامك وافكارك. غير أنه يسترها عن أعين الناس ، حتى عن عينيه وعينيك ، كيما يتفرغ لتحصيل الرزق لك ولذويه وذويك • اذا لم يكن لك غير أمك وأخيك يا جبران لكفاك • لكن لك كذلك أختين نبيهتين ، ومجتهدتين • فماريانا تحصل مالا من ثقب ابرتها • وسلطانه ؟ — لقد تركتها فتاة في أول صباها وهي اليوم عروس في السادسة عشرة من عمرها • ترى هل تعرفها عندما تقابلها غدا في بوسطن وهل تعرفك ؟ بل هل يعرفك الباقون من أهل بيتك وجيرانك ؟ لقد تغيرت كثيرا في هذه السنوات الأربع

التى قضيتها فى لبنان • وقد اشـــتد بك الشوق الى أهلك • فأنت لا تصدق متى تضمهم اليك ويضمونك اليهـم • وأنت عيب عليك أن تعود اليهم فارغ اليد • فى جيبك كمية قليلة من المال اذا أنت اقتصدت فى نفقاتك فاض لديك منها نحو أربعة ريالات • فانهض وابتع بها هدآيا لأهلك ولتكن أجمل هدية لسلطانه »

وأخرج جبران محفظة صغيرة من جيبـه وعد ما فيهـا من الدراهم • ثم نهض ومشى وهو لا يعرف أين يقصد وماذا يبتاع وبجانبه مشى الموت حاملا على ذراعيه روح أخته سـلطانه التي كان قد تقبلها فى تلك الساعة ، وراء المحيط ، هدية من يد الحياة

غير أن جبران لم يكن يبصر لرفيقه وجها، ولا يسمع لقدميه وقعا . بل كان يفكر فيما سيبتاعه هدية لاختـــه الصـغيرة المحبوبة



دقت الساعة الثانية بعد نصف الليل والظلمة المخيمة فى غرفة بطرس رحمه وأخيه جبران لم تسمـع للنوم نفسـا ولا حفيف جناح • وكان كلا الاخوين اذا ما تقلب فى سريره من جانب الى جانب فعل ذلك بهدوء وتحفظ خشية أن يوقظ أخاه النائم على بعد ذراعين منه • وأخيرآ سـمع بطرس تنهدة بليلة خارجة من تحت لحاف أخيه • فخاطبه همسا :

ـ جبران ، يا أخى ، يا روحى ، أتبكى حتى فى مثل هذه الساعة من الليل ، وأنت منهوك من سفر البحر وفى حاجة الى النوم ؟ نم ولو قليلا

ـ الدموع لا تعرف الساعات يابطرس • لقد ذرفت حصتك منها ، فدعنى أذرف حصتى • لست أبكى سلطانه وانما أبكى الله !•••

ـ جبران ، أنت محموم يا أخى • أنت سـكران من الحزن

والتعب • لا تنكر كل ما تجهله

ــ السل ، السل ، جيوش خفية جرارة ، جيوش الله الخفى القدير يرسلها لتحتل صدر مخلوق من مخاليقه ولتسترد منه فى سنة او سنتين نفسا نفخه فيه بأقل من طرفة عين .لتهدم فى طرفة عين هيكلا ظل يبنيه سنين • ماذا جنت سلطانه الطاهرة ليشن الله عليها مثل هذه الغارة ؟ ولماذا اختارها من بيننا ، وهى أنقانا ، وهى زنبقة ما يزال أريجها فى قلبها ؟

ــ قد لا يكون الموت قصاصا يا أخى • وقد تكون فى غفوة الموت أحلام أجمل من كل ما في صحوة الحياة • من يدرى ؟

ــ ولماذا اختار لها هذه الميتة من بين كل أصناف الموت ؟

ــ ستعرف طرق الله عندما تصبح الها

ــ ولماذا جاء بها من أحضان الأرز النيرة الرحبة ليميتها فى غرفة ضيقة مظلمة ــ من بشرى الى بوسطن ــ من بيت على كتف الوادى المقدس الى بيت فى حى الصينيين فى بوسطن ؟

ــ لابد من سر فى كل ذلك . غير أنى لا أعرفه ولا أعرف من يعرفه

ــ ولماذا جعلها أختا لى وجعلنى أخا لها ؟ ولماذا أماتها فى هذه السن ، وفي هذه السنة ، لا فى سواهما • وفى الرابع من أبريل لا فى الخامس من مايو ؟

ــ دعك من « لماذا » يا أخى ، فقد حرقت قلوبا كثيرة قبل قلبك

ــ آه ــ بطرس ، بطرس • فى رأسى الآن الف لماذا ولماذا• وهى تصارعنى بألف سيف وسيف • فاما تصرعنى فتدفننى مع ربى فى لحد واحد ، واما أصرعها فأنهض وينهض ربى معى قويا ، عادلا ، جميلا ، سرمديا

ــ خلنا الآن من ذلك يا جبران • وما زال النوم بعيداً عن أجفانك ، وأجفانى ، فهات أخبرنى شيئا عن بشرى • كم مرة دخلت المغارة ، وتسلقت جبل الأرز ، وانحدرت الى الوادى

المقدس ؟ وهل كنت تنهض مع الفجر وتترقب مواكب النور صاعدة من البحر لتلاقي الشمس عندما تطل من وراء ظهر القضيب ؟ وهل قلت للشمس المشرقة ـ ولو مرة ـ بطرس يسلم عليك ؟ وهل زرت دير مار سركيس وصليت في معبده الحجري المهجور ، أو سرقت من كرمته عنبا وأكلت ، ولو حبة واحدة ، عن أخيك بطرس ؟ ما كان أجهلنا يا جبران ، وما أسوأ الساعة التي ابتعدنا فيها عن خرير شلال قاديشا وظلال واديه المقدس . أنها لساعة سوداء . ولعلنا ، لو رضينا ببلادنا ، لرضى الله عنا وما أخذ سلطانه منا . والآن ـ ست سنوات ـ سبع سنوات ـ وماذا فعلنا ؟ لا علم ولا مال . بلى فأنت قد تعلمت . وأنت ستكفر عن كل قصورنا . لقد كنت أقرأ رسائلك بلذة فائقة ، وأشعر كأنى أقرأ فصولا من سفر أيوب أو من مزامير داود أو من نشيد سليمان . فما عدت أعرف ـ هل أنت في التصوير أقدر منك في الكتابة ، أم في الكتابة أقدر منك في التصوير . ولعلك ستكون كاتبا ومصورا معا

ـ لقد نسى الناس فن الكتابة يا بطرس وانشغلوا عنه بصناعة رصف الكلام . فلا روح ولا جمال فيما يكتبون . ولو عادوا الى سفر أيوب والمزامير ونشد الاناشيد لعرفوا ان العواطف اذا ما فارت والافكار اذا ما ثارت ضاقت دونها القوالب المحدودة وغصت بها المجارى المألوفة . لكنهم لاعواطف فيهم تفور ، وينظمون كما لو كانت لهم عواطف . ولا أفكار لهم تثور ، وينثرون كما لو كانوا ذوى أفكار . فهم أموات فيما ينظمون وينثرون

ـ ترى أنعود الى لبنان بعد ؟ هيهات ! أنا أعرف أننى لن أبصر تلك القمم النظيفة . وأصلى من أجلك لكى تراها عنى وعنك . هيهات . هيهات ...

وأخذت بطرس نوبة من السعال ارتجت لها الظلمة بما فيها من دموع وحزن وحرقة

٩

« الحق ، الحق أقول لكم ان حبة الحنطة التى تقع فى الارض ان لم تمت فانها تبقى وحدها ، وان ماتت أتت بثمر كثير »

كانت سماء يناير تنثر من دموعها البيض على بوسطن ، وكان جبران يطالع الانجيل . فوقع على هـــذه الآية فى الفصل الثانى عشر من يوحنا ، ومع انه قراها وسمعها مرارا عديدة من قبل ، شعر كأنه يقرأها للمرة الاولى . وكأن ستارا أزيح عن عينيه ، فرفعهما عن الكتاب وغرق فى بحر من التأمل :

ـ كل شىء يموت لكى يحيا . الصخرة تموت لتلد حجارة لبناء الهيكل . والشمعة تموت لتتحول نورا . والخشبة تموت ليظهر ما فيهـــا من نار . والثمرة تموت لتنبت الشـجرة . والشـجرة تموت لتعطى الثمرة . كل شىء يموت ليعـود الى مصدره . الحياة ذهاب والموت اياب . والحيـاة كساء والموت عرى . والحياة فكرة بارزة والموت فكرة خفية . والله هو الموت والحياة معا

وللحال أخذ جبران دفتر الرسم وقلم رصاص وبدأ يرسم فى أعلى الورقة خطـوطا ودوائر ونصف دوائر . وما هى الا دقائق حتى برز من تلك الخطوط المبهمة شكل راس منحن الى الامام . واليد التى تمسك القلم تحس كأن يدا خفية تحركها ، والقـلم ينتقل بسرعة من جانب فى الرأس الى جانب وحيثما انتقل ترك أثرا بينا لمعنى من معانى الوجه ـ هنـا حاجبـا ، وهناك شبه فم أو أنف ، وهنالك موجة من الشعر . وكانت السـبابة تارة ، وطورا الوسـطى تساعدان القـلم فى بعض وثباته ، فتزيدان من ظل أو تخففان من ظل ، وكان جبران ، كلما انتهى من حركة ، يبتعد عن الورقة قليلا ويزورها بعينيه لحظة ثم يعود اليها عودة العاشـق الى معشـوقه أو العابد الى معبوده . وقد نسى سيجارة كان قد أشعلها فاحترقت من تلقاء ذاتها حتى آخرها . ولم يقف ليشعل ثانية حتى انتهى من

العينين وقداحتار هنيهةمابين أن يجعلهما مفتوحتين أو مطبقتين

بأقل من ساعتين برز الوجه بجبهته المغسولة أعاليها بنور علوى ، والمظللة ما بين الحاجبين وخلفهما بظلال ناعمة ، دافئة ، خفيفة • وبأجفانه المنفرجة بعضهاعن بعض قيد شعرة أو شعرتين ، كأنها تخشى ، لو تدفق كل ما خلفها من سر وسحر ومحبة دفعة واحدة ، أن تغرق الناظر اليها بدلا من أن ترفعه• وبفمه المفتوح نصف فتحة وكأن فيه كل بركات النعيم وجماله• أما الشعر فقد امتد فى مويجات جميلة ذات اليمين وذات اليسار ثم تدلى الى أسفل فى شكل مستدير ، وتقارب طرفاه تحت الذقن ، دون أن يلتقيا، كأنهما جناحان منعكفان واحدهما نحو الآخر دون أن تتلامس قوادمهما • ومن أسفل الورقة قد ارتفع لهيب من نار فى شكل جسم بشرى عار ، لكنه خفيف كالنسيم ، شفاف كالنور ، وقد أدار ظهره الى الناظر • له تقاطيع جسم بشرى انما دون اللحم والعظم والدم. اذا مانظرت اليه لم تره خطوطا جامدة على ورقة جامدة ، بل تخيلته يرتفع الى فوق ، دون ما أقل تعب أو جهد على الاطلاق ، حتى تلامس قمة رأسه شفة الوجه السفلى ، وكتفاه طرفى الشعر • فيبدو الشعر كأنه ذراعا أم أطلت على طفلها من فوق فانتشلته اليها لتضمه الى صدرها وتباركه بقبلة المحبة

« عادت سلطانه من حيث أتت ـ الى الله • ينبثق الشعاع من الشمس ويعود اليها • والشجرة من الارض وتعود اليها• والروح من الروح فتعود اليها . هى عودة لابد منها »

ونظر جبران الى صنع يديه فرآه جميلا • لكنه ماكاد يرفع القلم ليوقع اسمه بأسفل الصورة حتى دخل عليه أخوه بطرس وكأنه محمول على ذراعي الموت :

ـ أسرع وراء الطبيب يا جبران ، أسرع ما تمكنت ، ولا ترجع الى هذا البيت • فهو ينهار علينا بسقفه وكل جدرانه• وأرضه تهرب من تحت أرجلنا • فانج أنت على الاقل من بيننا

...أمك فى خطر ، وأخوك بطرس على أهبة السفر ، أسرع!

١٠

خرج الطبيب من البيت تاركا فى أذن جبران كلمة سوداء ما لبثت أن تغلغلت فى سقف البيت فتدلت منه ثعابين وأفاعى. وفى الجدران فأطلت منها عقارب وأنياب محددة . ووقفت فى الابواب والنوافذ تنانين فاغرة افواهها

ـ السل ، السل ـ جيوش خفية جرارة ـ جيوش الله الخفى القدير وفى الدرجة الثالثة ! أين أنت ياربى ، أين أنت ؟ كنت دفنتك ودفنت نفسى معك • وأمس ظننتنى وجدتك ، فأقمتك من الموت وقمت معك . أو أنت تسخر بى أم ترانى أسخر بنفسى ؟ أمس أخذت أختى الحبيبة سلطانه واليوم ترسل جيوشك الخفية الجرارة لتسلبنى أمى وأخى ـ وهما أعز ما فى الكون لدى • فما بالك لا تستردنى اذ تستردهما ؟ وما بالك تتركنى مغلول اليدين والرجلين ، مقنع العينين ، قصيص الجناح ، فارغ القلب والجيب ؟ الطبيب يأمر بنقل أخى وأمى الى المستشفى • فمن أين آتى بالمال ؟ ان لم يداو الناس جراحى بعقاقيرهم الا اذا داويت جيوبهم بالفلوس ، فبماذا عسانى أداويك لتداوينى ؟ ربى والهى • ربى والهى! لاتتركنى ، ولا تقتص من جهلى • لعل جيوشك الخفية الجرارة معسكرة الآن فى صدرى كذلك وفى صدر أختى ماريانا مثلما هى فى صدر أمى وأخى بطرس ...

عند هذا الفكر انتفض جبران بقشعريرة أشد من قشعريرة البرد • وضاقت عليه أنفاسه اذ خيل اليه أن كل نسمة يتنشقها من الهواء حواليه تحمل فيلقا من « الجيوش الخفية الجرارة » ورأى نفسه كسمكة فى شبكة • غير أنه ما عتم أن عاد يقوى نفسه بنفسه :

ـ عيب عليك يا جبران • أوتقبل الموت لأختك وأخيك وامك ولا تقبله لنفسك ؟ قل لتكن مشيئة الله . بلى . مشيئة

الله . ماذا قادك من بلادك الى هذه البلاد ؟ ـ مشيئة الله . ماذا سلبك أختك سلطانه ؟ مشـــيئة الله . ماذا نقل مرض أختك الى أمك وأخيـك ؟ ـ مشيئة الله • ولكن لماذا شاء الله ماشاء ، ويشاء مايشاء ؟ لماذا ، لماذا ؟ ـ لأنك دنست روحك بالفسق ، وبالغش ، وبالكذب ، يا جبران • لأنك استدفأت فراش الشهوات وهو بارد • واستنعمت لحاف الملذات وفيـه منـاخس • لأنك خاطىء يا جبران • وهل يجـازى الله الام بخطيئة ابنها ، والاخ والاخت بذنب أخيهما ؟ وما هى الخطيئة؟ « أما أنا فأقول لكم ان كل من نظر الى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه » ـ « الحق الحق أقول لكم ان حبة الحنطة التى تقع فى الارض ••• ان ماتت أتت بثمر كثير »

ولكن ما العلاقة بين حبة الحنطة والسل فى الدرجة الثالثة؟ وبين التنين الفضى الصـغير الذى كان يتنفس بروح الصندل وهذا التنين الواقف بالباب والقاذف من جـوفه حمما ونقما ؟ وما العلاقة بين « الملاك الحارس » ـ آه لو تعرف بما أنت فيه الآن يا جبران • بل خير لها ألا تعرف• وحسنا فعلت عنـدما التقيتها أمس فى الشـارع فلم ترد تحيتها • هى عابرة طريق فى حياتك وأنت عابر طريق فى حياتها • أما تلك التى تركتها فى بيروت ؟•• هى كذلك قد عادت الى ربها مثلما عادت سلطانه

حقا ان ما صـورته اليوم لجميـل ـ عودة الروح الى الله • وأجمل منها ستكون « قصة الافكار » التى ما برحت تعـذب خيالك منذ أيام • أين قلم الرصاص ؟ والترمومتر • وقصة الأفكار ورقصـة الموت • المتحف والمستشفى • نداء آلهـة الفن وسعال الامل المصدور • الجيب الملتهب والثلج المنهمر وإذا ذكر الثلج فر جبران من البيت وهو يشعر كأنه مقذوف من فوهة بركان • وما ان أحس بلذعة الهواء خارجا ، وبالثلج يفرش بساطا ناعما لقدميه ويتسابق لتبريد عينيه ووجنتيه، حتى راح يهيم على وجهه ، مرددا مـع كل خطوة أو خطوتين :

« أين أنت يا الهي ، أين ؟ »

١١

ـ ماريانا ، ستهلكين عينيك يا أختي بهذا الخيط وهذه الابرة ، وعلى نور الغاز

ـ وماذا نعمل ، وهذه الابرة وخيطها يدفعان أجرة البيت وثمن الغاز ويقيتان جسدينا ويكسوانها • أو نستعطي قوتنا وكساءنا من الناس ؟

ـ ماريانا ماريانا ، ان ابرتك تثمل عيني،وخيطك يشدعلى عنقي

ـ ما لك يا جبران ؟ لا أكاد أقول كلمة الا جرت دموعك • فهل جرحتك يا روح أختك بما قلت ؟

ـ لا تخافي من دموعي يا أختي • فالمحبة ان بلغت أعماق القلب أترعت المدامع . وابرتك وخيطها محبة صافية . مع ذلك يشق علي أن أراك تدفنين أيامك ولياليك في ثقب ابرة لتعوليني بدلا من أن أعولك . وأن تصرفي نور عينيك ليبقى في عيني نور

ـ دعك من عيني فلا خوف عليهما . وما بالك تنسى عينيك ؟ فأنت تصور طول النهار وتكتب حتى أواخر الليل. وان اعترضتك في ذلك زعلت مني

ـ هي محنة يا أختي لا مهنة . ولولا محنتي لكنت اليوم مع أمي وبطرس وسلطانه.أتعرفين ما يقول الناس ؟ يقولون : « أليس من الغبن أن يموت بطرس ويبقى جبران ؟ » أتعرفين ما قاله أبي في بشري ؟ قال : « كنت أرثي لو مات وحيدي وبقي بطرس » . ولكن ما يتوجب في نظر الناس لا يتوجب في نظر الله . لو كان الموت قصاصا لكان من الحق أن أمضي ويبقى بطرس وتبقى أمي وسلطانه . وقد تكون الحياة عقابا ، ويكون الموت ثوابا ياماريانا • وعقابنا أن نذوق مرارة اليتم ـ يتم الام والاخ والاخت . لكن في عقابنا ثوابا ـ فقد عرفنا أحن

الامهات ، وأحب الاخوان ، وأطهر الاخوات . ويظهر أن نسيج حياتك وحياتي لما يكتمل بعد ، وأن فيه خيوطا تربطنا بنسيج حياة أناس آخرين على الارض نعرف اليوم بعضهم ونجهل الآخر . لكننا سنعرفهم كلهم قبل أن نبرح هذه الديار . ان نسيج حياة أمنا وأخينا واختنا قد اكتمل . والسر هو في انه لم يكتمل الا في بوسطن ، وان الاصابع التي لملمت خيوط سداه ولحمته كانت أصابع السل . هنالك سر كذلك في زمان اكتماله ومكانه : سلطانه في البيت في ابريل سنة ١٩٠٢ ، بطرس في البيت في ١٢ مارس سنة ١٩٠٣ ، امي في المستشفى في ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٣ . وها نحن في سنة ١٩٠٤ وقد لا ندرك نهايتها . لقد ذهبت أمي وفي قلبها حسرة كبيرة ، وهي أنها كانت في المستشفى فلم تر بطرس في ساعة وفاته . وفي ذلك سر أيضا يا ماريانا

ـ ما القصد من هذا الكلام يا أخي ؟ التبكي وتبكيني ؟ اولا تعرف أن دمعة في عينك تولد دمعتين في عيني ؟

ـ ويل لمن يصافح الموت بيد ملوثة بالآثام ، مغلولة بالشهوات يا ماريانا ، ذاك يجد يد الموت أبرد من الجليد، واقسى من الحديد

ـ غدا علينا أن ندفع أجرة البيت عن شهر وثمن الغاز عن شهرين

ـ وهنيئا لمن مات بموت عزيز عليه قبل أن يموت . فأنا قد مت ثلاثا يا ماريانا وما أزال حيا

ـ لقد تركت لك الكمية اللازمة من المال على الطاولة في غرفتك

ـ العالم اخرس أصم ياماريانا ، والويل لمن تحرجه العازة على مخاطبة العالم

ـ ولا تنس أن تشترى لك قبعة في الغد ، فقد أصبحت أخجل من أن أراك بين الناس في قبعتك الحالية

ـ وللحياة دفتر تقيد فيه لكل انسان حساباته ياماريانا • وهى تصفيها فى كل ثانية . وما نحن فيه الآن هو رصيد حسابنا منذ الازل حتى الآن

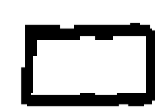
ـ قم يا اخى الى فراشك ، حلفتك برحمة أمك وأخيك واختك

ـ بل برحمة أمى وأخى وأختى أعدى لى ركوة من القهوة واذهبى الى فراشك واتركينى أنهى بعض أشياء لابد من انهائها الليلة . فقد أخبرتك أننى أنوى عرض صورى عما قريب ، وانى قد وقفت الى محل أعرضها فيه وهو فى قاعة صغيرة عند مصور فوتوغرافى اسمه « داى » • أما الصالونات المعروفة فلا تقبلنى لاننى مجهول ، وان قبلتنى فبشروط لا طاقة لى عليها . وعلى أن أبدأ باعداد الصور وتنميرها وتسميتها والاهتمام باطاراتها منذ الليلة

ـ أراك قد ورثت سيجارة أبيك وقهوته قبل مماته • رجوتك بحياتك يا أخى ، واكراما لى ، أن تقلل من تلك وهذه ، فاننى أخشى منهما على صحتك ، وأخشى كذلك أن ترث القدح ، فقد بدات تشرب قليلا

ـ الحق عليك ، فقهوتك طيبة . وهذا البيت الذى نقلتنا اليه يطيب لى فيه السهر أكثر من البيت الذى كنا فيه سابقا ولو انه ، مثل سلفه ، فى حى الصينيين • ومن ثم فان انت طلقتنى من السيجارة والقهوة فاحذرى من أن تزوجينى من النارجيلة ـ لاسيما نارجيلة جيراننا واخواننا الصينيين

ـ لا ، لا ! ألف سيجارة وفنجان قهوة ونارجيلة سورية ، ولا مصة واحدة من نارجيلة صينية



بقى جبران يحسو القهوة ويدخن السيجارة تلو السيجارة حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وبينما هو يفتش عن صورة فى محفظة من محافظه عثر على مقال كان قد كتبه

فى العام السابق بعنوان « الموسيقى » . وهو باكورة جهوده الادبية الجدية . فأخذ يقرأه ساكتا مغيرا كلمة هنا وعبارة هناك ، الى أن وصل حيث يخاطب الموسيقى ، فرفع اذ ذاك صوته الى ما فوق الهمس كأنه يترنم بما يقرأ ولا يصدق انه هو الذى كتب ما يقرأه :

ــ يا ابنة النفس والمحبة . يا اناء مرارة الغرام وحلاوته . يا خيالات القلب البشرى . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور الشعائر المضمومة . يا لسان المحبين ومذيعة أسرار العاشقين . يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة . يا موحية الشعراء ومنظمة عقود الاوزان . يا موحدة الافكار مع نتف الكلام ومؤلفة الشواعر من مؤثرات الجمال

هنا وقف جبران يفتش عن كلمة غير « مؤثرات » يكون بينها وبين « الجمال » من التجانس مثلما بين « نتف الكلام » و « الافكار » . واذ لم يهتد اليها راح يتابع القراءة :

ــ يا خمرة القلوب الرافعة شاربيها الى أعالى عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين

وظل يصحح بعض العبارات ، ويربت نفسه على بعضها ، الى أن أذن الديك بالفجر . فانطلق جبران الى فراشه قائلا فى نفسه :

ــ يجب أن أصدر هذا المقال فى شكل كراس . فهو جدير بالنشر على حدة . وسيقرؤه الناس معجبين متسائلين ــ من هو جبران خليل جبران هذا ؟

١٢

بين النجاح والفشل ، مثلما بين الموت والحياة وكل المتناقضات ، خط من الظل المتنقل تنظر اليه فى لحظة معلومة من الزمن فلا يصعب عليك أن تقول فى هذا الامر انه ناجح وفى ذاك انه فاشل . ثم ينتقل الظل فتنظر واذا بالنجاح

فشل ، وبالفشل نجاح

مضى على معرض جبران بضعة أيام ولم تذكره الصحف الا تنويها ، ولا ازدحم فيه المتفرجون كما كان يتوهم صاحبه انهم سيزدحمون ، ولا بيع من رسومه رسم واحد . هو الفشل بعينه ، والفشل الذى ما بعده فشل

كان جبران جالسا فى زاوية من زوايا معرضه الصغير يحدق فى مجلة بيده دون أن يرى حرفا من حروفها . وكان يسلى نفسه بنفسه فيذكر بعض الذين زاروا المعرض وكيف كانوا يمرون بالصور كأنهم يمرون بطلاسم فيقولون :

ـ هذه جهود ولد صغير ومن العيب أن تعرض على الجمهور كأثمار فنية

وبالاخص ذكر جبران رجلا جاء وبرفقته نساء ثلاث ، ثم أخذ يحدثهن عن الفن كأنه يلقى عليهن محاضرة . وكان كلما اقترب من صورة على الحائط يبين لرفيقاته ما فيها من ضعف وخلل وتنافر . فقال فيه جبران :

ـ يا له من حمار !

على عكس امرأة جاءت برفقة رجال ثلاثة وكانت تقودهم من صورة الى صورة فتهتف هتاف اعجاب عند معنى عميق ، أو ظل دقيق ، وتختم كلامها كل مرة : « ياللخيال . ياللخيال ! » وفيها قال جبران :

ـ انها تفهم ما تقول

وبينا جبران يفكر فى صوره تفكير الام ببناتها الحسان اللواتى لم يوفقن الى أزواج ، ويهون فشله على نفسه ، اذ دخلت القاعة سيدة فحدقها جبران بطرف عينيه ثم عاد الى المجلة فى يده كأنه يلتهم كل حرف من حروفها التهاما . وقد شاء بذلك أن يرى السيدة قلة اكتراثه للزائرين كأنه مل ازدحامهم وضوضاءهم ، وكأنه أكبر بكثير من أن يأبه لما يقولون ، أو يهتم بما يحبون أو يكرهون ، ويشترون أو

لا يشترون . الا أنه عاد يسرق لحظات من الزائرة الغريبة فرآها تدرس الصور درس من يرغب فى التوصل الى أسرارها. وذكر ابرة أخته ماريانا وخيطها فقال فى نفسه :

ـ لعل هذه السيدة تبتاع صورة

فنهض عن كرسيه ومسد بيده شعره الطويل الى الوراء ، وبابتسامة تقطر لطفا واحتشاما تقدم من السيدة وخاطبها :

ـ هل تريد سيدتى أن أفسر لها بعض هذه الصور ؟

ـ انى أكون ممتنة لك يا سيدى جدا جدا . ولا أنكر عليك اننى بحاجة الى من يفسر لى مثل هذه الصور . فهى ليست من المألوف فى الفن . وأنا ، وان كنت من عشاق الفن ، (هنا قال جبران فى قلبه : ما أكثرهم فى هذه البلاد وما أكذبهم ! العلك منهم ؟) لست من الفنانين . فهل أنت ياسيدى احدهم ؟

ـ لى الشرف ان انتمى اليهم

ـ وهل تعرف صاحب هذه الصور ؟

ـ أنا هو يا سيدتى

ـ انى سعيدة بمعرفتك يا مستر جبران ، اسمى مارى هاسكل . وأنا رئيسة مدرسة « مس هاسكل » للبنات فى هذه المدينة ــ فى شارع مارلبورو ولعلك سمعت بها . المدرسة اسستها أختى . واشتريتها منها فى العام الماضى عندما تركت اختى عائلتها الكبيرة لتؤسس عائلة صغيرة ــ لتتزوج

ـ بلى . سمعت بمدرستك يا سيدتى . وهى من أحسن مدارس البنات فى هذه المدينة . صدقى انى سعيد جدا بالتعرف اليك يا مس هاسكل

ـ اعذرنى اذا ما سألتك من أى البلاد أنت . فأنت تلوح لى أفرنسيا أو ايطاليا

ـ بل انا من لبنان

ـ لبنان ؟ لبنان الارز المقدس ونشيد الاناشيد الجميل ؟

ـ نعم . لبنان الازر ونشيد الاناشيد . وقد ولدت عند أقدام ارز الرب على كتف الوادي المقدس ، فى بلدة تدعى بشرى

ـ لعلك درست الفن فى باريس

ـ درسته على نفسى وعلى بعض المصورين فى بوسطن

ـ حقا انك قد أحرزت منه قسطا كبيرا وانت لا تزال فى مقتبل عمرك

ـ تفضلى واجلسى يا مس هاسكل

ـ لا ، لا ، ماجئت لأجلس بل لأدرس . أفلا تفضلت ويسرت لى هذه الصورة ؟

وأشارت الى صورة على الحائط

ـ لقد دعوت هذه الصورة « عودة الروح الى الله » لعلك تعتقدين اعتقادي ان كل مافي الكون من محسوس ليس الا رموزا للحياة غير المحسوسة . وان القصد من الفن ليس تقليد الرموز بل تفسيرها برموز جديدة . الوجه الذى ترينه فى أعلى الصورة هو وجه الله . أنا أعلم ، كما تعلمين ، أن الله لم يره أحد بعين حسية . أما بالخيال فقد رآه كثيرون . ولو كنا كلنا أخيلة لما احتجنا الى رموز . لكننا فى عالم الحس . والخيال يتعذر عليه أن ينقل ذاته الى الحواس ما لم يتخذ لذاته جسما محسوسا . والآن لك أن تنظرى فى هذا الوجه وتترجميه من المحسوس الى غير المحسوس . ولعلك اذ ذاك تبصرين ما حاولت أن أودعه من معانى الالوهة . أو أكثر منه . ولعلك اذ ذاك تنظرين الى الخيال النارى الصاعد من اسفل الورقة نحو الوجه فترين فيه روحا انبثقت من الله وبعد الموت عادت اليه . الفن يجب أن يكون خطابا من خيال الفنان الى خيال الناظر . لذلك أتحاشى فى تصويرى أن أشغل حواس الناظر دون خياله . ومن ثم فالقوالب التى يتخذها الفن يجب أن تكون جميلة وخاضعة لنواميس الجمال . وللجمال نواميس اذا تعداها الفن لم يكن فنا

ـ كلامك جميل يا مستر جبران ومعقول . وحتى الآن لم يكلمني بمثله فنان • ماذا تقول لي في هذه الصورة وقد استوقفتني طويلا وأشكلت على معانيها ؟

ـ وماذا استوقفك فيها لاول وهلة ؟

ـ استوقفنى هذه الاجسام العارية المتماسكةبعضها ببعض وكأن قوة تقذفها الى فوق قذف عمود من الماء ثم تهوى بها الى تحت وتبعثرها كقطرات فوارة اذ تهبط الى الحوض

ـ أولم تحسى بشيء وأنت تنظرين الى هذه الاجسام وتقاطيعها والمعانى التي تبدو لك في وجوهها ؟

ـ هي أجسام متألمة ووجوه متألمة

ـ اذن لست بحاجة الى تفسيرى . فقد دعوت الصورة « فوارة الالم » وقد شئت أن أمثل بها القوة التى تعصر من النفس كل زوائدها فلا تبقى الا على عصارتها الخالصة . والالم افعل فى النفس من اللذة . وما الحياة كلها الا فوارة من الالم

ـ ولماذا تكثر من الاجساد العارية ؟

ـ لان الحياة عارية . والجسم العارى هو أقرب وأجمل رمز للحياة ، فاذا ما صورت جبلا فى شكل كومة من الاجسام العارية ، أو شلالا فى هيئة سلسلة من الاجسام العارية الهاوية من فوق الى تحت ، فلأنى أرى الجبل كومة من كوم الحياة ، والشلال مجرى من مجارى الحياة

ـ أراك كذلك تكثر من رموز الموت والالم . فهل فى ذلك معنى غير معنى الموت والالم ؟

ـ لان الموت والالم كانا نصيبى الاكبر من الحياة حتى اليوم • فبين الرابع من ابريل سنة ١٩٠٢ والثامن والعشرين من يونيو سنة ١٩٠٣ فقدت أختى الصغرى ثم أخى الاكبر ثم أمى • وكلهم أعز ما فى الكون عندى يامس هاسكل

ـ اننى افهم حزنك يا مستر جبران . والدمعة التىأراها

الآن فى عينك تفهمها دمعة فى قلبى . فأنا ، مثلك ، قد فقدت أمى حديثا . وكانت اعز انسان لدى . لقد وجدنا بيننـــا قرابتين : قرابة الفن وقرابة الالم

ـ قرابة الالم أبقى من قرابة الفرح وأقوى من قرابة الدم

ـ لقد كنت لطيفا معى لدرجة قصوى يا مستر جبران . ولست أدرى بأية كلمات اشكر لك لطفك . أفــلا تفضلت وزرتنى قريبا فى المدرسة لعل القرابة التى وجـدناها بيننا لا تنتهى هنا . ويا ليتك تدرى كم انا ممتنة لصـديق لى . فهو الذى أخبرنى اليوم عن معرضــك وألح على بالمجىء قائلا انه من المعارض القليلة التى يجب على كل من يحب الفن أن يزورها . ولولاه لمــا أتيح لى أن أعرفــك واعرف فنــك الجميل . قل لى أناجح معرضك ؟

ـ من حيث كثرة الزائرين ـ نعم ، فقد غصت هذه القاعة غير مرة بالجماهير . أما من حيث المبيع ـ لا . كثير هم الذين اظهروا رغبة فى ابتياع بعض الصور . لكنهم لم يدفعوا الاثمان التى اطلبها . انما عندى وعود كثيرة أؤمل أن تثمر

ـ هى مثمرة باذن الله . استودعك الله يامستر جبران . واتمنى أن اراك عما قريب فى مدرستى . وأشكر لك لطفك مرة ثانية ، فقد سقيتنى كأسا طافحا بخمر الفن

ـ كأس الفن طافحة أبدا . ولكن الشاربين قليل . الى اللقاء يامس هاسكل

عادت مارى هاسكل الى مدرستها وهى لا تذكر الخيط الابيض الحريرى الذى حلمت به منذ اثنتين وعشرين سنة فى مدينة كولومبيا من ولاية سوث كارولينا . ولا تشعر انها فى ذلك المعرض الصغير قد لمسته بيدها . وبيدها شمدته على خصرها . بل كانت تفكر فى الصديق الذى هداها الى المعرض وفى الكلمات التى ستعبر بها عن امتنانها له وعن بعض ماشهدته من لطف الشاب اللبنانى وغزارة مواهبه الفنية . وقد عجبت فى

سرها كيف أن الله لايراعى العدل في تفريق هباته على مخلوقاته

وعاد جبران الى بيته وهو لا يعرف انه بلمسه ليد الزائرة الغريبة قد لمس جناح الملاك الحارس الذى كان يفتش عنه منذ سنين • بل كان يقول فى نفسه : « يا ليت ربى زاد فى قامتى قيراطين حتى اذا وقفت بجانب امرأة كمس هاسكل ماشعرت بنفسى صغيرا مثلما شعرت اليوم »

ولم يخطر لجبران ولا لمارى هاسكل ببال أن الحائك الاكبر قد التقط بمكوكه العظيم خيطى حياتهما من جديد ليتابع حياكة النسيج الذى بدأ به منذ الازل على منواله السرمدى

١٣

كانت مارى هاسكل تسكب الشاى وتناوله لضيوفها موجهة أكثر كلامها وعنايتها الى الشاب الجالس عن يمينها :

ـ حقا أنك أوليتنا جميلا كبيرا يامستر جبران عندما لبيت دعوتنا ورضيت أن تعرض صورك الجميلة فى مدرستنا . والفضل فى ذلك راجع الى الآنسة الجالسة تجاهك . فهى من مساعداتى . وبعد أن سمعتنى أحدث عما رأيت فى معرضك قالت : « ياليتك تطلبين اليه أن يعرض صوره فى المدرسة » وهكذا كان . وها نحن سعداء أن نراك ونرى صورك عندنا . اهتمى بجارك يا ميشلين وقدمى له بعض أقراص الحلوى . جارتك عن يمينك يا مستر جبران من معلماتنا . وهى افرنسية الاصل • واسمها ، كما ذكرته لك سابقا ، ماديموازيل اميلى ميشيل . غير اننا ندعوها تحببا « ميشلين » فهى حبيبة الكل وملاك هذه المدرسة

ـ رئيستنا يامستر جبران تقيس كل الناس بذاتها ، لذلك دعتنى ملاكا ، أما نحن المعلمات والتلميذات فندعوها « السنديانة »

ـ جذورها في الارض وراسها فى السماء . وما نحن الا عصافير نعشش فى أغصانها ونستظل بظلها ونلجأ من العواصف اليها . نحن نضطرب لامور كثيرة أما هى فهادئة أبدا . فى كل يوم

نأتيها بمشكل بل بمشكلات . اما هى فلا يشكل عليها أمـر . نتقاضى اليها فى خصومات كبيرة أو تافهة فلا نرتد من عندها الا راضيات . واذا ما طلبنا اليها أن تسن لنا قانونا فى أمر من الامور ، قالت : « لتكن المحبة قانونكن . فأنتن ان لم تكن على وفاق مع أنفسكن لن تكن على وفاق مع القانون »

ــ ميشلين ، كفانا يا عزيزتى تحدثا عن أنفسنا ونحن فى حضرة كاهن من كهنة الجمال • ماهو نظرك فى الجمال يامستر جبران ؟

ــ الجمال هو مانراه فنود ان نعطى لا أن نأخذ . هو ما نشعر عند لقياه بأيد ممدودة من أعماقنا لضمه الى أعماقنا . هـو ماتحسبه الاجسام محنة والارواح منحة . هو ألفة بين الحزن والفرح . هو مانراه محجوبا ونعرفه مجهولا ونسمعه صامتا . هو قوة تبتدىء فى قدس أقداسنا وتنتهي فيما وراء تخيلاتنا. الجمال هو المقرب قلوبنا من عرش المرأة . وعرش المرأة هو عرش الله . وياليت الذين جعـلوا من الدين لهوا فألفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المال يفقهون معنى الجمال ، اذن لجعلوه معبودا لهم

ــ اننى أسمع فى كلامك ما أراه فى صورك يامستر جبران . وقد قلت لى انك تكتب بلغتك العربية . فهل طرازك فى الكتابة مثل طرازك فى التصوير ؟ ولماذا اخترت هذا الطراز ؟

ــ لعله اختارنى ولم أختره . لقد وجدتنى ماشيا فى هذه الطريق دون علم أو قصد منى . ولكل طريقه فيما يعمل . اذن هذه هى طريقى . عندما بدأت بالتصوير لم أقل لنفسى: هاهى ذى الطريق الكلاسيكية أو الحديثة أو الرمزية أو كثير سواها فاختر لك واحدة منها . بل ما شـــعرت الا وقلمى يرسم رموزا لمـــا يجول فى خاطرى من خيـــالات وأفـــكار وعواطف . يحسب البعض ان الفن فى تقليد الطبيعة . والطبيعة أعظم من أن تقلد . ومهما تســامى الفن لا يأتى بمعجزة من

معجزاتها . ومن ثم فما الحاجة الى تقليد الطبيعة وهى محسوسة لكل ذى حس ؟ انما الفن أن نتفهم الطبيعة ونؤدى معانيها للذين لا يفهمونها • الفن أن نؤدى روح الشجرة لا أن نصور جذعا وفروعا وأغصانا وأوراقا تشبه الشجرة • الفن أن نأتى بضمير البحر لا أن نرسم أمواجا مزبدة أو مياها زرقاء هادئة . الفن أن نرى فى المألوف ماليس مألوفا . لذلك أبتعد فى التصوير وفى الكتابة عن كل مألوف لأتوصل الى ما فيه من معان والوان غير مألوفة . ويل لعين الفت الشمس الى حد الا ترى فيها غير وجاق يدفئها ومشعل يدلها على الطريق من بيتها الى مخزنها . انها لعمياء وان أبصرت البرغشة على بعد ميل . ويل لاذن الفت تغريد البلبل الى حد أن لا تسمع فيها غير نوطات متتابعة . انها لصماء وان سمعت دبيب النمل تحت الارض . نعم . تلك هى طريقى . وهى تعرفنى وأنا أعرفها . حتى ليخيل الى فى بعض الاحايين انى سلكتها قبل أن ولدت . فأنا لا أكاد ابلغ عطفة فيها حتى اشعر بما بعدها . ولا أنحرف عنها قيد باع الا أعرف اننى انحرفت قيد باع . فأعود اليها

تمادى الحديث أكثر من ساعتين . ومثل كل حديث يدور حول فنجان الشاى ، كان يتنقل من الجليل الى التافه — من الله الى الطقس ، ومن الفن الى أسعار البيض ، ومن الادب الى أخبار آخر ساعة ، ومن أرز لبنان الى حى الصينيين فى بوسطن . وكان لجبران القسط الاوفر منه . فكان يفيض فى الكلام عن أسعار البيض افاضته فى الكلام عن تمثال الزهرة فى متحف اللوفر وعن ذراعيه المقطوعتين ، مفخما كلامه ، متباطئا بلفظه ، كأنه يتلو آيات منزلات . وكان كلما قال كلمة فتش حافظته حتى اذا ما اهتدى الى أخرى أبهج منها لونا، وأعذب رنة ، وأثقل وزنا ، وأشد غموضا ، استبدلها بها ، والا تعداها الى سواها . وقد آنس من قريحته

فيضانا كان يزداد كلما التفت الى النسوة جليساته فقرأ فى وجوههن علامات الاستحسان والاعجـــاب . ومع أنه ، فى الظاهر ، كان يوجه حديثه الى الكل ، لم يكن يخاطب فى باطنه الا اثنتين ـ رئيسة المدرسة عن يساره والمعلمة الافرنسية عن يمينه . أما رئيسة المدرسة فكان يخاطب رأسها . وأما ميشلين فقلبها . وكان ، وهو يخاطبهما ، يقابل بينهما فى فكره وفى وجدانه :

الرئيسة : ـ وجه أشقر مستطيل يغلب فيه النحول . جبهة منفرجة عالية . شــــعر مسرح الى الوراء ومعقود فى مؤخر الراس عقدة بسيطة . حاجبـــان ضن الله عليهما الا بالقليل من الشعر . أجفان تكاد أهدابها لا ترى ، تنطبق ثم تنفرج عن عينين زرقاوين مستديرتين غارقتين فى حجاجيهما ، مغسولتين بســـائل ليس من بئر الدموع ولا من مستودع الضحك . أنف مستطيل دقيق قائم فوق شفتين رقيقتين تكاد أطرافهما تصل متوسط الخد الايمن بمتوســط الخـد الايسر . اذا تلاقتا كونتا خطا مستقيما . أو تباعدتا انكشف من تحتهما معظم اللثتين وما فيهما من أسنان ليست آية فى الاتساق والانتظام . صدر ضيق وكتفان عاليتان تمتـد منهما ذراعان طويلتان تنتهيان بكفين يكاد طولهما يكون ضـــعفى عرضهما ، وأصابع عظمهـا أوفر من لحمها ، تخنت عقـــدها ودقت رؤوسها وتباعدت كثيرا أوائلها عن أواخرها

لباسها غاية فى البساطة والنظافة وقلة الاكترات بالازياء . ووجهها يقسم يمينا صادقة انه لا يعرف مساحيق العطارين . تتكلم فلا تلوك الكلام ولا تردده ، بل تخرج الكلمة من فمها تلو الكلمة دون ما تزاحم او تنافر . اذا أبدت فكرا جاءت عليه كله ، لا على ربعه أو نصـفه ، وذلك بعبارات منتقاة صحيحة لا أثر فيها للتأنق والتقعر وتعمد الفصاحة والبـــلاغة . فى منطقها وزن ينم عن توازن فى عقلها . وفى عقلها صراحة تكره

التبطن بالموارية والكذب . قد تخدع لكنها لاتخدع . تسوق ولا تساق . وان ساقت فبدون أسواط ومناخس وشفرات حادة . وقد يهزأ بها ولكنها لا تهزأ . صراحة كأنها سبيل سوى ـ لا يلتوي يمنة ولا يسرة ، ولا يصعد هضبة أو ينحدر الى واد . يخيل الى سامعها وناظرها أن أعنة حياتها فى حرزة عقلها . اذا عملت خيرا فلأن عقلها يقول لها ان فعل الخير حسن أو ارتدت عن شر فلان عقلها يدلها أن تجنب الشر حسن . وان لم يكن فى نفسها مخابىء غضب ، أو مخالب حقد ، أو سهام نميمة أو حسد ، فلأن عقلها يعظها أن الابتعاد عن الغضب والحقد والحسد والنميمة حسن . اذا مشت فبخطوات واسعة لا رشاقة فيها . وبقدم تحب الارض وثبات الارض

فى وجهها ما يشهد شهادة حقة أنها لا تعرف شهوات الرجال . لكنه يشهد كذلك أن ليس فيه ما يوحي قبلة يسيل معها القلب على الشفتين . أو يثير شهوة تسوى الروح والجسد معا . هي سنديانة ، كما لقبتها تلميذاتها ومعلماتها ـ يستأنس الضعيف بقوتها ، والمسافر بظلها ، والعين بطهارتها . أما الجائع فيرتد عنها جائعا ، والعطشان عطشان . هى تلك السنديانة وليست الشجرة المثقلة بالاثمار الفرارة التى انبتها الله فى وسط الجنة وأنذر آدم أن يأكل من كل شجر الجنة الا منها قائلا : « انك يوم تأكل منها تموت موتا »

ميشلين : ـ فى شعرها الاسود لمعان يأسر العين ويكهرب اليدين الى حد أن الناظر ، لولا قوانين الحشمة واللياقة ، لما تمالك من لمسه وتمسيده . وفى عينيها المسليتين الواسعتين كحل من النور الذى يبرز بالنهار من أحشاء الليل ويستل الليل من بين أجفان النهار . فى بشرة وجهها الصافية حمرة الشقيق اذا تفشت فى صفرة العاج . فى ابتسامتها

ضعة الطفل وطهارته . وفى ضحكتها كركرة الجدول النقى الطروب . لكنها قلما تبتسم وقلما تضحك . كأن سنيها العشرين علمتها أن فى كثرة الهرج تهلكة للجمال . وفى الرزانة أمنع حصن له

تتكلم أحيانا فيقول السامع ـ انها لطفلة . واحيانا تفوه بما يحمل السامع على القول ـ انها لشاعرة وحكيمة معا . وتمشي فكأن فى الارض رفاسا تحت قدميها أو كأن فى رجليها أجنحة

خيرها فيضان من قلبها وكذلك شرها . ولا دخل لعقلها فى كليهما . اذا عطفت على طفل فبكل ما فى كيانها من العطف دون أن تسأل ما اذا كان يتيما أو غير يتيم . فقيرا أو غنيا . وما اذا كان حقيقا بالعطف أو غير حقيق . وما اذا كان العطف عليه واجبا أو غير واجب . الواجب عندها مالا تطيق القعود عنه . والحق ما يستريح اليه قلبها بكليته . والحرام ماأنفت عاطفتها التدنس به . تكره الالم لنفسها ولسواها . واذا أمكنها أن تخفف من ألم جارها أو جارتها لا تتهاون لحظة ، وان كلفها ذلك ألما ، ولا تقول فى نفسها : لقد عملت مايرضى الله ـ الله فى حياتها ضباب . والجنة وجهنم كلمتان على السنة الكهنة وفى الكتب المقدسة

اذا آنست من جليسها لطفا أطلت كالبزاقة من صدفتها . أو خشونة عادت الى صدفتها لتحمي نفسها من الخشونة . لكنها أبدا متحفظة حريصة . لا كبرياء فيها ولاادعاء . والذى يحسبه الناظر اليها كبرياء ليس الا برقعا تصون به عفة جمالها من رجاسة الشنعاء وقحة البلداء

هى جميلة وتعرف أنها جميلة . ولكن أتراها تعرف ، أو تحب أن تعرف ، ما فعلت بجبران ساعتان بالقرب منها ؟ شبهها جبران فى فكره بالراديوم ـ تحرق ولا تحترق . اذ أحس كأن فى كرسيه أسلاكا كهربائية مشحونة ، وكان كلما

سرت الـكهرباء فى مجارى دمه ومسارح خياله يستر هزاتها المنيفة بكل مالديه من الحيل وقوة الارادة قائلا فى نفسه : لعل فى كرسيها مثلمافى كرسى من الاسلاك المشحونة بالكهرباء. ولعلها ترانى ، مثلما أراها ـ كالراديوم أحرق ولا أحترق



فى تلك الليلة أهلك جبران كثيرا من القهوة والسيجارات والغاز ، وأتلف أوراقا كثيرة حاول أن يرسم عليها بالكلام حرارة الجمرة التى تركتها شفتا ميشلين على شفتيه ، واللهيب الذى اضرمته أنفاسها فى قلبه وبين تلافيف دماغه . وقبل بزوغ الفجر بقليل عانق وسادته وهو يشعر كأنه يعانق القدر الذى التقاه فى شكل فتاة غريبة فنانة ولا يصدق ان ما كان كان . وقلبه ولسانه يباركان الحياة الحبلى بالمفاجآت والاسرار

١٤

ـ بماذا جئتنى اليوم يا حبيبى ويا خليلى ؟ أبدمعة أم بابتسامة ؟

ـ بل بابتسامة تستحق ابتسامة . يا ليتك تعرفين العربية يا ميشلين ، اذن لقرأت لك قصائدى كما أقرأها لنفسى ، وما اضطررت أن أكون ترجمانا . أتعرفين ان القطع التى أنشرها فى الجريدة العربية فى « نيويورك » بعنوان « دمعة وابتسامة » تتناقلها الصحف فى كل أطراف العالم ؟

ـ وذاك بالطبع يغيظك جدا جدا . انى لاخشى ان انا شئت فى المستقبل أن أرى وجهى فى عينيك الناعستين أن احتاج الى سلم كسلم يعقوب لارقى بها اليك . هات اقرأ لى ابتسامتك الجديدة . والمس بشفتيك شفتى فقد كادتا تنسيان الابتسام

احتضن جبران حبيبته وقبلها ، ثم أخرج من جيبه عددا من جريدة « المهاجر » وأخذ يترجم قطعة بعنوان «الرفيقة» :

« أول نظرة : ــ هى الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هى الشعلة الاولى التى تنير خلايا النفس . هى أول رنة سحرية على أول وتر من قيثارة القلب البشرى . هى آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الايام الغابرة ، وتكشف لبصرها أعمال الليالى ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان فى هذا العالم ، وتبيح سر الخلود فى العالم الآتى

« أول قبلة : ــ هى الرشفة الاولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب . هى الحد بين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفعمه فيغبطه . هى مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الاول من رواية الانسان المعنوى . هى عروة توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها. هى كلمة تقولها الشفاه الاربع معلنة صيرورة القلب عرشا ، والحب مليكا ، والوفاء تاجا ... هى بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية الى عالم الوحى والالهام ...

« القران : ــ هنا يبتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة شعرا وينشىء من معانى العمر سورا ترتلها الايام وتنغمها الليالى. هنا يزيح الشوق ستائر الاشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها . القران هو اتحاد ألوهيتين على ايجاد ألوهية ثالثة على الارض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف ببغضه ...هو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة أولها نظرة وآخرها اللانهاية ... »

ــ ومن هى رفيقتك هذه المحظوظة يا خليل ؟

ــ ميشلين ، يا شريرة . أنت تداعبين حيث المداعبة اثم . عندما يجلس القلب على عرشه فلتخر كل الحواس ساجدة. ولتسبح بصوت واحد ــ قدوس . قدوس . قدوس

ـ قدوس • قدوس • قــدوس • ومتى تقترن برفيقتـــك يا خليل ؟

ـ لقد اقترنت بها أمام الله . لقـــد جعلت من جسمي وجسمها هيكلا واحدا طاهرا لعبادة الحب الواحد الطاهر . وجعلت من روحها وروحي عرشا أزليـــا أبديا للاله الازلي الابدي . قبل ان يقول الله للنور « كن » كنت واياها فيالنور . ومن قبل أن يخلق الله آدم وحواء كنت واياها آدم وحواء في جنة أحلام الله . أنت لا تعرفين من أنت يا ميشلين . أما انا فأعرف . لقد عرفتك قبل أن ولدتك أمك . فقد كنت شوقا هاجعا في أعماق كياني قبل ان صرت كلمة مرتعشـــة بين شفتي الحياة . وقد كنت حياة في عروقي قبل انمشيت دما سخينا في مفاصل الارض . وكنت دقـــة علوية في قلبي قبل أن تكوني نبضا راقصا في ساعد المسكونة . وما فصلتنا الحياة يوما الا لتجمعنا ، ولا جمعتنا الا لتبصر نفسها كاملة بكمالنا ، واحدة بوحدتنـــا ، أزليـــة كما نحن أزليـــان ، أبدية كمـــا نحن أبديان . منـــذ ولدت وأنا أفتش عنك . ومنـــذ ولدت وأنت تفتشين عني . كل صـــوت خرج من صدرك حتى ساعة التقينا كان معناه : ـ أين أنت يا خليلي ، أين أنت ؟ وكل خطوة خطوتها حتى اليوم كانت لتدنيك مني . وما أهلك وأهلي ـ من مات منهم ومن لا يزال في قيد الحياة ـ وما كل من عرفناهم من أعداء وأصدقاء ، وما كل ما انتابنا من الم ولذة ، وما كل ما أكلناه وشربناه ، وحلمناه واشتهيناه ، غير حروف وكلمات تتألف منها مقدمة السفر السري الذي هو حبنا

ـ قدوس • قدوس • قدوس • لقد اقترنت برفيقتك أمام الله يا خليل ، فمتى تقترن بها أمام الناس ؟

ـ ما أكثر ترابك وأقل تبرك يا ميشلين • الناس • الناس • الناس ! ما همي بالنـــاس وبما يقولون ويفعلون ؟ هل جمعوا

مرة بين قلبين متحابين الا ليفصلوهما ؟ أو ربطوا متناقضين الا ليقتلوهما بربطهم ؟

ـ خليل ، حبيبى ، نور عينى ، حبة قلبى ـ هبنى كنت ترابا قبل أن عرفتك ، فقد حولنى حبك تبرا

ـ لا ولن يحولك تبرا ألف حب كحبى . الناس . الناس . الناس . إنا أكره الناس وسبل النـاس . وأكره من يحبهم ويسير فى سبلهم . هم كالدجاج ـ لهم أجنحة ولا يطيرون . وألسنة ولا يغردون . ومخالب ولا يفتشون بها الا عن الديدان والاقذار . هم لا يبيضون الا فى أكنان تقاليـدهم المظلمة وأنظمتهم النتنة . أعطينى ولو فرخ نسر واحـد وخذى كل دجاج الارض

ـ ولمن ترسم رسومك يا خليل ـ أليس للناس ؟ ولمن تنظم قصائدك يا خليل ـ أليس للناس ؟ وبأقلام من تكتب وترسم يا خليل ـ أليس بأقلام الناس ؟ وخبز من تأكل يا خليـل ـ أليس خبز الناس ؟ ومجد من تطلب يا خليل ـ أليس مجـد الناس ؟

ـ أنت منهم . أنت كذلك ابنة الديدان والأكنان . وأنا كالنسر لا أرضى غير الفضاء ميدانا . ولا أطيق أن أشرف على الحياة الا من القمم العالية . فسـبحان من جمع بين النسر والدجاجة !

ـ وأنت لا تأنف من أن تغـذى جسمك ببيض الدجاج ولحومها يا خليل

ـ جسمى لا روحى

ـ اذن أنا غذاء لجسمك لا أكثر ولا أقل . أنا مطية لشهواتك . أنا ألعوبة فى يديك . وحبنا ليس الا فرخ دجاجة ؟ ياويل هذا الحب كم خدشته مخالب أنانيتك النسرية وهو ما يزال فرخا . والآن أراك عازما أن تقضى عليه . أنت لا تعرف الا نفسك ، ولا تهتم الا بنفسك ، ولا تؤمن الا بنفسك . أقول لك أنى أصبحت

مضغة في أفواه بنات المدرسة ومعلماتها،فتجيبنى : ــ الناس · الناس · الناس · ثم تأمرني أن أكتم السر عن كل النــاس ، وبالاخص عن رئيسة المدرسة ، وتدير ظهرك وتنصرف عنى · تقرأ لى قصائدك ثم تؤنبنى اذا لم أهتف هتاف اعجاب لــكل عبارة أو مقطع · وتقول انني من تراب فلا أفهم جمال روحك السماوية · ألا اجعلني رفيقة تحسن المشى فى مسالك الارض قبل أن تجعلنى شاعرة تجوب رحاب الجو · ألا اجعلنى دجاجة سعيدة قبل أن تجعلنى نسرا قويا · ألا اجعلنى انسانا راضيا قبل أن تجعلنى الها كاملا · لقد أشبعتنى شعرا حلوا وخصاما مرا · اذا كان حبك قطرة من العسل فى كأس من العلقم فانى محطمة كأسى الآن · ولعل الاله الذى تؤمن به لا يهملنى

ــ ميشلين ، لقد سئمت نفسى الخصام · فارحمينى وارحمى نفسك · واصفحى عن مرارة فى قلبى لا يزيلها الا حبك · أنت أنت رفيقتى منذ الأزل وستبقين رفيقتى الى الأبد · وسأقترن بك أمام الناس حالما يتيسر لنا ما نظهر به بين الناس · ميشلين، قولى لى : هل تدرى الرئيسة بشىء من أمرنا ؟

ــ لها عين ثالثة تبصر كل شيء ، وأظنها تعرف لكنها تتجاهل

ــ يا ليتك تعرفين بعلبك · لكن ستعرفينها ان شاء الله · ستعرفين لبنان ــ لبنانى · وستعرفين جلال بعلبك ، وهيبــة تدمر ، وجمال البحر المتوسط · أوتدرين ما يجول بخاطرى ؟ قصة خيالية أجعل بعلبك مسرحها · ومحورها حب قديم بين ابن كاهن من كهنة عشتروت وفتاة كميشلين · وكيف كان هذا الحب يتجدد على ممر الاجيال · يموت الحبيبــــان ويولدان فى أجسام جديدة وظروف جديدة · لكنهما أبدا يلتقيــان ليكملا أنشودة الحب القدسية . خليل وميشلين . وقد اخترت لقصتى عنوانا جميلا : « رماد الاجيال والنار الخالدة » · تحترق الاجيال وتمسى رمادا أما نار الحب فمستعرة أبدا · ما قولك ؟

١٥

ـ لا تقولى مصادفات يا مارى • الحياة لا تعرف المصادفات• فى الكون خيوط لا تحصى يتألف منها نسيج الكون الواحد • وحياتك وحياتى خيطان فى هذا النسيج السرمدى ـ يتباعدان ثم يتقاربان ، ثم يتعانقان ، ثم يتباعدان ويتقاربان ويتعانقان من جديد • وهكذا الى أن يتم النسيج • الحائك الجالس وراء المنوال يعرف الغاية من كل خيط • لكن كل خيط لا يعرف غاية الحائك • لقد مات أخى وأختى وأمى لانه كان من الواجب أن يموتوا فى الحين الذى ماتوا فيه وبالميتة التى ماتوها •ولقد احترقت صورى لانه كان من الواجب أن تحترق فى المكان والساعة المحتومين لحريقها • وقد يكون لى فى ذلك خير كبير

ـ انها ، مع ذلك ، لخسارة جسيمة يا خليل•وكم أناسعيدة لان الله ألهمنى فابتعت من صورك اثنتين ـ رقصة الافكار وفوارة الألم

ـ لكل شىء غاية يتممها ويمضى • ويظهر أن صورى قد أتمت الغاية التى وجدت من أجلها • ويكفيها أنها كانتواسطة لتجديد العلاقات بيننا

(وأضاف جبران فى قلبه ـ وبينى وبين ميشلين)

ـ أراك ، من بعد ما اهتديت الى عقيدة التناسخ ، ترد كل شىء اليها حتى احتراق صورك • لله كم تغيرت فى السنوات الأربع التى عرفتك فى غضونها !

ـ لقد كنت ضائعا بين الموت والحياة • وكنت كلما فكرت فى العلاقات البشرية أشعر كأنى فى سراديب من الطلاسم • أما فى التناسخ فقد وجدت مفتاح الحياة والموت ومصباحا ينير لى سراديب العلاقات بين الناس

« تأملى يا مارى كم خطوة خطوناها قبل أن نلتقى • وكل خطوة كانت نتيجة للتى قبلها وسببا للتى بعدها • وضعتك أمك فى الشهر الثامن فكنت ، كما تقولين ، رأسا وعينين وفما

ـ لا يزيد وزنك على الخمس أواق ، ولا أحد يؤمل لك بالحياة. وبالرغم من ذلك حييت بين خمس أخوات وأربعة اخوان . وتغلبت على نقص الولادة وعراقيل الفاقة .. فأنهيت مدرسة عالية من مدارس البنات فى هذه البلاد . وكنت تعصرين الدولارات لدفع الرواتب المدرسية من خرقة غسل الصحون ومن فوهة الفرن حيث كنت تخبزين عددا معلوما من الارغفة فى النهار . أو من مفاتيح البيانو عندما كنت تعلمين الموسيقى. وأخيرا توصلت الى ابتياع مدرسة أختك فى بوسطن . من كولومبيا ـ سوث كارولينا ـ الى بوسطن . ومن طفلة مشوهة فى الولادة يشتهى لها الناس الموت الى رئيسة مدرسة تطلب لها تلميذاتها ومعلماتها طول العمر . لو تغيرت خطوة واحدة فى حياتك لتغيرت كل حياتك

« وأنا ـ ولدت بعدك بعشر سنين. ولا علاقة فى الظاهر بين أهلى وأهلك ولا بين بشرى وكولومبيا . ولا بين سنة ١٨٧٣ و ١٨٨٣ . ومع ذلك ، لو لم أولد حيث ولدت وحين ولدت . ولو لم يكن أبواى فى نفارمستمر . ولو لم يكن لى أخ اسمه بطرس لما هجرنا بلادنا . ولو لم يكن لأخى وأمى معارف من أبناء بشرى فى بوسطن لما انتقينا بوسطن من كل مدن الولايات المتحدة وقراها . ولو لم أولد وفى ميل الى التصوير لما صورت. ولو لم أصور لما عرضت صورى . ولو لم أعرض صورى حيث عرضتها وحين عرضتها لما اتفق لصديقك أن يراها... ولو لم يخبرك صديقك عنها وكان لا يقعدك مرض أو شغل عن الذهاب لما ذهبت الى المعرض . ولو لم يتفق وجودى فى تلك الساعة هناك لما رأيتنى. ولو كان معك رفاق لما اقتربت منك وسألتك اذا كنت تريدين أن أفسر لك بعض الصور

« آ ، مارى ، مارى . أوكل هذه الامور ، وربوات غيرها من الاحلام والاشواق والافكار الدقيقة التى تولدها ، والتى لا يحصيها العقل ، ـ أوكلها مصادفات ؟ »

ـ لا يا خليل ، غير أن الناس يدعون مصـــادفة كل حادثة يجهلون مركزها من حياتهم وحياة الكون

ـ ان دورة الحياة لا تنتهي بعمر واحد ولا بأعمار . نحن نطلب الكمال ، نحن نفتش عن الله ، فمن ذا يجد آلله فى عشرين سنة أو فى مائة أو فى ألف ؟ « وكنتم أمواتا فأحياكم . ثم يميتكم ثم يحييكم . ثم اليه ترجعون » ـ هكذا قال نبى العـــرب . وهكذا قال أنبياء فى الشرق كثيرون . في الهند والصين واليابان مئات من الملايين الذين يؤمنون بتجديد الحياة الفردية قرونا تلو قرون . وفى لبنـــان طائفة يدعونها الدروز تؤمن الايمان عينه . ليست الحياة البشرية الا تصفية حســـابات . نموت فنترك خلفنا ديونا لنا وديونا علينا ـ من خير ومن شر ـ من حب ومن بغض ـ من صداقة ومن عـداوة . فنعود لنستوفى ونوفى . وسنظل نستوفى ونوفى الى أن لا يبقى لنا من رصيد حساب الا الله

ـ أرجو أن لا يكون الدين الذى لك فى ذمتى كبيرا يا خليل، وأن أكون قادرة على ايفائه

ـ اذا لم يكن لى غير أنى لا أشعر معك بالوحشة الروحيـــة التى أشعر بها مع باقى الناس لكفانى . ها أنا أتحدث اليك فى كل بارقة ألمحها بعين روحى ، وفى كل شبح يمر به خيالى . وكأنى أتحدث الى نفسى . أنا غريب في هذا العالم يا مارى . لكننى لست غريبا عنك ولا أنت غريبة عنى

ـ خليل ، لماذا لا تكتب بالانكليزية ؟ تقول لى انك فى العربية من الكتاب البارزين . وها أنت ، ولا تزال فى ريعان شبابك، قد أصدرت ثلاثة كتب بالعربية : الموسيقى ـ عرائس المروج ـ والارواح المتمردة . غير أنها ، كما فهمت منك ، لا تدر عليك فلسا بل تكلفك فلوسا

ـ لست واثقا من لغتى الانكليزية بعد ، ولا أظن بضـــاعة كبضاعتى تلقى رواجا فى هذه البلاد

ـ لقد تحسنت انكليزيتك تحسنا عظيما فى السنوات الاربع الاخيرة

ـ الفضل فى ذلك عائد اليك يا مارى

ـ وأنا أعدك بتصحيح لغتك قدر استطاعتى

ـ على أن أهتم بالتصوير الآن ، فهو أقرب مورد للرزق من الكتابة

ـ خليل ، أتحب أن تذهب الى باريس لمتابعة دروسك الفنية؟

ـ من كل قلبى ، ولكن ...

ـ لكن لا مال عندك . أنا أدفع أكلاف سفرك يا خليل وأتعهد لك بخمسة وسبعين دولارا أقدمها لك كل شهر الى أن تنهى دروسك . أفلا تقبلها منى تقدمة محبة لك واعجاب بمواهبك الغزيرة ؟ ويا ليت فى طاقتى أن أقدم لك أكثر من ذلك

ـ مارى ، مارى ، مارى ، (كاد لسان جبران يزلق فيقول : ميشلين ، ميشلين ، ميشلين) لقد أترعت قلبى حتى الفيضان . فلتكن دموعى جوابا لك

وبكى جبران وكانت دموعه تقول : « يا ليت روح مارى فى جسم ميشلين



يوم مولد ويوم حساب

أطلت شمس السادس من ديسمبر سنة١٩٠٨على«الكارتيه لاتين» في باريس وأنفذت شرذمة من أشعتها الى غرفة جبران فوجدته في أحضان مورفيوس • فمرت بلوحة من الكرتون على منصب التصوير تحمل شبه جسم فتاة عارية ، وبطاولة عليها أوراق وأقلام مبعثرة وزجاجة من الويسكي ، وبرزمة من الحطب أمام الموقد بجانبها ركوة لاعداد القهوة العربية وفنجانان • ومثلما دخلت الغرفة كالحلم هكذا انسحبت منها وانصرفت في سبيلها

وأخيرا أفاق جبران ، فتناول الساعة من تحت الوسادة ، واذا بها بعد العاشرة ، فنفض عنه اللحاف ونهض من فراشه متواكلا كأن ما كان في أجفانه من نعاس ، وفي نعاسه من أحلام ، ما برح يجذبه الى الفراش • وأضرم نارا في الموقدوجاء بالقهوة والركوة ثم مشى نحو النافذة بقدميه العاريتين فأحس كأن أرض الغرفة من جليد وقال : انه ليوم برده عضاض . لكنه بعد أن رأى الشمس خارجا استأنس بأشعتها ولو من بعيد وعاد فقال : انه ليوم عضاض لكن أنيابه من ذهب • وعندما فتح النافذة ليجرع بعض ما في الهواء من نور الشمس انكسرت لوحة من الزجاج وسمع شظاياها تتطحن على الرصيف فقال : انه ليوم رجلاه من زجاج • وقانا الله عثرته • وعندما سكب فنجانا من القهوة وأخذه بيد ثم أشعل من الموقد سيجارة بالاخرى اندلقت القهوة على رجله فأحرقتها ووقع الفنجان من

يده فتحطم على الارض،فقال جبران : انه ليوم قلبه من الزفت• وقانا الله ناره السوداء • وسكب قهوة جديدة وجلس يشربها ويدخن أمام الموقد ، ولغير ما سبب يعرفه أخذ يشعر كأن فى الغرفة أشباحا تتمشى ذهابا وايابا وتتحدث فيما بينها هكذا»

ـ ما هو الفن ؟

ـ هو أن تحمل بطيختين فى يد واحـــدة دون أن تلمس احداهما الاخرى

ـ ما هى الحياة ؟

ـ هى أن تركض مع النهار دون أن تدرك الليل • ومع الليل دون أن تدرك النهار • وألا تنكسر فىالركض رجلك أو رقبتك

ـ ما هو المجد ؟

ـ هو أن تشرب زيت السمك ممزوجا بحامض الفينيك ولا تتقيأ

ـ ما هو الحب

ـ هو أن تجدع أنفك لتضحك عينيك

ـ من هو الجالس أمام هذا الموقد ؟

ـ حطبة تتدفأ بحطبة

بقى جبران يدخن السيجارة تلوالسيجارة والأشباح تتهادى حواليه وتقهقه فى أذنيه الى أن ســمع أجراس نوتردام تعلن انتصاف النهار • فانتفض كمن أفاق من كابوس وارتدى ثيابه وخرج من البيت • فمشى فى بولفار سان ميشيل ثم توجـه الىحديقة اللوكسنبورج وقد تسلط على ذهنه بيت عربىقديم « انما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت » فكان يمر بالناس فيراهم عناكب • حتى أنه التفت الى الشمس فتخيلهـا عنكبوتا هائلة وتخيل كل ما على الارض وفى السماء نسيجها • ورأى نفسه ذبابة صغيرة عالقة فى ذلك النسيج

وقف جبران طويلا امام متحف اللوكسنبورج وصوت يقول له : « ادخل ، لعل ما حواليك منأشباح سوداء يجفل من بعض

مظاهر الفن الحديث » فيجيبه صوت آخر : « انما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت » • فيعيد الصوت الاول الكرة ويقول : « اذن فاذهب الى مدرستك ـ الى البوزار ـ فعندك فروض يجب تتميمها • وبعد الظهر سيلقي أستاذ كبير محاضرة عن تمثال « داود » لميكلانجلو • وأنت تؤله ميكلانجلو وفنه » • فيجيبه الصوت الثاني : « انما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت » • وأخيرا ارتد جبران عن باب المتحف وقصد حانوتا يعرفه فابتاع رغيف خبز وبرتقالتين ، وعاد بخطوات مسرعة الى البيت • فالتقى عند الباب بموزع البريد الذى ناوله رسالة من بوسطن عرف للحال أنها من ماري

دخل جبران غرفته وفض الرسالة،فاذا فيها حوالة بخمسة وسبعين دولارا ، وتهنئة بيوم مولده ، وعبارات جميلة تبين له عظيم ايمان ماري بمواهبه وبمستقبله فى عالم الفن • وأخبار محلية منها أن ميشلين قد تغيرت كثيرا بعد سفره ، فنحل جسمها ، وفارقت الابتسامة وجهها ، واكمدالنور فى عينيها• وأنها لا تكاد تكلم أحدا الا عند الضرورة•وقبل أن يأتى جبران على آخر الرسالة طرحها من يده وراح يتمشى فى جوانب الغرفة وهو يصيح :

ـ ميشلين ، ميشلين ، ميشلين ! لقد ملكت على مشاعرى ومفاتيح خيالى • ان فرحت فمنك ، وان حزنت فمنك • فى حبك قد أصبحت شيخا ، وفي حبك قد عدت صبيا • ما كنت أذكر يوم مولدى أو أهتم به حتى جعلت منه عيدا يليق بالملائكة• رب وردة كنت تبتاعينها بآخر فلس فى جيبك وتأتينني بها فى يوم مولدى فأشتم فيها عطر الألوهة منتشرا من قلبك العطر• رب قطعة من الحلوى كنت تضعينها بين شفتيك فأتناولها بشفتي وأتذوق فيها حلاوة الوجود التى ما بعدها حلاوة • واليوم أفيق وشذا الألوهه لا يتضوع فى غرفتى من ورود حبك•وعصافير قلبك لا ترفرف فوق رأسي وتزقزق فى أذنى•

بل في فمي مرارة الوحشة ·ومن حوالي أشباح آلامك وأوجاعي · وفي أذني قضقضة سخريتها وتصريف أسنان انتقامها · لقد جنيت عليك وعلى نفسي يا ميشلين · لقد لذ لي في البدء أن أذلل عنفوانك ، فاذا بي رهنت ارادتي وحسي وخيالي لعنفوانك · لقد حسبتك في البدء سلوى فاذا أنت اليوم شاغل · حاولت أن آخذ دون ان أعطي · وكنت تعطينني ولا تفكرين بما تأخذين

« بلى، لقد جنيت عليك وعلى نفسي يا ميشلين عندما أشركت في حياتي امرأة سواك ، فرضيت أن أستدر جيبها وعقلها حين أنا أستدر قلبك ولحمك ودمك · ولقد كذبت عليك عندما سألتني عن المرأة التي مدتني بالمال لأدرس في باريس فأجبتك أن ليس هنالك من امرأة ، وأن المال دبرته من بعض أقاربي وأصدقائي · لقد تغلب قلبك على لساني اذ شعر في الحال بوجود امرأة ثانية في حياتي · فما أصدق قلبك وأكذب لساني ! يا ليتني بحت لك بكل شيء ، اذن لما كانت هذه الاشباح السود تساورني اليوم وتضيق على أنفاسي · الي يا ميشلين · الي يا روح روحي ويا قلب قلبي · تعالي وقولي انك صفحت عن كل آثامي · وأنا سأكفر عن كل شيء · تعالي يا ميشلين والا ـ فأنا مقتلعك من قلبي حتى وان اقتلعت قلبي معك ! »



ارتمى جبران على كرسي بجانب الطاولة ، وأخذ يبعثر بيمينه ويساره رسوما وأوراقا كثيرة تكدست عليها ، كأنه يحسبها الاشباح السود التي تناضله ويناضلها · وكان كلما رفع ورقة تأملها قليلا ثم طرحها من يده قائلا : « ما النفع منك ؟ ما النفع منك ؟ » الى أن وقعت يده على دفتر خطت على غلافه هاتان الكلمتان : « دمعة وابتسامة » فأخذ يقلبه بغير ترو وغير نظام ، وكلما وقعت عينه على عنوان تأمله طويلا كأنه يستعيد الظروف والتأثرات التي حبلت به والساعات التي ولدته ، وكأنه لا يصدق أن قريحته أملته ويده خطته · وكان كلما قرأ عنوان

قطعة وبضعة سطور منها يخاطب نفسه معجبا أو معاتبا أو مؤنبا :

ـ خليلى ! لمن هذا الخطاب وما هو ؟ آه ! لخليلي الفقير وخليلى الحزين ، "لو علمت يا خليلى الفقير أن الفاقة التى تقضى عليك بالشقاء هى هى التى توحى اليك معرفة العدل وتبثك ادراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله ... ولو دريت يا حبيبى الحزين أن الأرزاء التى أصبحت مغلوبها هى تلك القوة التى تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء الى درجات الاعتبار ، لقنعت بها ارثا ...

ـ ما أذلق لسانك ، وأرشق قلمك ، وأصدق مواعظك يا جبران . وما أقل اتعاظك بمواعظك ! أنت تكره الفقروالحزن فعلام تحبب للناس ما تكرهه لنفسك ؟

ـ يا لائمى : دعنى ولا تعظنى ... اعتزل ذكر المحرمات ، فلى من ضميرى محكمة تقضى بالعدل على وتقينى العقاب اذا كنت ذا برارة ، وتحرمنى الثواب ان كنت من المجرمين . » ـ اذن هو ضميرك الذى يعذبك اليوم يا جبران . وهذه الاشباح السود ليست الا من كهوفه المظلمة . ان أنت لم تقض عليها اليوم قضت عليك غدا . فابدأ الآن ، فى هذه الدقيقة ، فى هذه اللحظة . انزع ميشلين من قلبك ومارى من رأسك وعش طليقا باسم الحب الذى لا يعرف اللحم والدم ، والفن الذى لا يتقيد بألوان الارض وأشباحها ، والجمال الواصل كل ما فى السماء وعلى الارض بنور الألوهة الذى لا يدرك

ـ رحماك يا نفس رحماك : حتى م تنوحين يا نفسى وأنت عالمة بضعفى ؟ رحماك يا نفس ، فقد أريتنى السعادة عن بعد شاسع : أنت والسعادة على جبل عال ، وأنا والشقاء فى أعماق الوادى . وهل يتم لقاء بين علو ووطوءة ؟ أنت تذهبين فى سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمة وعناق . وهذا الجسد يبقى أبدا قتيل الشوق والتفريق . رحماك يا نفس رحماك !

ـ ومن هى النفس التى تسترحمها ياجبران ؟ وما هوالجسد الذى تطلب من أجله الرحمة ؟ أتشتهى جثة الميت عناقا أو تخاف فراقا ؟ بل هى النفس منبع الشهوات • وهي طامعة اذا طمعتها • عجبا ليسوع ، عاش بتولا ومات بتولا وماكان يتحرق بحرقاتك ويتلوع بلوعاتك • أين سوطك يا جبران ، أين سوطك ؟ أعمله فى هذه النفس حتي تذل •ذللها يذل جسدك• فهى الأميرة وهو العبد • اجلد نفسك بلا شفقة • أين سوطك يا جبران ، أين سوطك ؟

ـ اللقاء • • • حكماء الامم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكوا حكمتك ويستفسروا رموزك يا حبيبتى ـ عظماء الارض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبى • ان راحتيك منبت خيرات غزيرة تملأ الاهراء يا حبيبتى ـ ان ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسيمات منعشة يا حبيبى

ـ هذا تقليد فاضح لنشيد سليمان يا جبران • وأنت تكره التقليد والمقلدين وتبشر بالابداع •فكيف تنهى عن أمر وتأتيه؟ ولكن ما هو التقليد ؟ ما هو الابداع ؟ آن صاحب نشيدالاناشيد قال ان ليس جديد تحت الشمس • أجل • ليس جديد • كل ما يفعله الانسان تقليد فى تقليد • غير أن بعض التقليد جميل وهو الابداع المرغوب • وأكثره قبيح وهو التقليد الممقوت • وانت تقلد الجميل بجمال يا جبران • فأنت مبدع • هذا فى منطقك منطق • وان لم يكن كذلك فى منطق الناس ، فما همك من منطق الناس ؟

ـ حديث الحب : يا حبيبة نفسى ! هل تذكرين يا حبيبتى ذاك الروض حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لى ان محبتك لى لم تنبثق من الشفقة على ؟ تلك النظرات التى علمتنى أن اقول لنفسى وللعالمين أن العطاء الذى يكون مصدره العدل لهو أعظم من الذى يبتدىء من

الحسنة ؟ وأن المحبة التي تبتــدعها الظروف تشابه ميــاه المستنقعات ؟

« أمامي يا حبيبتي حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة . حياة تؤاخي ذكرى الانسان الآتي ، وتستدعي اعتباره ومحبته . حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها ، لأني مؤمن بكونك قادرة على اظهار القوة التي أودعني الله اياها متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقول ذات العرف الطيب . وكذا تظل محبتي لي وللاجيال ، وتبقى منزهة عن الأنانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك

« اي ماري ، ماري ! ان حيرتي فيك وبهجتي بك لا تعرفان نهاية . من كنا وأين كنا في حياة قبل هذه الحياة ؟ أكنت لي اما وكنت لك ابنا ، أم كنت أختي وكنت أخاك ؟ أم كنت كاهنة وكنت كاهنا في خدمة عشتروت أو منيرفا نقدم ذبائحنا سويا على مذبح واحد ؟ عجبا ! تلمسني ميشلين فألتهب بنار لا أبالي أمن الجحيم هي أم من النعيم . وألمســك فتهدأ كل لواعجي الارضية وتضطرم نيران أشــواقي التي لا تستوطن الارض . لا . لا . أنت ما أحببتني شــفقة علي . ولا أنت تطمعين في استملاكي بما تبذلينه علي من المال . لكن المال يستملك ياماري . المال كالسوس ـ دأبه النخر . والمال كالملح ، اذا وضعت ولو قليلا منه في كأس من الخمر المعتقة تغير طعم الكأس . وأخشى أن ما تضعينه من مالك في خمرة علاقاتنا الطيبة سيغير من مذاق تلك الخمرة . غير أن الحاجة لا ترحم . وها أنا أموه على نفسي فأدعو عطاءك عــدلا لا حسنة . بلى . هو عــدل يا ماري هو عدل ، وان يكن العدل كلمة غريبة في قاموس المال . هو العدل أن لا يحرم العالم مواهب كمواهبي . وهو العــدل أن تكون اليد المساعدة على كشف تلك المواهب نقية وطاهرة كيدك . فأنا أريد أن تكون حياتي عظيمة وجميلة وأنا واثق من خلودها . وأنا واثق من أن محبتك الخالصة وعطفك الجميل سيستنبتان

من مواهبى أقوالا وأعمالا كبيرة مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقول ذات العرف الطيب

« وما هى العظمة التى تنشدها يا جبران ؟ أستأتى العالم بفتح جديد ، أم ستخلق بشرية جديدة ؟ أسترسم ما لم يرسمه بعد أكبر الرسامين ، أم تكتب ما لم يكتبه بعد أعظم الكتاب ؟ ها أنت اليوم شاب مجهول فى باريس ، تمر فى شوارعها فلا يرفع لك أحد قبعته • فهل تصبح عظيماً اذا مشيت غدا فى الشارع فحياك كل من تلتقيهم وحادوا من طريقك وتهامسوا فيما بينهم : هذاهو • هـذا هو ؟ أم هى العظمة أن يتهافت الناس على رسومك ومؤلفاتك وأن تبقى ، كما أنت اليوم ، تساورك الاشباح السود ، وتسرح فى قلبك المرارة ، وتقرض الوحشة ساعات وحدتك ؟

« والخلود ـ ما هو ؟ أولست خالدا كانسان حتى تخلد نفسك بكتاب أو بصورة ؟ ليبق الكتاب أو الرسم ألف جيل بل مائة ألف جيل • ليبق ما بقيت البشرية على الارض • لكن لا البشرية ولا الارض خالدتان • فكيف تخلد بما ليس خالدا ؟ وماذا أتيت حتى الآن من طلائع الخلود حتى تكون واثقا من خلود حياتك ؟

« ها هى مؤلفاتك وها هى رسومك : « عرائس المروج » • ماذا أودعته من الآثار الخالدة ـ رماد الاجيال والنار الخالدة ـ صورة جميلة الالوان لجانب صغير من عقيدة كبيرة ـ عقيدة التناسخ ، وهى أقدم من كل ما تصل اليه معارفك ومعارف الناس التاريخية • مرتا البانية ـ حكاية مثلها ألوف من الحكايات جرت وتجرى وستجرى على الارض . أهذه ستكون مشعلك فى طريق الخلود ؟ أم حكاية يوحنا المجنون ، وهى ندبة فى طاحون ونفخة فى صحراء ؟ لقد جاء الناصرى فندد بالكهنة والفريسيين تنديدا لن تستطيع أن تأتى بمثل بساطته وقوته • والكهنة والفريسيون ما يزالون،

مع ذلك ، متربعين على صدور الناس وفى قلوبهم وأفكارهم • لان ليس في صدور الناس ولا فى قلوبهم وأفكارهم معـــرفة تقول للكهنة والفريسيين : انصرفوا عنا !

« وهاهو ذا كتابك « الارواح المتمردة » وأخلد ما فيــه هو التقدمة : « الى الروح التي عانقت روحي • الى القلب الذى سكب أسراره فى قلبى • الى اليد التى أوقدت شـــعلة عواطفى • » فروحك وروح ميشلين خالدتان لان الحب خالد • أما المتمردون فى كتابك فقد مضوا مثلما مضى ويمضى سواهم • والذين تمردوا عليه من شؤون الحياة البشرية باق ببقاء البشرية

« ورسومك ؟ لقد التهمت النار ما التهمته منها فى بوسطن • والذى صورته بعد ذلك لم يشعل سراجا ولم يشق طريقا فى عالم الفن ، فما هي العظمة التى تحلم بهـــا والخلود الذى أنت واثق منه ؟ ومتى تبـــدأ أن تكون عظيما وخالدا ؟ وراءك ــ كم وراءك من السنين ؟ خمس وعشرون • واسمك لا يزال مجهولا الا عند القليل من متكلمى العربية • خمس وعشرون ســـنة ــ ولا عظمة ولا خلود • واليوم يوم مولدك ، فبماذا تذكره ؟

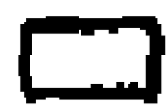
« فى مثل هذا اليوم ولدتنى امى ، فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمي ، فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى »

ولى النهار وجبران يحاسب نفسه ويعاتبها، ويربتها ويمنيها بما يخزنه له الغد من المجد ، وينتشل من خبايا ذاكرته أشباح ما كان ، ومن زوايا خياله رسوم ما سيكون • وفي دماغه وأمام عينيه ترقص هذه الكلمات : « فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى » يطردها فتعود ، ويحاول أن يلهو عنها بأمر من الامور فتلهيه عن ملهاته • وما فتئت تقفز فى دماغه وتحفر فى قلبـــــه حتى نهض وأشعل الغاز وأخذ قلما ودفترا وبدأ يكتب :

« فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى

« وفى مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة، وضعتنى السكينة بين أيدى هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

« فى هذا اليوم تنتصب أمامى معانى حياتى الغابرة كأنها مرآة ضئيلة أنظر فيها طويلا فلا أرى سوى اوجه السنين الشاحبة كأوجه الاموات ، وملامح الآمال والاحلام والامانى المتجعدة كملامح الشيوخ. ثم أغمض عينى وأنظر ثانية فى تلك المرآة فلا أرى غير وجهى. ثم أحدق بوجهى فلا أرى غير الكآبة. ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة



« واليوم ، وقد وقفت متذكرا وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، أنظر الى كل ناحية فلا أرى لماضى حياتى أثرا استطيع أن أومىء اليه أمام وجه الشمس قائلا : « هذا لى » ولا أجد لفصول أعوامى غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطا وألوانا متباينة متناسقة. فى هذه الاوراق المنثورة والرسوم المبعثرة قد كفنت ودفنت عواطفى وأفكارى وأحلامى ، مثلما يدفن الزراع البذور فى بطن الارض. ولكن الزارع الذى يخرج الى الحقل ويلقى البذور بين ثنايا التراب يعود الى بيته فى المساء آملا راجيا منتظرا أيام الحصاد والاستغلال . أما أنا فقد طرحت حبات قلبى بلا أمل ، ولا رجاء ، ولا انتظار »

بقى جبران يكتب حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وكان بين الفينة والفينة ينهض ويتمشى فى الغرفة ذهابا وايابا. وكلما أحس بدمعة فى عينيه مسحها بطرف أصبعه ، أو بجفاف فى فمه من كثرة دخان التبغ بله بقليل من عصير البرتقال . وأخيرا ختم ما ابتدأ به بالعبارات التالية :

« سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة المحجوب عنا بنقاب الشمس . وسلام لك أيها القلب لانك تستطيع أن تهز بالسلام وأنت مغمور بالدموع . وسلام لك أيتها الشفاه لأنك

تتلفظين بالسلام وانت تذوقين طعم المرارة »

ثم تناول معطفه وقبعته وخرج يقصد مطعما من المطاعم الليلية ليسكت صراخ معدته الفارغة . وهو يشعر كأن جبلا تزحزح عن صدره . وكان يقول لنفسه فى طريقه الى المطعم : « غدا يجب أن أرسل ثلاثين دولارا لماريانا هدية الميلاد »



فصل يبتدىء وفصل ينتهى

أوغست رودين ــ جبار من جبابرة الفن وكاهن من كهنة الجمال المعدودين . كان جبران قد رأى الكثير من آثاره الفنية فى باريس . وكان كلما وقف أمام تمثاله لفكتور هيجو او « المفكر » أو « القبلة » تسحره المقدرة التى جعلت من البرونز البارد والحجر القاسى عضلات تتفجر بقوة الحياة وتشع بالعواطف الشعرية وتتأجج بالافكار الثائرة . اما امام صورته الكبيرة « بوابة الجحيم » فقد وقف غير مرة يدرس دقائق معانيها وتفاصيل الوانها وتركيبها ، بادئا برسم دانتى فى أعلاها ومنحدرا الى الوجوه والاجسام الكثيرة التى تمثل سكان الجحيم وما يعانونه من أنواع الآلام والاوجاع الابدية

اتفق مرة لجبران أن زار رودين فى محترفه مع نفر من أساتذة البوزار وتلاميذها . فقضوا فى زيارته نحو ساعة خالها جبران دقيقة . لانه أخذ بهيبة الرجل وعظمته وبساطته واستقلاله ، وبما رآه حواليه من رسوم ملونة ، وسوداء وبيضاء ، وتماثيل من الجص والحجر والخشب ، بين كبيرة وصغيرة ، ومنها شكل يد بشرية مضخمة قد انفرجت أصابعها المدودة بعضها عن بعض وانحنت نحو راحة الكف بدرجات مختلفة . فبانت وكأن فى كل عقدة من عقدها قدرة الارض والسماء ، وكأن فى تقاطيعها من الحس أدقه ، ومن الذوق أصدقه وأرقه . حتى لا يصعب على من يتأمل كل معانيها أن يتخيلها تقبض على الطين فتجبل منه بشرا ومردة وكل أشكال الحياة المنظورة . وقد عرف جبران أن رودين صنع تلك اليد

وسماها « يد الله » . فقال فى نفسه : « أهو الله خلق الانسان أم الانسان الله ؟ ليس من خالق الاالخيال واظهر مجالى الخيال الفن ــ الفن . الفن ! هو الحياة والحياة هو . وكل شيء يهون فى سبيله . لا مجد الا منه . ولا جمال الا فيه . هذه هي العظمة ــ أن تكون كرودين ــ ممجدا ومكرما حيثما كان للفن أثر ــ من بطرسبرج الى سدنى ، أو استراليا ، ومن طوكيو الى نيويورك ، وأن يذكر اسمك باجلال كلما ذكر الفن ، وأن يأتيك الناس من المشارق والمغارب ليتبركوا ببعض ما باركتك به الحياة من المواهب »

طرح التلاميذ على رودين أسئلة كثيرة لها علاقة بالفن ، كان يجيب على كل منها ببساطة ووضوح مضمنا بعض أجوبته خلاصة فلسفته فى الحياة والفن . وكان بين الآونة والاخرى يتوفق الى كلمة أو عبارة أو تشبيه تمر بأذهان سامعيه مرور شهاب فى الظلمة . وجره سؤال من الاسئلة التى طرحت عليه الى التحدث عن وليم بلايك ــ الفنان والشاعر الانجليزى الغريب (١٧٥٧ ــ ١٨٢٧) . فأخبر سامعيه شيئا عن حياة الرجل وكيف تعانقت فى روحه الاهة التصوير مع الاهة الشعر فكان شاعرا ممتازا فى فنه وفنانا ممتازا فى شعره . وكيف أنه كان يرى ما لا يراه الناس ويشعر بما لا يشعر به الناس . اذ كان يرى رؤى ويسكن بخياله عوالم غير عالمنا الارضى . فيترجم رؤاه ومشاهد عوالمه المحجوبة عن أعين الناس تارة برسوم تفتن الناظر بسحر ما فيها من أسرار واتساق ودقة ، وطورا بأناشيد شعرية ونثرية كان يقراها الناس ولا يفهمون منها شيئا فيقولون ان فى عقل صاحبها مسا . والحقيقة هى أن بلايك لم يكن مجنونا ، بل عاقلا بين مجانين . ومصيبته لم تكن الا فى أنه حاول أن يجعل أوضاع اللغة الصلبة مرنة مثل الفن . وأن يؤدى بالكلام المقيد بالمنطق رسوما وعوامل نفسية تتعدى المنطق . فكان كلما تقدم فى

السن وكلما تكاثرت وتنوعت رؤاه ونبوءاته ، ازداد فنه جمالا ووضوحا ، ولغته تعقدا وغموضا . ففي الرسوم التي وضعها لسفر أيوب ابداع من الطراز الاول . أما في مؤلفاته الاخيرة فتشويش لغوي لا يلام معه قارؤها اذا دعا كاتبها مجنونا



انصرف جبران من عند رودين وقد نسي رودين وامتلأ دماغه وخياله وكل وجدانه بشخص واحد ـ وليم بلايك ـ . وذهب توا الى بائع كتب أمريكي كان قد اهتدى اليه من قبل ، واكثر ما يبيعه كتبا قديمة مستعملة . وهناك حظي بنسخة من تأليف عن وليم بلايك وفيها تفاصيل حياته ونماذج مختلفة من شعره ونثره وفنه . فابتاعها في الحال وما صدق أن وصل الى حديقة اللوكسمبرج حتى جلس على مقعد وأخذ يلتهم الكتاب الذي بيده التهام جائع لرغيف من الخبز

قضى جبران في الحديقة نحو ساعتين ناسيا كل ما في الكون الا نفسه ووليم بلايك ، وهاتفا في أعماق قلبه : « سبحانك ربي الذي قادني اليوم الى رودين ليقودني رودين الى بلايك . حقا ان الامور مرهونة بأوقاتها . فلا يحدث شيء الا عند ما تقضي الحاجة بحدوثه . كنت أظنني غريبا في الارض ، واليوم جاءني بلايك ليؤنس غربتي . كنت أظنني تائها . وهاهوذا بلايك يسير أمامي . ترى ما هي القرابة التي تجمعنا ؟ ألعل روحه عادت الى الارض وارتدت جسدي ثوبا ؟ ما كان أجمل حياته وأهنأها ! هو لم يعرف من النساء غير زوجته . وكم كان سعيدا برفقتها ، تفهمه ويفهمها ، وانا . . . آه لو كان لي مثل زوجته! وما بالي أتأوه وعندي ماري ؟ بلى ، ماري . ماري . سأتخذها زوجة لي وان تكن أسن مني بعشر سنين ، وان لم يكن بيننا تجاذب جسدي كالذي بيني وبين ميشلين . فيكفي أن يكون بيننا تجاذب روحي . وسأحيا معها حياة زوجية بحتة . وسأكون سعيدا عند ما يقول الناس في ما قالوه في بلايك ـ

هو مجنون: الجنون فى الفن ابداع، وفى الشعر حكمة، والجنون بالله أقصى درجات العبادة »

بدأ الليل يحتل باريس ، وبدأت باريس ترشقه بنبـالها الكهربائية عند ما عاد جبران الى غرفتـه وتحت ابطه ـ وفى رأسه وقلبه ـ وليم بلايك ، وفي يده كيس من الورق تعانق فيه رغيف من الخبز مع أوقية من نقانق الخنزير . وعنـدما دخل غرفته وجد على الطاولة رسـالة مختومة تفحص الخـط على غلافها فلم يعرفه . ففضها واذا بها عربيـة من فتاة لبنـانية ما سـبق له قط أن سـمع حتى باسـمها . وهى تتقـدم اليه برسالتهـا لتبين له بعبارتهـا البسـيطة كبـير اعجابهـا به وعظيـم امتنانهـا له ، ولتشـكر له باسمها وباسم الفتاة الشرقية اجمالا جهوده فى سبيـل المرأة ، فقد قرأت «مرتا البانية» و «السيدة وردة» وقرأت كل ما توصلت اليه من كتاباته فغدت تتشوق الى لمس اليـد التى خطتها والى التعرف « بالروح السماوية » التى أملتها. وهاهي ذى الآن فى باريس.فهل يثقل على صاحب « الارواح المتمردة » و « عرائس المروج » أن يخصص لها ولو بضـع دقائق من وقته الثمين لزيارته ؟

وضع جبران الرسالة من يده وهو يشعر أن غبطة ناعمـة تمشت فى دمه من سطورها البسيطة ، وأن العظمة التى ينشدها قد بدت طلائعها . ثم أخذ يسأل نفسه : « ترى من هى هذه الفتاة ؟ أحب قـديم يخاطبنى بلهجـة جـديدة ؟ أخيط من خيوط حياتك يلتقطه الآن مكوك القدر من جـديد ؟ ليتابع النسيج الذى أدعوه « أنا » ؟ أجميلة هى ؟ أغنيـة ؟ ها قد بدأت أكون مشعلا يستنير به الناس من بعيـد ، فعلى ان أجعل نوره صافيا . على أن أكون كما يتمثلنى الناس : نقيا ، طاهرا ، شفافا ، شفوقا ، محبا للصلاح ، صبورا على الالم ، مترفعا عن الدنايا . نجنى يا رب من نفسى . اغسلنى

يارب من أقذارى . اصهرنى يا رب فى مصهر حقك »

وكلمعة الحباحب في الليل مرت فى ذاكرته كلمات أمه : « وقانا الله ساعة التجربة » وبينما هو فى ذلك اذ سمع طرقة على الباب . واذا به الحاجب أتى ليخبره بأن سيدة جاءت تسأل عنه بعد الظهر ، واذ لم تجده قالت انها تعود فى المساء . ولم تعط اسمها . وبعد أن انصرف الحاجب ندم جبران لانه لم يسأله أن يصف له الزائرة المجهولة . وقال لعلها الفتاة التى كتبت الرسالة . ثم أخذ كتاب بلايك والكيس وجاء بزجاجة من النبيذ الابيض وجلس الى الطاولة يمضغ بلايك بعينيه وروحه ، بينا أسنانه تمضغ الخبز ونقانق الخنزير ، وزجاجة النبيذ تساعدها فى ذلك . فكان فى قلبه عرس وفى معدته وليمة

ما كاد جبران يأتى على آخر لقمة من عشائه حتى طرق الباب ثانية . فهب اليه وفتحه وجمد مكانه مشدوها وكأن رجليه قد سمرتا بالارض . وبعد فترة من السكون والدهشة صاح بأعلى صوته : « ميشلين ! » وجذب السيدة الواقفة بالباب الي صدره ، وضمها اليه ، وغيب وجهه فى ثنايا ثوبها فوق نهديها . فطوقت عنقه بذراعيها ، وألقت رأسها على كتفه . وبقيا كذلك دقائق وهو لا يسمع الا دقات قلبها ، وتمتمة شفتيها «خليل ، خليل ! »

وهى لا تشعر الا بمرور أنفاسه السريعة الملتهبة ، ولاتسمع الا اسمها محمولا بخفة على لهيب تلك الانفاس : « ميشلين ، ميشلين ! »

ــ لقد أمرتنى فأطعت ، ناديتنى من وراء المحيط فلبيت ، فأنت ، كما ترى ، لا تزال صاحب سلطان علي يا خليل

ــ هو الحب يا ميشلين ، هو الحب يأمر فنطيع وينهى فنذعن . هو السلطان ونحن الرعية . من يعص الحب يعص الله . اذ لا اله الاه . دعينى الآن أدفىء روحي بشعاع عينيك

الجميلتين ، وأرشف الحق من شفتيك القرمزيتين ، والمس الحياة فى يديك الناعمتين . دعينى أسمع قلبى نابضــا فى قلبك ، وأرى أنفاسى راقصة مع أنفاسك . لقد كنت كلمــا مرت السعادة ببابى قلت : هذا خيالها ، وكلما سمعت وقع قدميها فى بيتى قلت : هذه جارية من جواريها . أما اليوم، اليوم أسمعها ترفرف وتزقزق فى قلبى ، اليوم قد هبطت على مع اشعة الشمس ، ودخلت غرفتى مع النسيم . اليوم قد حملتنى فى موكب من نور . اليوم احلف يمينا صادقة اننى أسعد الناس . ميشلين ، ميشلين ! أفى حلم نحن أم فى يقظة ؟ اليوم اهتديت الى أخت لروحى ستكون أختا لروحك أيضا . روح غريبة عجيبة . روح متفردة بين الارواح . روح شاعر وفنان انجليزى مات منذ تسعين سنة واسمه وليم بلايك . سأقرأ لك حياته يا ميشلين ، وما اجملها من حياة ! وستبصرين فى الحال أن الحياة انتدبتك لتكونى لخليل رفيقة ومعينة مثلما كانت كاترين لبلايك . وسأريك بعض رسومه واقرأ لك شيئا من شعره ، وستحبينه مثلمــا احببته . ميشلين ، ميشلين ! ما أكرم الله ! ما أجمل الحياة ! هذا يوم كامل ، هذا من أيام القــدر . وما اجملك يا ميشلين هاتى خبرينى عن كل شىء ، متى تركت بوســطن ، ومتى وصــلت باريس ، وكيف عـزمت على المجىء دون أن تعلمينى يا شريرة ؟ سنجعل هذه الغرفة الصغيرة بيتنا ، وهى ، على ضيقها ، ستكون رحبة ، فحيثما كان الحب كانت المســكونة بيتا له . أين أمتعتك ؟ »

ـ فى النزل

ـ وأى نزل ؟ لنذهب فى الحال ونأت بها الى هنا

ـ لا ضرورة لذلك الآن يا خليل

ـ وماذا تعنين ؟ أتكونين فى باريس ويكون لك بيت غير هذا البيت ؟

ـ ليكن قلبك بيتا لقلبى ، ولا يهمنى حينئذ اين انام ، وماذا آكل واشرب

ـ حيثما يكون قلبى هناك يكون قلبك ايضا . ومثلما آكل واشرب تأكلين وتشربين . الفراش الذى افترشه تفترشين . وباللحاف الذى التحف تلتحفين

ـ آه خليل ، خليل ! انا قانعة بأن اكون الحصير تحت رجليك ، والغبار على حذائك . دعنى أخدمك فأغسل ثيابك واكنس غرفتك ، وأعد قهوتك ، واطبخ لك غداءك وعشاءك. ولكن ... لا تسلنى ان اكون ... أن اكون . حظيتك

ـ هذا تجديف يا ميشلين ، تجديف على الحب والحياة . ما جمعه الله حذار أن يفرقه انسان . والله هو الحب . هو الحب يربط ويحل . هو الحب شد روحينا وجسدينا منذ الازل برباط واحد . هو الحب قال لنا كونا فكنا . حيثما جمع الحب قلبين لا ولن تفرقهما كل قوى الانس والجن . وقلبان لم يربطهما الحب لا ولن تربطهما تعاويذ ألف كاهن والف قسيس وتمتمة الف قاض . حظية ... حظية ! رب حظية كانت أشرف فى عين الحياة من الف زوجة قدست رباطها شرائع الارض ورذلته شرائع السماء . الحب لا يعرف الا نفسه ، ولا يدين بدين غير دين نفسه ، ولا يتقيد بشرع غير شرع نفسه . وشرع الحب هو الحرية ، كل ما فى الارض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وافراحها . أما البشر فمحرومون هذه النعمة ، لانهم وضعوا لارواحهم الالهية شريعة عالمية محدودة . وسنوا لاجسادهم ونفوسهم قانونا واحدا قاسيا . واقاموا لميولهم وعواطفهم سجنا ضيقا مخيفا . وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبرا عميقا مظلما . فاذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا : هذا متمرد شرير خليق بالنفى ، وساقط دنس يستحق الموت . وانا متمرد ياميشلين ،

وسأبقى متمردا كل حياتي . وكيف لا أتمرد على الناس وقد أنزلوا الكاهن منزلة الله ؟ أم كيف أرضخ لشرائعهم الفاسدة وقد أخضعوا ناموس الحب والحياة لناموس البطن واللذة واللياقة ؟ أنا شاعر وفنان يا ميشلين . والشعر والفن مالم يسرحا فى فضاء فسيح طليق ماتا بداء السل ، ومن ثم ـ وأنت تعلمين ذلك يا ميشلين ـ فأنا أدرس هنا على نفقة البعض من أقربائى وأصحابى . فلو رضيت أن أتقيد بشرائع الناس وأن أتخذك زوجة برضى السلطة الدينية والمدنية ـ كأن رضى الله لا يكفى ـ لما تمكنت من ذلك . اذ لو درى اقربائى واصحابى بالامر لقطعوا عنى معونتهم

ـ بل قل ، لو درت هى بالامر

ـ ميشلين ، يا شريرة ، لا تقاطعينى

ـ ولو درى ـ لنقل أقرباؤك وأصحابك ـ بأنك تساكن امراة ليست زوجتك ، أفما كانوا يقطعون عنك معونتهم ؟

ـ لا ، لا ، يستحيل أن يدروا ، فهم فى بلاد ونحن فى بلاد

ـ والحياة التى تؤمن أنت بها يا خليل ، وتقول ان لها عينا تبصر كل شىء ، وأذنا تعى كل شىء ، أهى كذلك فى بلاد ونحن فى بلاد ؟ ويسوعك الذى قال : « ليس خفى الا يظهر » اهو كذلك فى بلاد ونحن فى بلاد ؟ ورفيق روحك الجديد ـ وليم بلايك ـ الذى كان شاعرا وفنانا وكان ، مع ذلك ، زوجا صالحا وأمينا ، أهو فى بلاد ونحن فى بلاد ؟ بل قل أنت فى بلاد يا خليل وميشلين فى بلاد . أنت خلقت للشعر والفن وأنت تعتقد الشعر والفن من السماء . وأنا ـ كما قلت لى مرة ـ من التراب وللتراب . وقد كنت اظن فى بساطة قلبى أن التراب ، الذى ينبت القمح المغذى والزنبقة الطاهرة والوردة الجميلة ، يصلح كذلك تربة للشعر والفن، فما كان أجهلنى ! ما كان اغبانى ! ما كان أشد عماى !

ووثبت ميشلين الى الباب شاهقة بدموعها وانحدرت عن الدرج بسرعة لم تر معها الدرجات ولا عرفت اين كانت تقع قدمها ولا الى اين كانت تقودها . أما جبران فظل مكانه ، وقد امتقع لونه ، وجحظت عيناه ، وهرب قلبه من صدره ، واختلطت عليه مشاعره وأفكاره . ثم أحس برجفة فى أعصابه وبضعف فى رجليه وبسيل من الدموع يحاصر مقلتيه . فارتمى على فراشه وأخذ وسادة بين ذراعيه وضمها الى صدره وراح يرويها بدموعه ، وصوت فى داخله يقول : «هى النهاية ، هى النهاية ، لقد نحرت حبك على مذبح شهوتك ياجبران . أنت مصاب بداء الكلام يا جبران . ولأنك تخجل من كل ما فيك من ضعف بشرى تعكف عليه فتستره بحلة من الكلام الجميل والالوان البهجة . والكلام الجميل لا يرفع الشناعة الى مستوى الجمال . والالوان البهجة لا تصبغ الضعف قوة . وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة الجسدية الها ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة ، فيجيبه صوت آخر : « سترجع ، سترجع ، لقد فعلت هذا قبل اليوم ورجعت ، سترجع ! »

لكن ميشلين لم ترجع

وفى صباح اليوم التالى تلقى جبران رسالة تنعى اليه وفاة ابيه فى بشرى

سكرة، ثم صحوة، ثم سكرة

حياة الانسان على الارض سكرة دائمة ، وليس يصحو منها قبل الموت الا القليل من ذوى الخيال والالهام . وصحوة هؤلاء يندر أن تدوم سنوات متوالية ، كصحوة بوذا ويسوع ، وأكثرها لا يتعدى فترات قصيرة من الزمن يفلت فيها الخيال من اشراك البدايات والنهايات ، والحدود والفواصل ، والاسباب والنتائج ، والخير والشر ، وكل أصناف المتناقضات ، ويسبح فى جو لا خصام فيه بين «أنا» اذ ليس فيه الا « أنا » واحدة ، شاملة ، لا متناهية

من فكر الى فكر ، من لذة الى ألم ، من شبع الى جوع ، من ضعة الى رفعة ، من فوز الى فشل ، من هم الى هم . سكرة تلو سكرة . فى مثل هذه الاقداح يفيض الناس أيامهم ولياليهم . وهم يحسبون ما يشربونه سلافة الحياة . وكرمة الحياة براء منه . فما هو الا من معصرة أوهامهم القائلة أن نصف الحياة شهد ونصفها الآخر حنظل . وأن غايتهم القصوى من الوجود هى أن يسرقوا من الحياة شهدها ويتركوا حنظلها . ولمن يتركونه ؟

كان جبران واقفا وحده عند مقدمة الباخرة بطريقه من اوربا الى أمريكا . وكانت الريح تلعب بشعره وتبلل وجهه برشاش الامواج ، والشمس المائلة للغروب قد اتخذت من الغيوم أدهانا ، وجعلت من الافق البعيد منصبا ، ومدت عليه خامة لا حد لها، وراحت ترسم عليهامن الاشكال والالوان ما تعجز عنه كل فرشاة الا فرشاة الشمس السحرية .

فمن مروج ذهب ترعى فيها قطعان من الخلائق التى لاتعرفها الارض ، الى جبال ثلجية تحمل على رؤوسها بحيرات من نار، ومن هياكل مقببة تنسل من بين أعمدتها جبال من البخور والنور ، الى كهوف تتمايل فى مداخلها العابسة أشباح جبابرة وأقزام ، ومن حور ترقص فى غابات من المرجان ، الى عجائز تندب فى مقابر ، ومن تنانين فاغرة أفواهها وحيتان رافعة أذنابها ، الى عروش لا سلاطين عليها ، ومركبات جيادها مجنحة ولا أعنة لها . رسوم تدهنها الشمس بلحظة . وبلحظة تغير أشكالها وتبدل الوانها ، وتظل كذوب من السحر تشربه العين فلا ترتوى

لكن جبران كان ينظر الى ما تصوره الشمس أمام عينيه فلا يبصر الا أشباحا يطرحها فانوس الذاكرة على لوحة الافق بسرعة أين منها سرعة الشمس فى تنميق الغيوم . فكان قلبه يعج بما تثيره تلك الاشباح من غبطة راحلة وألم مقيم وفكره يحاول أن يختلس من الغد بعض أسراره ، ويمحو من الماضى الكثير من آثاره . ومن الآثار التى يود لو يمحوها علاقته مع تلك الفتاة اللبنانية التى كتبت اليه مرة تبدى اعجابها به ورغبتها فى التعرف اليه . ومن الاسرار التى كان يود أن ينتشلها من حقيبة الغد سر ما برح يعذبه منذ أدرك أن طريق الفن طريقه . فمشى فيها وترك كل طريق سواها. وهو سر المعيشة : من أين يأتى بالمال ليعيش بشرف ويريح ماريانا من الابرة والخيط ويستغنى عن مساعدة مارى ؟ أمن شق قلمه أم من شعور فرشاته ؟

كثير هم الذين يعيشون فى أمريكا من فنهم . لكن أكثرهم تجار لا فنانون . والفرشاة فى يدهم جارية للدولار فى جيب جارهم . اما الذين يكسبون من فنهم دون أن يجعلوه سلعة فلهم شهرة واسعة تساعدهم على الكسب . والشهرة مومس ان استرضيتها كنت دونها ، وان سنحتها مالت عنك الى

الذين يسترضونها . فهل يستطيع أن يستميلها من غير أن يعفر أمامها جبين أنفته وجبين فنه ؟ لكنه ، ريثما يستميلها، من أين وبماذا يعيش ؟

والقلم . كيف له أن يعيش من شقه؟ لقد استلفتت كتاباته أنظار العالم العربى ، ونقلت بعضها باعجاب مجلة رزينة كمجلة جرجي زيدان وأطلقت عليها اسم « الشعر المنثور » . غير أن العالم العربى عالم فقير ، وقد لا يكون فقيرا ، لكنه لا يدفع أجرا الا للذين يملأون فراغ بطنه ، ويسترون عرى جسده، أما الذين يعصرون أرواحهم وقلوبهم خمرا ويقدمونها اليه فلا يقبلها منهم الا اذا قدموها فى طاسات من جماجمهم . ولا يدفع عنها أجرا سوى « بخ . . بخ » و « نعما . . نعما » كأن « بخ » و «نعما » تكفيان غذاء للحم الكاتب ودمه وعظمه!



هاهو ذا ، بعد ثلاث سنوات قضاها فى باريس ، وزار فى خلالها روما وبروكسل ولندن وما فيهن من متاحف وآثار فنية ، يشعر كأن قلبه يكاد يتفجر لوفرة ما فيه من العواطف التى بامكانه أن يبرزها الى الناس فى أكسية بهية . وكان خياله أرض بكر رواها الغيث فاستفاق كل ما كان هاجعا فى أحشائها من عجائب وغرائب وهو الآن يتحفز لتمزيق ما حواليه من أغشية ليدرج بألوانه المختلفة حيا وجميلا وحرا تحت الشمس . فكيف له أن يفرج عن قلبه فيسكب عواطفه فى قوالب شعرية ، اذا كان فكره تائها فى صحارى المعيشة يفتش عن الريال ولا يجده ؟ وكيف يتاح له أن يستغل ما فى تربة خياله الخصبة من قصائد ورسوم ، مادام صاحب البيت لا يقبض شعرا منثورا أجرة بيته ، وشركات النقل والتنوير، والخباز واللحام والاسكاف وبائع الاكسية والحلاق لا يرضون بالرسوم الفنية نقدا ؟ أو تخنق الحاجة الى الدولار حاجته الى الافصاح عما فى كيانه من عوامل زاخرة ، ثائرة ؟

عنده ماريانا وابرتها وخيطها ، وهى بالكد تكفى نفسها حاجاتها البسيطة . أفيرضى أن يأكل رغيفه ، ويلبس برنيطته وحذاءه من ثقب ابرة ماريانا ؟ والى متى يفعل ذلك ؟ ماريانا فى السادسة والعشرين . وكان من الواجب أن تتزوج . لكنها ، من فرط حبها له ، لن تتزوج ما زال هو فى حاجة الى نتاج ابرتها وخيطها . فهل يرهن مستقبلها وحياتها لمستقبل فنه وحياة أدبه ـ وذاك وهذه ما يزالان فى ضباب ؟ الا تبا للناس كيف شوهوا الحياة فقلبوها راسا لعقب ! رب ملاكم يثقلون جيوبه بالذهب ، وصدره وأصابعه بالجواهر ، ويتركون ذا الهام يغص بالهامه ، ويذبح خياله بسكين الجزار ، أو يجرفه فى فرن الخباز ، أو يشنقه على مصراع الباب لان ليس فى يده ما يدفعه أجرة عن الباب ! ولو عرف الناس قيمة الالهام لقالوا لذويه : « لا تهتموا بما تأكلون أو تشربون أو تلبسون أو تسكنون • اعطونا من الهامكم وكل ذلك نقدمه لكم مجانا

غير أن الناس لا يعرفون قيمة الالهام والملهمين . فأين المهرب ؟ ماكان أنعم باله من هذا القبيل فى باريس. فالخمسة والسبعون دولارا التى كان يتناولها من مارى فى كل شهر كانت تقوم بحاجاته وتفيض عنها . حتى انه كان يرسل الى ماريانا بعضا منها . اما الآن فمدة الدرس فى باريس قد انتهت والمعونة المالية من مارى ستنقطع بلا شك . وامامه جهاد عنيف وطويل قبلما يصبح معروفا فى عالم الفن ، فى بلاد شاسعة كأمريكا ، فيتمكن من أن يستدر معاشه من فنه . فما العمل ؟ واين الملجا ؟

هناك مارى . وهى تحبه ، وتقدر مواهبه ، وتفهم أشواقه ومطامحه ، ولا تحاسبه بضعفه ، ولا تدينه باثمه . هى امرأة وكأنها ليست امرأة ، فلا اثر فى روحها لغيرة النساء ، ولا فى قلبها لشهواتهن . كأنها لم تصنع من ضلع الرجل ، بل

جبلت من شرفه دون قساوته ، ومن عفة المرأة دون ضعفها. هو يحبها ، لكن بغير الحب الذى أحب به ميشلين . ياليته لم يعرف ميشلين ولا غيرها من النساء قبل أن عرف ماري! اذن لاكتفى بحبها الطاهر ، ولبادلها حبا منزها عن عواصف اللحم والدم • أو ليس فى استطاعته أن يفعل ذلك الآن ، فيتفرغ بكليته الى التصوير والكتابة ، تحت جناح مارى الدافىء ، وبرعاية فكرها النير وقلبها الحنون ؟ علام لا ، وهو بحاجة الى من يؤنس وحدته ، ويخفف من وحشته ، ويرفع عن صدر خياله كابوس الحاجة . ويعتقه من الاهتمام بصغائر المعيشة ؟ ومارى حريصة كل الحرص فيما يتعلق بالمعيشة . والفلس فى يدها أقوى من الريال فى يد غيرها . عندها مدرستها ، ولها مورد رزق لا بأس به . فليصل حياته بحياتها ـ ليتخذها رفيقة شرعية ـ ولتبق فى مدرستها ريثما يصبح قادرا على القيام بحاجاتها وحاجاته . ولينصرف هو الى فنه . والافضل أن يتخذ له مقرا فى نيويورك ، فالمجال فيها أوسع منه فى بوسطن . بلى . بلى . ليكن كذلك

ما بلغ جبران هذه النقطة من تأملاته حتى أحس بتخدر فى دماغه ، كأنه جرع كمية وافرة من المسكر . فهز رأسه كمن به دوار ، وفرك عينيه كمن يفيق من حلم مزعج . فرأى أمامه البحر الهادىء كأنه ملاءة زرقاء وقد شدت أطرافها بشواطىء لا تبصر ولا تحد . وكأن ربوات من أرواح اللجة ترقص تحت هذه الملاءة ، فترفعها قليلا هنا ، وتخفضها هناك . ورأى أذيال الغيوم الندية تشتعل اذ تلامس أذيال الشمس . وأحس بالريح التى تداعب شعره ووجهه كأنها انفاس كل الازمنة ـ ما غبر منها وما زال مكتوما ـ ففتح لها صدره وراح يجرع منها جرعات وكلما جرع جرعة قال :

ـ ادخلى ، ادخلى بكل ما فيك من بركات الحياة وويلاتها.

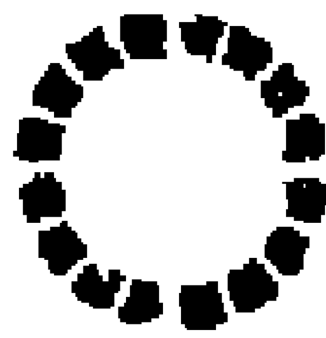
انت ابنة الريح التي حملت روح الله حين كانت الارض خاوية خالية وعلى وجه القمر ظلام ، وروح الله يرفرف على وجه المياه • وأنت الآن تحملين كل ما تنفست به الارض والسماء • منذ كانت الارض والسماء حتى الساعة . فادخلى ، ادخلى الى أعماقى ، واجعلينى شريكا لكل ما على الارض وفى السماء

وجمح به الخيال فصار اذا ما فكر بالنور فى عينيه قال هو من الشمس . فالشمس فى وانا فيها . أو بالبحر ، قال من البحر ارتوى . فالبحر فى وأنا فيه . أو بالارض ، قال من الارض اغتذى . فأنا الارض والارض أنا . وكأن ستارا أزيح عن بصيرته، فراى ذاته مثل محور يدورعليه كل شيء. أو مثل نقطة الدائرة تتفرع منها شعاعات لا تحصى الى كل اطراف الدائرة . ورأى أن قلبه يلامس كل قلب . وفكره يجاور كل فكر . فعجب لنفسه كيف انه ، منذ دقائق قليلة كان يقرض قلبه ويرهق فكره ويكبل خياله بهموم المعيشة . وها قلبه يرقص الآن مع ارواح اللجة تحت ملاءة البحر الزرقاء . وها فكره يدرج عليها . ويتسلق حبال النور المدلاة من الغيوم اليها . وها خياله ينشب من افق الى افق، ومن سماء الى سماء ، واصلا المنظور بغير المنظور ، وما كان بما سيكون ، مبصرا أن نهاية كل امر هى بداية آخر ، وبداية كل امر نهاية سواه . فلا بداية لشيء ، ولا نهاية لشيء ، ولا بداية ولا نهاية للواقف عند مقدمة الباخرة ــ جبران خليل جبران ــ ولا فاصل بينه وبين شيء . ولا عداوة بينه وبين اصغر او اكبر ما فى الكون . بل كل ما فى الكون يناديه : « انت ابنى الحبيب »

دق الناقوس يدعو الركاب الى العشاء . فأجفل جبران كمن كان ماشيا وحده فى حديقة سحرية وفجأة سمع رعدا يقصف فوق رأسه

وكان الافق قد أكمد ، وأالليل قد شد أوتار قيثاره بالنجوم

وراح يوقع عليها نشيد الموت والحياة . فمشى جبـــــران بخطوات متباطئة نحو غرفة المائدة . وبخطوات متباطئةعادت افكاره الى خمارة المعيشة وعادت تجرع فيها اكوابا من حلاوة الامل ومرارة الهم



نحن بالتفكير

كانت لماری هاسكل ، قبل أن اشتبكت حياتها بحياة جبران ، كرمة واحدة هي مدرستها . وكانت تتعهدها بكل ما في فكرها من المقدرة وقلبها من الحنان . أما بعد أن عرفت جبران وأرسلته على نفقتها الى باريس ، أصبحت لها كرمتان . وكان جبران كرمتها الثانية ، وكانت كرمتها الثانية أحب الى قلبها وأقرب الى فكرها من الاولى . فالمدرسة ، مهما تعددت مشاغلها واتسع نطاقها ، تبقى مدرسة تسير على برنامج محدود ، أجيال تاتی واجيال تروح ، صفوف ، دروس ، امتحانات ، شهادات ثم عطلة . والذی يجری فی سنة يجری مثله فی التی بعدها . حين ان جبران لا نطاق له ، ولا برنامج للقوى التی تغلی وتفور فی داخله .

فما جلست واياه مرة ، وأصغت الى حديثه ، وتفرست فی وجهه ، وتأملت حركاته ، الا احست بخمر جديدة تدب فی أفكارها ، وبأجنحة قوية تطير بخيالها ، وبنسمات منعشة تهب على روحها من عالم بعيد غريب . وما فكرت بوحدته وضيق حاله ، واندفاعه مع مطامحه وآماله ، الا مشی قلبها اليه ، ولذ لها ان تنفق من روحها وجيبها عليه . فما عادت تعرف اهی المحبة تربطها به ، أم الاعجاب يدنيها منه ، أم الشفقة تفتح قلبها له . غير انها ، كيفما تفقدت عواطفها نحوه ، وتغلغلت فی أفكارها عنه ، لم تجد للشهوة الجسدية فيها أثرا . لانها ، حتى عودة جبران من باريس ، ما احست بجاذب جسدی الى رجل قط . ولم تكن تدری اتغتبط

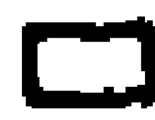
لذلك أم تحزن ، أتحسبه نقصا في نسوتها ، أم زيادة في قسمتها

لم يكن يتعب ماري في علاقاتها مع جبران غير أمر واحد، وهو أنها وجدته كثير الشكوك ، شديد الحرص على شخصيته، يخشى عليها أن تمس بأقل ملاحظة أو اشارة . حتى انه ليستعدي صديقا وفيا من أجل كلمة بريئة قد يخيل اليه أن فيها مسا بكرامته . ويستصدق عدوا لدودا اذا سمع منه أو عن لسانه كلمة اطراء . وبقدر ما يستمرر النقد من أي نوع كان ، يستعذب المديح مهما كان مصدره ، ويفصل المستحيل للحصول عليه . ثم انه ، لشدة نهمه في المديح وخوفه من النقد ، ولانه تعود التفكير والكلام والكتابة والتصوير بالمجاز ، كان يستخلص من الكلمة الواحدة معاني كثيرة حيث لا يستخلص سواه غير معنى ، ويقرأ سطورا في سطر ، ويبصر الوانا عديدة حيث لون واحد لا غير

اما هي ـ ماري ـ فمن طبعها البساطة والصراحة في كل شيء : في الفكر ، والكلام ، والمعيشة بكل مظاهرها . فهي لا تخجل من أن تقول الحق وان كان عليها . ولا تلبس منطقها أكسية مزركشة من المجاز . ولا تضمر نيات أو معاني غير ما تؤديه بكلامها . لا تداجي ، ولا تحابي ، ولا تسمي الاشياء بغير اسمائها . لكنها ، بعد أن خبرت جبران وميله الى التمليق والموالسة ، وتبرمه من الصراحة اذا اشتم فيها ما قد يحسبه محطا بكرامته ، أصبحت تخشى على علاقاتها معه أن تعبث بها كلمة من كلماتها السليمة النية ، أو اشارة من اشاراتها الصريحة الودية . ولم تشأ ـ بل لم يكن في وسعها ـ أن تغير طباعها فلا تقدم يدها الى جبران الامقمطة بالحرير ليستنعم ملمسها ، ولا تخاطبه الا بكلمات مطلوة بالسكر ليستعذب مذاقها

على أثر عودته من باريس زار جبران ماري هاسكل .

فاستقبلته استقبال فاتح . وقبلته بقبلتها التي دعاها في أحد مقالاته « مريمية » وراح يخبرها عن كل شاردة وواردة فاته أن يخبرها عنها في رسائله . وكان أغلب حديثه عن نفسه ـ عن كبار الفنانين والادباء الذين التقاهم في باريس وعن رأيه فيهم وما قالوه فيه . وعن الرسوم التي أنهاها وجاء بها الى بوسطن والرسوم التي ابتدأ بها ولم ينهها . وعن كتاباته العربية وما أحدثته في العالم العربي من تأثير . وعن المدن والمتاحف والآثار الفنية التي زارها ، والمعارض التي اشترك فيها . وكان ينمق الجميل من افكاره واعماله فيظهره اجمل مما هو . وينسج للضعيف والباهت منها أكسية من المجاز فيبدو الضعيف قويا والباهت زاهيا . واذا ما جمحت به الذاكرة فجرته الى مشهد من مشاهد حياته الباريسية التي كان يخجل من أن تقع عليها عين ماري ، محا ذلك المشهد بادهان من الصمت اذا تعذرت أدهان الكلام ، وتخطاه الى آخر يروقه وصفه ويروقه ان يرى ماري معجبة به ، مرتاحة الى معانيه



منذ ابتدأ جبران بالحديث وفي فكره ، وبين شفتيه ، كلمة تهم بالوثوب فيردعها قائلا لها : تصبري . تصبري . لم تأت ساعتك بعد . لعلك أكبر كلمة أفوه بها في كل حياتي، وقد احيا لاباركك او لالعنك . اما الاذن التي ستقعين فيها فستقتبلك كما اقتبل العبرانيون المن من السماء . بلى . فهي لا شك غرثى اليك . وستعلم ماري أن جبران يعرف قيمة الجميل اذا رافقته المحبة . وقدر المحبة اذا تجردت من محبة الذات . أنت كلمة كبيرة . وقد تغيرين مجرى حياتي بأسرها . تصبري . تصبري . ريثما أعد لك مسرحا يليق بك

ظل جبران يحادث ماري ويترصد الفرص لاطلاق سراح

الكلمة التى فى فمه الى أن وقف الحديث عند حد يستدعى الصمت والتفكير . واذ احس أن جليسته تمادت فى التامل أخذ فجأة يدها بيده ، وشد عليها ، ورفعها باحترام كلى الى شفتيه فقبلها . ثم اغمض عينيه ، وبصوت كأنه صوت القدر يعلن سرا عظيما من أسرار الوجود ، قال :

ـ ماری ! اتمشین معی ؟

فأجفلت ماری ، واستغربت الانقلاب السريع فى صوت جبران وحركاته وأجابته مستفهمة ، وهى لا تعلم لماذا سالها مثل هذا السؤال ، ولماذا تستفهم معناه :

ـ الى اين يا خليل ؟

ـ الى حيث تدعونا الحياة

ـ او تعنى الزواج يا خليل ؟

ـ نعم ، هل تقطعين معى الطريق حتى النهاية ؟

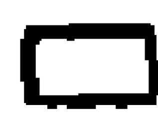
وببساطة الطفل ، وصراحة لا سلاح فى يديها لكنها ، مع ذلك ، تنزع السلاح من يد من ينازلها ، أجابت ماری والدهشة لا تزال بادية على وجهها وفى صوتها :

ـ وهل أنت نظيف يا خليل ، هل جسمك نظيف ؟

فهم جبران فى الحال ماعنته ماری بسؤالها . فقد قصدت ان تعرف اذا كان خاليا من الامراض الخبيثة . لكنه بلمحة طرف انقلب من حمل وديع الى أسد جريح ، ومن ساروفيم يرنم أمام عرش الحب الى ملاك تكبر على الله فطمنه الله فى صميم كبريائه . فاربد وجهه ، وارتجفت شفتاه ، وتوترت أعصابه ، وتخدر دماغه ، وانعقل لسانه . حتى انه لشدة انفعاله ، تمنى لو كان قطع لسانه قبل أن طرح على ماری سؤاله وسمع سؤالها

لقد ألقى جبران سؤاله على ماری ، و فى أعماقه امنية لا يجرؤ أن يبوح بها حتى لنفسه ، وهى أن تصدر من ماری كلمة أو تبدو منها حركة يتمكن معهما من الانسحاب « بنظام » .

فيبقى طليقا من زواج يدفعه عليه عقله ويحجم عنه دمه. ويكون ، فى الوقت ذاته ، قد زاد فى اعتبار مارى وتعلقها به . وصفى حساباته معها . فتركها مدينة له بدلا من أن يكون مدينا لها . لانها ، ان تكن انفقت عليه من مالها ، فهاهو ذا ينفق عليهـا من روحه ، ويعرض أن يرهن حياته لحياتها وسعادته لسعادتها . غير انه ما كان قط يتوقع منها مثل ذلك الجواب . فهو وان اتفق مع الأمنية الصامتة فى قلبه ، لم يتفق مع تقديره لنفسه وتقديره لمحبة مارى له . فقد كان يظن تلك المحبة ارفع من محبة الذات ، لا تخشى النار ولا العار فى سبيل محبوبها . وكان يظن أن جبران خليل جبران اذا ما لمح تلميحا الى امرأة ما ، كائنة من كانت ، انه يرضى بها رفيقة لحياته جعلها أسعد النساء . وهاهو ذا يعرض حياته على مارى ــ حبيبة نفسه ــ فتباغته بسؤال لو باغتته بمثله امرأة سواها لبصق فى وجهها ، أو أدمى فمها ، مع كل ما فيه من تأدب واحتشام . كيف تجسر امرأة ــ ومارى من بين كل النساء ــ أن تشك فى « نظافته » ؟ انها لقحة ما بعدها قحة . انها لطعنة نجلاء فى كبد كبريائه . انها لملمة صماء



انصرف جبران من عند مارى هاسكل وقلبه فى ديجور ، وفكره فى بركان. اذا مرت به أشباح ماضيه رآها ذليلة واهنة . أو تراءت له خيالات مستقبله وجدها قاتمة عابسة • أو فكر بما كان بينه وبين مارى تلك الليلة شعر كأنه خاض اكبر معركة فى حياته وعاد منها مدحورا ، مهشما . وكلما استعاد لذاكرته ما قال وما سمع أكل قلبه الندم على كلمة قالها وما كان من الحكمة أن يقولها . أو كلمة لم يقلها وكان من الواجب أن يقولها . ما العمل ؟ أتستخف به مارى الى هذا الحد ويبقى صامتا ؟ اتجرحه مثل هذا الجرح البليغ ولا يجرحها ؟ أيقطع كل علاقاته معها ؟ ولكن كيف يجرحها الا اذا جرح نفسه جرحا

ابلغ من الذى جرحته ؟ أم يقطع علاقاته معها الا اذا قطع علاقاته مع كل ما هو جميل فى ماضيه ، شفاف فى أحلامه ، باسم فى مستقبله ؟ لقد كتب لها وفيها أشياء كثيرة لو جاء اليوم ينقضها لكذب نفسه بنفسه وجعل من قلبه سخرية لدماغه . أو لم يخاطبها فى مقاله « الطفل يسوع والحب الطفل » هكذا :

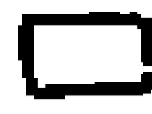
« ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لمحة واحدة تتنحى عن سنى حياتى ، لأنها أجمل من سنى حياتى ، هبط الروح من وسط دائرة النور الاعلى ، ونظر الى من وراء عينيك ، وتكلم معى بلسانك . ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل فى أعشار قلبى . . . هـذا الحب العظيم الجالس فى هذا المذود المنزوى فى صدرى . . . هذا الرضيع المتكىء على صدر النفس قد جعل الاحزان فى باطنى مسرة ، واليأس مجدا ، والوحدة نعيما . هذا الملك المتعالى فوق عرش الذات المعنوية قد أعاد بصوته الحياة لأيامى الميتة ، وأرجع بملامسة النور الى أجفانى المقرحة بالدموع ، وانتشل بيمينه آمالى من لجة القنوط »

فكيف يمحو اليوم ما كتبه بالامس ؟ ايقضى على حب مارى مثلما قضى على حب ميشلين ويعود الى وحدته ، ويأسه ووحشته؟ بل الافضل أن يكتب اليها رسالة ضافية فيها صلابة وترفع وتفجع . لا بل الأفضل أن يعتصم بالصمت فلا يكتب ولا يتكلم . وبعد نزاع عنيف تغلب الصمت على الكلام

بعد أيام كان جبران ــ وقد التأم جرحه ، وثاب اليه رشده ــ يفكر فى توافه المعيشة التى تتضخم فى بعض الأحوال وتنتفخ الى حد أن البصر ، كيفما دار ، لا يرى الاها . والبصيرة ، أنى تغلغلت ، لا تلمح سواها . فتصبح وكأنها من الحياة لبها . وكل ما تعداها قشور . من تلك التوافه اختلاق عذر لصاحب البيت اذا جاءك فى مطلع الشهر يطلب أجرة بيته وليس فى جيبك فلس يحتك بفلس . وفيما هو كذلك اذا بموزع البريد يدعوه فيناوله

رسالة . واذا بالرسالة من ماري وفيها حوالة بخمسة وسبعين دولارا ، واذا بماري تخاطبه بلهجتها المعتــادة ، وبمحبتها السابقة ، كأن لم يحدث بينهما شيء جديد على الاطلاق !

ما اتى جبران على آخر الرسالة حتى فاضت عواطفه من عينيه وانجلت آفاق فكره . فراح يمجد الحياة ويعجب لمجاريها الخفية ، وللناس الذين لا يعرفون عن تلك المجاري ، ومع ذلك لا يفتأون يحددون ويختطون مجاري لحياتهم ، ويشقون عندما تعبث الحياة الكبرى بحدودهم وخططهم وتجرهم في مجراها الأوسع . الم يرسم هو لنفسه خطة منظمة للزواج ؟ لقد كان بامكان ماري أن تقول « نعم » . أو أن تبدي له ما يخامرها من الخوف بطريقة لطيفة لا تجرحه . واذ ذاك لاتخذت حياته مجرى جديدا . ولكان عما قريب مربوطا بامرأة واحدة حتى آخر حياته . لكن ماري بسؤال بسيط ، حولت مجرى حياتها وحياته . وماري لم تكن مخيرة في ذلك بل مسيرة ، فقد الهمت ان تقول ما قالت ، وقد الهم ان يفعل ما فعل ، فكان ما كان لخير الاثنين



بعد عام لعودته من باريس ودع جبران بوسطن قاصدا نيويورك . وكان يحمل في أذنيه انتحاب ماريانا ، وفي عينيــه دموعها ، وفي قلبه محبة ماري وبركاتها ، وفي جيبه قسما من مالها . وفي حقيبته نسخة مخطوطة من روايته « الأجنحة المتكسرة » ونسخة مطبــوعة من كتاب نيتشة « هكذا تكلم زرادشت »

الفصل الثاني

الغسق

تمخضت الفأرة فولدت جبلا

فى سنة ١٦٢٦ لميلاد القائل « مجانا أخذتم ، مجانا اعطوا » جلس الفلس على عرشه ، ونادى بأعوانه ، ثم خطب فيهم هكذا :

« منذ سلمنى الناس مقاليدهم وأنا أداب النهار والليل فى سبيل اسعادهم ، واجترح العجيبة بعد العجيبة لأنقذهم من بؤسهم وشقائهم

« سمعتهم يشكون تبلبل ألسنتهم . فابتدعت لهم لسانا واحدا . وذلك اللسان أنا . أنا هو الحرف والمقطع والكلمة . وحيثما اجتمع اثنان باسمى تفاهما فى الحال وان يكن الواحد لا يفقه حرفا من لغة الآخر . تلك هى العجيبة الأولى

« ورأيتهم تتناتشهم أرباب كثيرة . فخلقت لهم ربا واحدا . وذلك الرب أنا . أنا هو الوزن والميزان ، والدين والديان . وأنا يعبدنى الناس بكل قلوبهم وكل أفكارهم وكل نياتهم . اما أربابهم الآخرون فيعبدونهم بشفاههم لا غير . تلك هى العجيبة الثانية

« ووجدتهم يسلكون الى السعادة شتى المسالك . ويطرقون شتى الأبواب . فهديتهم الى مسلك واحد هو أنا . والى باب واحد هو أنا . أنا هو المدخل والمخرج . وأنا الدليل والمحجة . تلك هى العجيبة الثالثة

« وساكنت النـاس وآكلتهم وشاربتهم فوجدت سلطانهم

لا يساكن راعى أغنامهم . وابن أميرتهم لا يؤاكل ابن جاريتهم . وقسهم لا يشارب زانيتهم . وسمعتهم يتبرمون من ذلك ويطلبون المساواة . فوضعت على أعناقهم نيرا واحدا . وذلك النير أنا . أنا هو النير والمحراث والحارث . تحت نيرى يمشى السلطان بجانب الراعى ، وابن الأميرة بجانب ابن الجارية ، والقس بجانب الزانية . تلك هى العجيبة الرابعة

« ودخلت قلوب النـــاس فألفيتها مرصوفة بالشهوات ولا رصف الحب في الرمانة . وألفيت الناس قد قسموا شهواتهم الى صالحة وطالحة . فأطلقوا الحرية للاولى واقاموا على الثانية الحراس والحجاب . وظلت قلوبهم تصرخ الى باسم الحرية . اذ ذاك جعلت لكل شهوة ثمنا . وجعلت ثمن الشهوة الطالحة اضعاف ثمن الصالحة . فاختلط حابل الناس بنابلهم . وهكذا حررت قلوبهم من قلوبهم . وتلك هى العجيبة الخامسة

« ومشيت فى الارض فوجدت أن الناس قدتقاسموها بالفتر والقيراط . واقاموا لقسماتهم حدودا . واقاموا السيف حارسا لحدودهم فلا يتعدى جار حدود جاره . ولا تعبر جنود مملكة تخوم أخرى الا بقصد الغزو . فأقمت للناس عبـارة تصل الحدود بالحدود . وتهزأ بالسيوف والجنود . وتلك العبارة أنا . أنا هو العابر والعبارة . أمر حيث السيف لا يجسر أن يلمع . وأعبر حيث الجيوش ترتد من وجه المدفع . تلك هى العجيبة السادسة

« أما العجيبة العجيبة فهى أنى قد مزجت الناس فى بوتقة واحدة . فجعلتهم جنسا واحدا وكانوا اجناسا . وأمة واحدة وكانوا أمما . بل قد جعلتهـم لحما واحـدا وعظما واحـدا ودما واحدا . لأنى جعلت طعامهم واحدا وشرابهم واحدا وكذلك كساءهم ومأواهم

« أنا هو الطعام والشراب والكساء والمأوى . ومثلما يشرب الناس قطرة من الماء جاهلين انهم بشربها يشربون كل أصناف

التراب والمعادن والنبات والحيوان والاقذار التى مرت بها كذلك يقبضون الفلس ويبتاعون به طعاما وشرابا وكساء ومأوى وهم لا يعلمون ماذا يأكلون ويشربون ويلبسون والى اين يأوون. اليكم هذا المثل :

« فى الليلة البارحة باعت امرأة أشواق قلبها التائه واهتزازات دمها المحموم بكمية من الفلوس . والمرأة تدعى فى قاموس الناس بغيا ، وفى شرعهم آفة ، وفى ناموس شرفهم قاذورة يتجنبها الشرفاء والاتقياء . وفى هذا الصباح انطلقت المرأة الى الكنيسة فابتاعت ببعض فلوسها بخورا للكنيسة وقدمت البعض تزكية الى الكاهن . اما البخور فأحرقه الكاهن تسبيحا لربه . وأما التزكية فابتاع بها لحم ضأن وأكل منه وأطعم عياله . أو تحسبون ذلك الكاهن ، عندما أحرق البخور لربه ، احرق نزيز جرح فى قلب شجرة عطرة ؟ الحق أقول لكم انه لم يحرق لربه سوى نزيز جرح فى قلب بغى . أم تظنون انه أكل وعياله لحم ضأن ؟ الحق أقول لكم انه لم يأكل وعياله سوى لحم بغى ولم يشرب سوى دم بغى . وأى الأمرين أصعب : أن يؤاكل الكاهن البغى ويشاربها أم أن يأكلها ويشربها فيصبح الاثنان لحما واحدا ودما واحدا ؟

« اليكم مثلا آخر :

« امس دخل لص على أرملة عجوز وكان قد سمع أنها تحمل فى عنقها كيسا من الفلوس . فأرداها بطعنة مدية وانتشل الكيس من عنقها مغموسا بدمها . وراح ليلته فقامر بالمال وخسره . والذى ربحه منه ابتاع به ثوبا من عند تاجر . والتاجر دفعه ضريبة للخزينة . والخزينة دفعته راتبا للقاضى . والقاضى حكم على اللص بالشنق . أو تحسبون القاضى أكثر براءة من اللص ؟ الحق أقول لكم انه لص مثله . اللص اراق دما بريئا ، أما القاضى فشربه

« أجل . لقد مزجت الناس فى بوتقة واحدة فجعلتهم انسانا

واحدا من حيث لا يدرون . وقد اجترحت فى سبيل اسعادهم سبع عجائب كبار ما عدا الصغار . وهم ، مع ذلك ، ما يزالون بؤساء أشقياء وأصواتهم ما تزال تصرخ الى — أعطنا السعادة . أعطنا السعادة ! فها انا عازم أن آتيهم بعجيبة جديدة

« لقد بنيت لهم فى سالف الأحقاب مدنا كثيرة . أما الآن فبخاطرى أن أبنى لهم مدينة تفوق كل ما بنيت . وسأعطى هذه المدينة آذانا تسمع بها كل لغات الناس . وعيونا تبصر بها كل أشكالهم واجناسهم . وسأجعل احشاءها أوسع من احشاء الجو . تسوق لها اليابسة خير خيراتها فلا تشبع . وتحمل اليها البحار أنفس أنفاسها فلا ترتوى . وسيكون فيها لكل شهوة مأوى . ولكل فكر مجال . ولكل خيال مسرح . فيمشى فيها اله الناس وشيطانهم جنبا الى جنب . وتنبت اغراس فردوسهم فى مجامر جحيمهم . ويجاور المعبد الخمارة وبيت الدعارة . ويتعانق المتحف والمقصف . وتتكىء المدرسة والسجن على بساط واحد .

« وسأحقن سكان المدينة بمصل جديد . هو مصل الحركة الدائمة . فيصلون النهار بالليل ولا يهدأون . وهكذا يكون لهم فى كل ساعة ما يتلهون به عن التفكير فى بواعث الحزن والألم . وسيكونون لى أطوع من بنانى والصق بى من ظلى . يكفرون بأربابهم أما بى فلا يكفرون . ويهربون من أرواحهم أما منى فلا يهربون . بل الى فى كل أمر يفزعون . اذا حملتهم من نفسى فوق طاقتهم لا يقولون : خف من احمالنا . بل يقولون : زدنا من أحمالك . وسيضيق بهم سطح الأرض فيتخذون فى جوفها أنفاقا . ويشيدون فى الجو حصونا عالية وأبراجا شامخة . وسأجعل أذنابهم طعاما لرؤوسهم . ورؤوسهم طعاما لأذنابهم . فيأكل بعضهم بعضا من حيث لا يعلمون

« ها أنا قد بحت لكم بما فى خاطرى . وعليكم أن تخلقوه . وقد اخترت للمدينة العتيدة جزيرة فى العالم الجديد واقعة

بين مصب نهرين . واسمها مانهاتان . وهى اليوم ملك عشيرة من العشائر الحمر . فبادروا اليها فى الحال وباشروا العمل ، وليقسم كل منكم يمين الطاعة قبل أن يبرح هذا المكان وانا معكم حتى نهاية الأزمان »

ما ختم الفلس خطابه ، حتى قام من بين الحضـــور كائن مجنح فى عنقه غل من الذهب ، وعلى عينيه برقع من الذهب . ومشى بكبرياء نحو العرش . ومشى خلفه أبناؤه العشرون ــ توأمين فتوأمين . وفى عنق كل منهم غل من ذهب ، وعلى عينيه برقع من ذهب . واذ مثلوا أمام العرش خروا ساجدين ، وعفروا جباههم قائلين :

ــ نقسم بوجه الفلس وقفاه ، أننا سنطيعه فى كل ما يأمره وينهاه

فقال الجالس على العرش :

ــ أيها الخيال ! لقد أحسنت النطق والنية ، ليكن فى مدينتى العتيدة لكل فن من فنونك أثر

ثم تقدم شيخ جللته هيبة أجيال كثيرة ، ويداه فى أصفاد من الفضة ، وعلى عينيه قناع من الفضة . وتقدم وراءه أولاده الخمسون ــ توأمين فتوأمين . ويدا كل منهم فى أصفاد من فضة ، وعلى عينيه قناع من فضة . ففعلوا وقالوا ما فعله الخيال وأولاده . فقال الجالس على العرش :

ــ أيها الفكر ! لقد أحسنت النطق والنية ، ليكن فى مدينتى العتيدة لكل فتح من فتوحك خبر

ثم نهض كهل على عينيه نظارتان كبيرتان . ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس ، وحبا نحو العرش على عكازين . وحبا وراءه على عكازاتهم أولاده الثمانية والتسعون ــ توأمين فتوأمين . وعلى عينى كل منهم نظاراتان كبيرتان ، ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس . ففعلوا وقالوا ما فعله من سبقهم . فقال الجالس على العرش :

ـ أيها العقل ! لقد أحسنت النطق والنية ، ليكن على كل باب من أبواب مدينتى العتيدة نظاراتان كالتى على عينيك وعيون أولادك

وأخيرا تقدمت كتلة من اللحم قد نشبت فيها مسلات كثيرة فبانت كأنها القنفذ ، وقالت ما قاله الذين سبقوها • فأجابها الجالس على العرش :

ـ أيها القلب ! لقد أحسنت النطق والنيـة ، قر عينا وانعم بالا ، ففى مدينتى العتيدة ستجد منفذا لكل مسلة من مسلاتك

وعندها التفت الفلس الى الوزير الجالس عن يمينه واسمه « الطمع » ، والوزير الجالس عن يساره واسمه « المكر » ، وقال لهما :

ـ اليوم يومكما ، انطلقا الى العـالم الجديد ، حيث القبيلة الحمراء التى تملك الجزيرة المدعوة مانهاتان ، وابتاعاها منهـا بأبخس ما يمكنكما

وكاد الفلس يحل مجلسه عندما انتصبت فجأة امامه فتاة عريانة ، تقلب فى يديها كرة كبيرة من النور الصافى المتبلور . ففرك الفلس عينيه وقد أدهشته الفتاة وبهره جمال الكرة فى يديها . وقال متلعثما من شدة دهشته :

ـ من اين جئت أيتها الفتاة ؟

ـ كنت هنا من قبل أن تكونوا

ـ هذا مستحيل ، ومن تكونين ؟

ـ انا الحياة

ـ وهذا مستحيل والحياة فى قبضتى ، وماذا تبغين ؟

ـ سمعتكم تطلبون السعادة فجئت اهديكم اليها

ـ وهذا ابعد من المستحيل ، فليس يعرف بيت السعادة والسبيل اليه الا انا . انا هو السبيل والهادى . انا هو المدخل والمخرج . وما تلك التى فى يدك ؟

ـ السعادة

ـ وهذا مستحيل المستحيل ، فالسعادة فى مدينتى العتيدة التى أباشر اليوم بناءها . أنت تمزحين ؟

ـ بل انا فى جد

ـ ان فى جدك لمزحا يستفز ضحكى ، لكن الكرة التى تقلبينها فى يديك جميلة ، فهل تبيعينها ؟

ـ السعادة لا تباع ولا تشرى

ـ هذا ضرب من الجنون . اذ ليس فى مملكتى ما ليس يباع ويشرى . واذا سلمنا بجنونك وقلنـا أن السعادة لا تباع ولا تشرى ، فكيف لمن يطلبها أن يحصل عليها ؟

ـ من قبلنى كما أنا نال الجوهرة التى فى يدى ، مجانا آخذ ومجانا أعطى

ـ يالك من داهية ! أفلا تفضلت اذن وعلمتنا كيف نقبلك لننـال السعادة من يدك ؟

ـ انزل عن عرشك ، وانزع نيرك عن أعناق الناس ، ودعهم يعطون مجانا ما يأخذونه مجانا

ـ يا لك من عاهرة وقحة ، لا تخجلين حتى من أن تقفى أمامى ولا كساء عليك غير جلدك . استروا عورة هذه العاهر . واسكبوا فى فمها رصاصا . وشدوا رجليها بالحديد . واطرحوها فى الدركة السابعة من دركات الجحيم ، وأتونى بالجوهرة من يديها الأثيمتين

فبادر الحراس الى الفتـاة وانتزعوا الجـوهرة من يدها وقدموها الى الجالس على العرش ، وما كادوا يسترون الفتاة برداء من أرديتهم حتى التفت الفاس الى الجوهرة فى يده واذا بها حجر أسود ، والى الفتاة فاذا بها حية رقطاء ، فصاح مقهقها :

ـ انها لمشعوذة كبيرة ، اسحقوا رأسها ثم دعونى منها ، وانصرفوا كل الى عمله ، واياكم أن تؤجلوا الى الغد ما يمكنكم فعله اليوم ، انطلقوا بسلام

وكان كما أمر الفلس ، فابتاع أعوانه جزيرة مانهاتان بثمن يوازى الأربعة والعشرين دولارا ، وراحوا يبنون نيويورك — مدينتهم العتيـــدة . وما يزالون حتى الســـاعة يحفـــرون ويؤسسون ، ويهدمون ويشيدون . وبين أنقاض ما يهدمون وجدران ما يشيدون ملايين من الناس يأتون ويروحون ، وهم عن السعادة يفتشون

فى خريف سنة ١٩١٢ لميلاد القائل « ملكوت الله فى قلوبكم » انزج بين تلك الملايين جبران خليل جبران

حفار القبور

قرية جرينتش Greenwich Village حي قديم من أحياء نيويورك السفلى ، استأثر به الفنانون من كل نوع ، فجعلوه شبه صورة مصغرة لمونمارتر فى باريس . هناك تجد الشاعر الملهم والشعرور . والموسيقى الذى تقطر أصابعه الحانا والمتموسق الذى لو عصرته لما نز منه نوطة واحدة جميلة . والراقصة التى فى روحها وجسمها السنة من نار ، والخشبة التى تريد أن تقلد الخيزرانة . والمصور الذى يعرف أسرار الظلال والانوار والخطوط والالوان ، والقرد البشرى الذى يلذ له اللعب بالادهان

لكنهم ــ الموهوبين منهم والمحرومين ــ تجمعهم خلة واحدة. فهم يرون أنفسهم من طينة أنقى وأرفع من بقية الناس . لأنهم ــ فى اعتقادهم ــ يخدمون الروح . أما سواهم فيخدم المادة . هم يعبدون الجمال . أما سواهم فيعبد الفلس . حتى انهم ليبتدعون لهم أزياء من اللباس تختلف ولو قليلا عن أزياء الناس . ويأتون فى الجهر أعمالا لا يأتيها سواهم الا فى السر . وكثيرا ما يباهون بمظاهر الفقر وقلة اكتراثهم للفلس وعباده. غير أنهم لا يبسم لهم الفلس ولو نصف بسمة حتى تقهقه له قلوبهم وعيونهم وترتقص أكبادهم وامعاؤهم . واذا ما اتيح لأحدهم أن يجلس الى مائدة غنى من الاغنياء ظل يحدث رفاقه عن ذلك أياما . وعندما يبتاع الفلس شيئا من نتاج «أرواحهم» تغتبط أرواحهم بالفلس وتسجد له وتمجده

فى ضواحى تلك « القرية » ، فى بناية قديمة من الآجر

الأحمر ، تحت رقم ٥١ من الشارع العاشر غربا ، اتخذ جبران له محترفا صغيرا جعله كذلك مسكنا . وفى تلك الفسحة الصغيرة من مدينة الفلس الكبيرة راح يرسم الخطط ويعد العدد لاستثمار ما فى كيانه من معادن دفينة . وكان نيتشه دليله الأول ، ومساعده الأكبر ، ومؤنس وحدته الاعظم ، ما رافقه فى جولة من جولاته الزرادشتية الا هتف من أعماق وجدانه :

اى رجل هذا الرجل ! نازل العالم وحده باسم مثل الانسان الاعلى ــ السوبرمان . ولم يخرج من المعركة حتى أخرجه العالم من عقله . لكنه مات سوبرمانا بين أقزام . ومجنونا حكيما بين عقلاء مجانين . هكذا فلتكن الرجال . وهكذا فليجن المجانين ! واى خيال خياله ! بوثبة واحدة ينفذ الى جوهر الحياة وبوثبة يجردها من كل اغشية الخير والشر التى حاكها لها ضعف الناس . فيحرق هذه الأغشية ويذرى رمادها فى أعين الذين حاكوها . هكذا فليكن الخيال ! وأى قلم قلمه ! بشطحة يخلق عالما جديدا وبشطحة يمحو عوالم قديمة . وهو فى كل ما يخلق ويمحو يقطر جمالا وعزما وسحرا . هكذا فلتكن الأقلام ! وأية ارادة ارادته ! أصلب من الصوان وامضى من الفولاذ . هى التى ابتدعت السوبرمان وهى التى اختطت السبيل اليه . وهى تقول : لا اله الا انا . انا الخالق والخليقة . وانا القضاء والقدر . انا المحجة والسبيل الى المحجة . وانا سامضى بالانسان الى أبعد من الانسان . وسأرفعه فوق خيره وشره . وسأحرره من كل دين ودينونة، وفضيلة ورذيلة ، وكل ما يمانده فى سيره الى ذاته الكبرى . ولاجل ذلك أحطم مقاييس الناس وموازينهم . فكلها أغلال فى عنق ارادته . واعطيهم ما هو فوق المقاييس والموازين ــ اعطيهم السوبرمان . من كانت له مثل هذه الارادة فليمش فى الارض غير حاسب حسابا لامر أو لانسان الا لنفسه . وليتنح

كل ضعيف من طريقه. أو فليكن له درجة فى المرقاة التى يصعد بها الى ذاته . وان لم يكن بد من انقراض الانسانية بأسرها ليولد سوبرمان واحد ، الا فلتنقرض الانسانية . هكذا فلتكن الارادة !

كلما فكر جبران فى نيتشه تخيله كالارض يضيق صدرها بما فيه من نيران فتفرج عنه ببركان • ويا لزرادشت (١) من بركان هائج يقذف البركات مع اللعنات ، والنقم مع النعم !

بل يا لخيال نيتشه يتغلغل فى تجاعيد الماضى السحيق حيث يعثر على زرادشت . فيفض عنه غبار ثمانين أو تسعين قرنا • ويتخذه بوقا له وبشيرا ونذيرا • لأنه يربأ بأسراره ان يبوح بها لسان غير لسان الوحى ، وباثماره أن تحملها الى الناس يدان غير يدى انسان اصطفاه الحق وجلله الجمال وجعله ميراثا لكل زمان ومكان

هاهو ذا ــ زرادشت نيتشه ــ فى الثلاثين من عمره، يترك بيته وبحيرته المحبوبة ويصعد الى الجبال حيث ينقطع عن العالم . وبعد عزلة عشر سنوات ينحدر الى الناس ليكشف لهم أسرار قلبه المفعم بالأسرار . ويخاطب الشمس فيقول لها فيما يقوله :

ــ الا لقد تعبت من حكمتى حتى السآمة ، فأنا كالنحلة المثقلة بكثير ما جنته من العسل ، وأنا بحاجة الى ايد ممدودة لتأخذه منى (٢)

ثم يلتقى بشيخ ناسك • فيعرفه الشيخ ويسأله عن غايته

---

(١) من المسلم به عند اكثر المؤرخين ان زرادشت رجل تاريخى وأنه مؤسس الديانة المجوسية . لكن الزمان الذى عاش فيه لايزال مجهولا . وفى رواية يونانية انه عاش قبل حرب طروادة بستة آلاف سنة

(٢) بعد سنين كتب جبران مقالا عربيا فى هذا المعنى تحت عنوان «نفسى مثقلة بأثمارها » ومطلعه : « نفسى مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجنى ويأكل ويشبع »

من الرجوع الى العالم — « عالم النيام » . فيجيبه بأنه يحب الناس وأنه يحمل اليهم هدايا ثمينة . فيحاول الشيخ أن يرده عن عزمه قائلا ان الناس لا يقدرون هدايا المتنسكين ، لذلك قد انصرف هو عن حبهم الى حب الله . لكن زرادشت لا ينثني

وعندما يدرك اول مدينة في طريقه يجد في ساحتها جمهورا من الناس قد تجمعوا ليتفرجوا على بهلوان سيرقص على حبل ، فيخطب فيهم هكذا :

— اني أعلمكم السوبرمان، الانسان يجب أن يفوق الانسان. ماذا فعلتم لتفوقوا الانسان ؟

« ما هو القرد فيعين الانسان ؟ انه لمخزاة ومسخرة . كذلك سيكون الانسان في عين السوبرمان ... مخزاة ومسخرة

« لقد تدرجتم من الدودة الى الانسان . غير أن الكثير فيكم ما يزال دودة . لقد كنتم قرودا ، وحتى الآن ما يزال الانسان قردا أكثر من أي قرد كان (١)

« حلفتكم يا اخوتي أن تبقوا مخلصين للأرض ، وان لا تصدقوا الذين يكلمونكم عنآمال فوق الأرض. انهم ينفثون فيكم سما ، عرفوا ذلك أم لم يعرفوا

« أولئك يحتقرون الحياة ، وهم أنفسهم جيف مسممة تعبت منها الأرض ، فانبذوهم ! »

---

(١) لجبران مقال بعنوان «أبناء الالهة واحفاد القرود » يقول في آخره :«... ماهي ارادتكم يا ابناء القرود ؟ هل سرتم خطوة واحدة الى الامام منذ انبثقتم من شقوق الارض ؟ .. منذ سبعين الف سنة مررت بكم فرايتكم تتقلبون كالحشرات في زوايا الكهوف. ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بللور نافذتي فوجدتكم تسيرون في الازقة القذرة وأبالسة الخمول تقودكم ، وقيود العبودية تتمسك باقدامكم ، واجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم فانتم اليوم كما كنتم بالامس ، وستظلون غدا وبعده مثلما رايتكم في البدء . كنا بالامس فاصبحنا اليوم وهذا ناموس الالهة بابناء الالهة فما هي سنة القرود بكم يا أبناء القرود ؟ »

غير أن الجماهير كانت تشتاق رؤية البهلوان اكثر من سماع زرادشت . فقابلت عظته بالضحك . وما بدأ البهلوان رقصته حتى تعلقت به أعين الحاضرين ناسية زرادشت وسوبرمانه . وعندما سقط البهلوان عن الحبل فتحطم تفرقوا كل فى سبيله وتركوه فى حالة النزع • فتقدم زرادشت وحمله على ظهره وسار به فى الليل الى ان بلغ غابة ، وهناك دفنه فى جوف شجرة ونام بجانبه « ليحرسه من الذئاب » . هكذا دفن زرادشت العالم ــ عالم الترهات والسفاسف . وعندما افاق فى الصبح أحس كأن نورا جديدا أشرق فى قلبه . وذاك النور هو أنه لن يخاطب فيما بعد الجماهير والأموات بل يتخذ له صحابة من المختارين . الحصاد قد نضج ، وهو بحاجة الى حصادين :

« رفاقا أطلب ــ رفاقا أحياء لا أمواتا ولا جثثا احملها حيث أشاء

« زرادشت المبدع يفتش عن رفاق يعرفون كيف يشحذون مناجلهم . هؤلاء سيدعون هدامين وسيسخرون بالخير والشر . لكنهم هم الحصادون والمتهللون

« المبدعين والحصادين والمتهللين هم وحدهم أعاشر . ولهم اكتشف قوس الغمام . واياهم أقود الى السلالم المؤدية الى السوبرمان

« للمتوحدين أنشد نشيدى ... والذى ما تزال له أذنان لسمع ما لم يسمع سأثقل قلبه بسعادتى »

هكذا راح زرادشت يكرز بالسوبرمان . وفى كل نبرة من نبراته منجنيق يهدم ويد تشيد . اذا تكلم حتى فى أبسط الأمور جعلها ذات قيمة وخالف الناس فيما يقولون ويعتقدون . مثال ذلك موعظة فى « القراءة والكتابة » :

« من كل ما يكتب لست احب الا ما يكتبه انسان بدمه . اكتب بالدم تجد أن الدم هو الروح

« ليس من السهل أن نفهم دما غريبا . وأنا أكره البطالين الذين يقرأون بقصد التسلية
« سماح الناس لكل من شاء منهم ان يتعلم القراءة سيقتل على التمادى ليس فن الكتابة فحسب ، بل وفن التفكير
« ان من يكتب بالدم والامثـــال لا يريد أن يقرأ . بل ان يحفظ على ظهر القلب
« اقرب الطرق فى الجبال هى من القمة الى القمة . لكن من شاء ان يسلك تلك الطريق عليه أن يكون ذا ساقين طويلتين . الأمثال يجب أن تكون قمما . والذين تقال لهم يجب أن يكونوا من العمالقة (١) »
وفى موعظته عن « الفضيلة التى تمسخ النـاس أقزاما » يتهكم زرادشت تهكما لداعا على كل أوضاع الناس ومقاييسهم ودياناتهم . فقد عاد اليهم بعد غيبة فى « الجزائر السعيدة » فوجدهم أصغر مما كانوا لشدة تعلقهم « بعقيدة الســعادة والفضيلة »

« امر فى وسط هذا الشعب فأنثر الكثير من الكلام . لكنهم لا يعرفون كيف يأخذون ولا كيف يحتفظون بما يأخذون ...
« وعندما أصيح فيهم : « الا العنوا كل ما فيكم من الأبالسة الجبنــاء الذين يستطيبون الهمهمــة ويضـــمون أيديهم على صدورهم للعبادة » ــ يصرخون : « زرادشت لا اله له »
« وأشدهم صراخا أولئك الذين يعلمونهم الاستسلام . من اجل ذلك يطيب لى أن أصرخ فى آذان هؤلاء : « اجل ! انا هو زرادشت الذى لا اله له »
« يا للذين يعلمون الناس الاستسلام ! حيثما عثروا على

(١) لجبران مقال عربى بعنـــوان « الجبابرة » كتبه نحو سنة ١٩١٧ ومستهله « ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب » اما ميله الى الامثال فظاهر فى كتابيه « المجنون » و« السابق » وفى كتاب « التائه » الذى ظهر بعـد موته

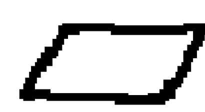
شيء هزيل سقيم ، جرب ، هناك زحفوا كالقمل وليس يردني عن سحقهم الا تقززي منهم

« ها هي ذي الموعظة التي أعددتها لآذانهم : انا هو زرادشت الذي لا اله له ، وانا هو القائل : « من ذا أكثر كفرا مني لأنعم بتعاليمه ؟ »

« أنا زرادشت الذي لا الـه لـه . فأين قريني ؟ وليس يقارنني الا الذين استردوا ارادتهم فتجردوا من الاستسلام

« أنا زرادشت لا اله له ! وأنا أطبخ في قدري كل قدر . ولا أقبله طعاما لي الا من بعد أن ينضج كل النضوج

« أنا سابق نفسي (١) بين هذا الشعب ... لكن ساعتهم ستأتي ... »



ما عرف جبران نيتشه حتى كاد ينسى كل من عرفهم قبله من كبار الكتاب والشعراء . وعلى قدر ما كان يطيب له ان يختلي به كان يلذ له في البدء أن يحدث غيره عنه وان يهدي أصحابه ومعارفه اليه . فما ان تعرف على أثر نزوله نيويورك الى فتاة امريكية اسمها أديل واطسن ، آنس فيها ميلا الى التصوير وشغفا بالفن ، حتى كتب يلح عليها أن تقرأ « هكذا تكلم زرادشت » :

« عزيزتي مس واطسن

« بلى • نيتشه جبار وأي جبار • وكلما طالعته زاد حبك له . لعله بين أرواح العصر الحديث أكثرها نشاطا وأوفرها حرية • وستبقى كتاباته بعد أن يمضي الكثير مما نحسبه اليوم عظيما.ارجوك ، أ ـ ر ـ جـ ـ و ـ ك أن تقرئي « هكذا

---

(٢) هذه العبارة يفتتح بها جبران كتابه « السابق» مع استبدال ضمير المخاطب بضمير المتكلم

تكلم زرادشت » حالما يتيسر لك ذلك . لأن هـذا الكتـاب فى نظرى من اعظم ما عرفته كل العصور
« تعالى لعندى قريبا ودعينا نتحدث عن نيتشه
خليل جبران »

وما استأنس جبران بزرادشت نيتشه حتى احس بوحدة اقسى من ذى قبل تـكتنفه اينما سار ، وبغربة تقصيه عن ماضيه الى حد أنه صار يخجل امام نفسه من كل ما كتبه وصوره حتى ذلك الحين . وعندما اقبل على روايته الجديدة « الاجنحة المتكسرة » لينقحها ويقدمها للطبع كاد يعـدل عن نشرها اذ خيل اليه أنه لو عرضها على نيتشـه لضـحك ذلك الجبار منه ومنها ولضربه على كتفه مثلما يضرب الكبير الصغير وقال له : « يا بنى ! دع الذين قلوبهم من عجين وادمغتهم من مخاط يتلهون بمثل هذه الترهات • أما أنت فعار عليـك أن يشقيك حب امرأة . واكثر عارا أن يسلبك قلبك مطران دون اقل مقاومة منك . واشد عارا من ذاك وهذا ان تندب حظك على مسمع من النـاس وأن تكثر من سـكب الدموع أمامهم والتبرم من قساوتهم ، وما قساوتهم الا ضعفك . وما دموعك الا ارادتك المائعـة . الدموع تليق بمآقى النسـاء . اما انت فدعك منها »

لكن جبران كان يشعر ان روايته زاحلة عن قلبه لأنه يحدث فيها عن حبه . ولأنه اودع سطورها اقصى ما توصل اليـه خياله من قوة التصوير بالكلام والتنغيم بالمقاطع . فضن بتلك الصور وهذه الأنغام أن تدفن فى مهدها . ومن ثم ففتوحاته العربية لما تبلغ بعد اقصى مداها . وروايته الجديدة ستكون فتحا جديدا . اذ لم ينسج بعد فى العربية على منوالها . فهى وان تكن صدفة فى نظر نيتشه ستكون جوهرة فى نظر العالم العربى . لكنها ستكون خاتمة عهد التفجع والشكوى . ومن

بعدها سيسترد ارادته وسيحبس دموعه ، وسيكون قلمه معولا للهدم وزاوية للبناء ـ هدم القديم المسترخي وبناء الجديد القوي . وستمشي ريشته جنبا الى جنب مع قلمه

ظهرت « الأجنحة المتكسرة » فاستقبلها العالم العربي ، الذي لا يبصر اللابس ويبصر اللباس ، استقبال حدث خطير . وقد بهرته منها حلة فضفاضة ، وشكوى دامعة ، وملامس ناعمة ، وألحان رقراقة

اغتبط عجب جبران بهذا الاستقبال ، أما قلبه فكان يقول: « ويحى بين شعب يصفق لقشوري ، أما لبى فليس يدركه . من لي بروح واحدة تفهم أشواق روحى ، وتعرف عقباتها ، وترود العوالم التى ترودها ؟ من لى بواحد من شعبى أحدثه عن نيتشه ، وعن الفن ، فيفهم ما أنا قائل وما أنا فاعل ؟ أواه! ليس ولا واحد . غريبا كنت بينهم وغريبا سأبقى . وسأموت غريبا حتى عن نفسى »

بعد ظهور « الاجنحة المتكسرة » بقليل طلب نسيب عريضه الى جبران جمع مقالات « دمعة وابتسامة » فى كتاب فأجابه جبران ببيت من احدى موشحاته :

« ذاك عهد من حياتي قد مضى بين تشبيب وشكوى ونواح »

ثم أردف البيت بقوله : « ان الشاب الذى كتب « دمعة وابتسامة » قد مات ودفن فى وادى الأحلام . فلماذا تريدون نبش قبره ؟ افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت فى جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال . ويميل الى الهدم ميله الى البناء . فهو صديق الناس وعدوهم فى وقت واحد »

وهذا الرجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ، ويميل الى الهدم ميله الى البناء ، أصبح بعد أن عرف نيتشه لا يلذ له الا التهكم على الناس ، والعبث بأوضاعهم ، والتشفى بأوجاعهم ، والتنكيل بآلهتهم ، وحفر القبور لهم . والذى كان

يخاطب البؤساء هكذا :

« لا تقنطوا . فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة ، من وراء الغيوم ، من وراء الأثير ، من وراء كل شيء — قوة هى كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة » أصبح يخاطبهم والرفش فى يده ، واللحد أقصى ما يمنيهم به، وأصبح لا يعرف لنفسه ربا غير نفسه ، ولا يبصر فى الشفقة غير الضعف ، وفى الضعف غير الموت . ولا يحسب أحدا من الناس أهلا للحياة الا من كان على شاكلته

افتتح جبران « عهده الجديد » بمقال « حفار القبور » . ولو انه وضع فى آخر ذلك المقال قرار نيتشه الشهير « هكذا تكلم زرادشت » لما كان نيتشه يخجل من أن يجعله فصلا من فصول كتابه وثورة من ثورات بركانه . فهو فى كل صوره الزرادشية قلما جاء بصورة أشد هولا ، وأمر لونا ، وأصدق لهجة فى تأدية أفكاره من التى جاء بها جبران فى ذلك الشبح الهائل الذى التقاه « فى وادى ظل الحياة المرصوف بالعظام والجماجم » . وما الشبح ذلك الا جبران « المتقمص فى جسد يحب العزم والقوة » يهزأ بجبران التشبيب والشكوى والنواح وينصح له أن يترك مهنة نظم الشعر ونثره لأنها لا تنفع الناس ولا تضرهم ، وأن يتخذ حفر القبور مهنة فيريح الأحياء « من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم» لأن الناس « أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم »

« يعرف الشبح من محدثه أن اسمه عبد الله ، وانه يحب اسمه لأن والده أعطاه اياه ، فيقول له :

« ان بلية الأبناء فى هبات الآباء . ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات »

ثم يعرف الشبح أن لمحدثه امرأة وثلاثة أولاد فينصح له أن يطلق زوجته لأن الزواج « عبودية الانسان لقوة الاستمرار » وأن يعلم أولاده حفر القبور فيعطى كل واحد منهم رفشا ثم يتركهم وشأنهم . وان لم يكن له بد من الزواج فليقترن بصبية من بنات الجن . فمن مثل هذا الزواج يأتى « نفع بطىء ينتج عنه انقراض المخاليق الأموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولا يسيرون معها »

وعندما يعرف الشبح أن محدثه يؤمن بالله ويكرم أنبياءه ويحب الفضيلة وله رجاء بالآخرة يقول له ساخرا :

« هذه ألفاظ رتبتها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها باسماء مختلفة باختلاف ميوله وأمانيه — فتارة يدعوها البعل ، وطورا المشترى ، وأخرى الله »

أما فى ذاته فيقول الشبح انه رب نفسه وانه فى كل زمان ومكان ، واسمه الاله المجنون ، وانه ليس حكيما لأن الحكمة « صفة من صفات البشر الضعفاء » . ثم يودع محدثه بقوله: « الى اللقاء . فأنا ذاهب الى حيث تلتئم الغيلان والجبابرة »

ويختم جبران مقاله هكذا :

« وفى اليوم التالى طلقت امراتى وتزوجت صبية من بنات الجن . ثم أعطيت كل واحد من اولادى رفشا ومحفرا وقلت لهم : « اذهبوا . وكلما رأيتم ميتا واروه فى التراب »

« ومن تلك الساعة الى الآن وانا أحفر القبور والحد الأموات . غير أن الأموات كثيرون وانا وحدى وليس من يسعفنى ! »

وكيف لا يكون وحده من يرى أكثر الناس ، بل كلهم أمواتا ولا يرى حيا الا نفسه ؟ أم كيف لا يكون وحده من يلحد الناس لينصب لذاته تمثالا فوق قبورهم ؟

لقد سكر جبران بزرادشت . وسكر أكثر من ذلك بما ناله

من شهرة فى العالم العربي . ورأى نفسه كالواقف على منبر ، ورأى الصحافة العــربية كالأبواق تؤدى صوته الى كل قطر ومهجر عــربى . وراح يكلم قومه « كمن له سلطان » . فلا يستنكف من أن يدعوهم « أضراسا مســوسة » ولا من أن يخاطبهم هكذا :

« كنت أشفق على ضعفكم يا بنى امى . والشــفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدى الحياة شيئا . واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازا وتنقبض ازدراء

« ماذا تطلبون منى يا بنى أمى ــ بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من ابنائها ؟

« انا أكرهكم يا بنى أمى لأنكم تكرهون المجد والعظمة

« انا احتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم

« انا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون »

بل انه صار يخجل من أن يكون مسقط رأسه بلدة صغيرة كبشرى فى بلد صــغير كلبنــان . ويحسب أن من كان مثله يجب أن تكون ولادته ملتحفة بلحاف من السر والسحــر . وأى البلاد أكثر سحرا وسرا من بلاد الهند ؟ لذلك عنــدما طلب اليه مــرة نسيب عريضــه بعض معلومات عن حياته لينشرها فى مجلة « الفنون » قال له انه ولد فى بومباى الهند ــ انمــا لا يهمه أن يشــيع « السر » بين الناس . ولا بأس لو وضعه نسيب عريضه بين هلالين (وهى أكفل طريقة لشيوعه)

وهكذا كان . فقــد ظهرت تلك المعلومات فى « الفنون » وهى تقول ان جبران « ولد سنة ١٨٨٣ فى بشرى من أعمال لبنان (ويقال بل فى بومباى الهند) » الخ . وقد نقل هذه المعلومات بحــذافيرها ناشر « البدائع والطرائف » فى مطلع الكتاب . وجاء فيها ، علاوة على ذلك : « ان جبران حــاز شهادة الامتياز فى كلية الفنون الافرنسية ... وسمى عضوا فى جمعية الفنون الافرنسية . ونال عضوية الشرف فى جمعية

المصورين الانكليزية » والمرجح أن جبران لم ينل شيئا من كل ذلك بل كان يشتهي لو يناله . لأن هذا الناقم على الناس ، والمتقزز من صغارتهم واستعبادهم لتقاليدهم ، كان أشدهم تعلقا بتلك التقاليد ، اللهم اذا ناله منها مجد وفخر وعظمة . وما نقم على النـــاس الا لأنهم لم يمجـــدوه على قدر ما كان يحسب نفسه أهلا لتمجيـــدهم . وما فاضت مرارته على ترهاتهم الا لأنهم لم يترعوا قلبه بحلاوة ترهاتهم . فما أبعد الفرق بين مرارته ومرارة نيتشه !



وقد يجمع الله الشتيتين

من الرفاق الذين جمعتنى بهم دار المعلمين الروسية فى الناصرة نسيب عريضه وعبد المسيح حداد . وكلاهما من حمص . رافقت الاول ثلاث سنوات متوالية والثانى سنة واحدة . ثم سافرت الى روسيا فى سنة ١٩٠٦ ولم أعد أعرف عنهما شيئا سوى انهما هاجرا الى الولايات المتحدة واستوطنا نيويورك

وفى أواخر سنة ١٩١١ كانت نيويورك مدخلى الى العالم الجديد مكثت فيها يومين بطريقي الى ولاية واشنطن على شواطىء الباسيفيكى . وقد يكون أنى مررت بعريضة والحداد فلم اعرفهما ولم يعرفانى . وقد يكون أن كتفى لامست كتف جبران خليل جبران بين الجماهير فى الشوارع فلا أبه لى ولا أبهت له . اذ أننى لم اكن قد سمعت حتى باسمه ولا كان هو يعرف أن على سطح الأرض بشريا يدعى ميخائيل نعيمة

وفى خريف سنة ١٩١٢ دخلت جامعة واشنطن وانصرفت الى دروسى وبينى وبين العالم العربى قارات وغمار . وبينى وبين آدابه وأدبائه سدود أقامها نفورى من جمود ابناء العربية فى ذلك الزمان ، وتعلقهم بقشور الأدب دون لبابه ، وتهافتهم على الاصداف اللغوية ، وتسابقهم فى تقليد القدماء ، وتعاميهم عن العوالم الشاسعة المنطوية فيهم

وذات يوم من أيام تلك السنة وقع فى يدى « مصادفة » عدد من أعداد جريدة عربية نيويوركية وفيه مقال طويل عن « الأجنحة المتكسرة » . والمقال ، مثل كل نقدنا فى تلك الايام ، لا يقول شيئا عن الكتاب وكاتبه بل يحاول أن يكون « تقريظا »

لو صدقته لقلت ان جبران خليل جبران هو فلتة كل الزمان . لكننى لم أصدقه لأن كل كلمة منه تكذب التى قبلها لشدة ما فيه من الغلو فى الاطراء الفارغ . فطرحته من يدى وقلت ان أصحابنا ما يزالون يضربون بذات المطرقة على ذات السندان. ما لى ولهم ؟

وبعد شهور جاءنى البريد « بمصادفة » ثانية فى شكل كتاب ما مزقت عنه غلافه الخارجى حتى وجدته عددا من مجلة عربية جديدة تصدر فى نيويورك. وما ألقيت عليه نظرة سطحية حتى كدت أكذب عينى : يلامسك الذوق السليم فى جمال حلته البسيطة ، وفى جودة ورقه ، وحسن حروفه ، ونظافة طبعه ، وتنسيق مواده وتشكيلها . وقد انطوى على صور فنية وشعر لا اثر فيه لعقيم الغزل والرثاء وكاذب المديح ، ونثر لا يقتلك ببلادته وبلادة موضوعاته ، ومنتخبات مترجمة لعدد من أعلام كتاب الفرنجة . واسم المجلة « الفنون » وصاحبها ورئيس تحريرها نسيب عريضه !

وعلى الأثر جاءتنى الظروف « بمصادفة » ثالثة فى شكل نسخة من «الاجنحة المتكسرة » قدمها الى مهاجر سورى كان قد ابتاعها على ذمة صاحب المقال الذى ذكرته سابقا . وكان يحسبها من نوع روكامبول أو الأميرة فوستا فوجدها « خيالا فى خيال » ، ويظهر أنه قدمها لى ليجعلنى شريكا له فى خيبة فأله

قرأت الرواية فاستفزتنى لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » وأرسلت به الى « الفنون » ، وهو أول مقال نقدى حبرته فكان فاتحة حياتى الأدبية . وقد نددت فيه تنديدا مرا بجمود اللغة العربية فى خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة فى داخلهم ومن حولهم الى الشعوذات اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت . أما الرواية فبعد ان بينت كل ما فيها من نقص فنى من حيث

تحليل العوامل النفسية وتصوير الأشخاص وتنسيق الحوادث وتطبيقها على الحياة . وجدت فى جمال اسلوبها فجر عصر أدبى جديد . ورأيت فى مؤلفها الذى أدرك سر الالوان والانغام،فى الكلام ، وسر التاليف بين تلك الالوان والانغام ، نسرا فتيا مهيض الجناح . غير أن كسره سيجبر . وجناحيه سيشتدان . وسيسبلهما ويحلق عاليا فى جونا الأدبى



ماوصل المقال الى نيويورك حتى قرأه نسيب عريضه لبعض الأدباء هناك ــ ومنهم جبران . ثم كتب الى يخبرنى عن وقعه منهم وكيف أن جبران هتف عند نهايته : « من هو ميخائيل نعيمة هذا ؟ وأين كان مختبئا حتى اليوم ؟ » وراح يستخبر نسيب عريضه كل ما يعرفه عنى

واشتعلت نار الحرب وحلت « بالفنون » أزمات أوقفتها عن الصدور . وكانت خاتمة بركاتها أن اصدرت كتاب « دمعة وابتسامة » فى حلة هى غاية فى الجمال لأنها غاية فى البساطة . وذكرتنى بنسخة منه . ثم عادت فظهرت فى سنة ١٩١٦ ورئاسة تحريرها فى يد نسيب عريضة وادارتها فى يد أحد أصحابه . والشريكان أخذا يكاتبانى ويلحان على بالمجىء الى نيويورك للاشتراك معهما فى العمل . وكنت قد انهيت دروسى فى الجامعة فادرت وجهى الى الشرق . وفى خريف تلك السنة كنت واحدا من الملايين التى كتب لها ان تفتش عن ابرة السعادة فى جبال القير والاسفلت والحجر والحديد المعروفة باسم نيويورك . ومع أنى لم أنضم الى ادارة «الفنون» اذ وجدت نفقاتها تفوق دخلها ، بقيت فى نيويورك

بعد ظهر النهار الذى وصلت فيه كنت فى ادارة « الفنون » واذا بشاب يدخل ، لطيف الملامح ، دون الربع من القامة ، عليه بذلة رمادية وبرنيطة من الجوخ الأسود ، مستديرة « السقف » مسطحته ، وفى يده عصا كروية الرأس معشقة

فى أعلاها بأسلاك فضية نحيفة . وما أن وقع نظرى عليه حتى قلت : هذا جبران ! ولم أكن أبصرت له صورة من قبل . وما ان رآنى حتى تقدم منى وقال : هذا ميخائيل نعيمة ! فتصافحنا وتصادرنا كما لو كنا أخوين شتتهما البين ثم عادت الأقدار فجمعتهما



بعد يومين أو ثلاثة ذهبت ونسيب عريضه وعبد المسيح حداد لتمضية السهرة عند جبران بدعوة منه . وكنت فى شوق الى التفرج على محترفه الذى كان معروفا عند المقربين منه باسم « الصومعة » . والصومعة هذه قائمة فى الطبقة الثالثة ـ والأخيرة ـ من بناية قديمة شعرت عندما دخلتها كأنى داخل ديرا . فقد قادنى رفيقاى فى ممرات كالسراديب ينيرها مصباح ضئيل من الغاز فيطرح على جدرانها المظلمة أخيلة تكاد تستوقفك وتسألك عن غرضك منها وتبكتك لأنك أقلقت سكينتها . ثم صعدنا سلالم خشبية تدور دورات لولبية . وتئن تحت أرجلنا حتى نكاد نخجل من أناتها . وأخيرا وقفنا الى اليسار من رأس السلم ، أمام باب خشبى قاتم اللون ، فى وسطه حلقة من الحديد ما طرقنا بها عليه حتى انفتح وبان من ورائه جبران فى «جبة» التصوير وهى من الكتان البنى اللون وأشبه بقميص واسع يلبس من فوق الرأس ويصل حتى الركبتين، منها بالجبة . وعلى وسطها منطقة محبوكة كالحبل

جلست على ديوان (كانابى) قديم وجلس رفيقاى على كرسيين قديمين لم يكن فى الصومعة كراس غيرهما . وجلس جبران على دكة التصوير الخشبية وهى نحو متر مربع بعلو شبر أو أقل . وأمامنا ، فى الحائط الشرقى ، شبه موقد افرنجى وفى قلبه وجاق حديدى صغير للتدفئة بالحطب أو بالفحم الحجرى . وقد قام هذا الوجاق من الموقد مقام المدخنة . وفوق رف الموقد قنديل من الغاز كان نورنا الأوحد فى تلك الليلة



الأربعة سنة ١٩٢٠

من اليمين الى اليسار . المؤلف . عبد المسيح حداد . جبران . نسيب عريضة

اخذت اتأمل الصومعة وما فيها : طولها نحو الثمانية امتار . وعرضها نحو الستة . الى اليسار من الموقد سرير واطىء صغير من الحديد بغير قوائم ناتئة عند راسه وقدميه ، وعليه لحاف من صوف ووسادات مختلفة الأشكال والالوان . هو سرير جبران . وبجانبه خزانة صغيرة عليها كتب وأوراق . والى اليمين من الموقد منصب التصوير ووراءه منضدة عليها كتب وأوراق . والى يمين المقعـد حيث أنا طاولة خشبية مستديرة عليها كذلك كتب وأوراق ودفاتر ومحابر وأقلام . وبالقرب منها محافظ متفاوتة الحجم من الكرتون الاســـود . هى محافظ الصور

فى الحائط الشمالى شبابيك ثلاثة عالية عليها ستائر سود . ومثلها فى الحائط القبلى . وعند متوسط الحائط الشمالى رفوف قد اصطف عليها نحو المائتين من مختلف الكتب . وفى الجهة الشمالية من السقف العالى نوافذ من زجاج عليهـا ستائر سود تزاح عند الحاجة لادخال النور . وعلى الحائط الغربى الاصم قطعة كبيرة من نسيج قديم العهد تمثل يسوع المصلوب . وفى زاوية ذلك الحائط الشمالية باب يؤدى الى مخدع ضيق ، فى الجهة الواحدة منه حنفية ماء ومغسلة وبضعة صحون وملاعق وقنان وطاسات خشبية ولوازم القهوة ووجاق صغير للطبخ على الغاز . وفى جهته الاخرى مستودع لثياب جبران وفوقه رف تجمعت عليه جرائد ومجلات قديمة وأشياء كثيرة سواها علاها الغبار وعشش فيها الفار



تلك هى « الصومعة » . وهى صومعة كانت تحدثنى عن فقر ساكنها وجده أكثر من حديثها عن تقشفه وتعبده . وعن العواطف اللاعبة بعواطفه وأفكاره أكثر منها عن طمأنينته فى جده وارتياحه الى فقره

كان جبران فى تلك الليلة عنــوان اللطف والانس وحسن

الضيافة . فقد أعد لنا قهوة عربية وقدمها فى طاسات حمراء من الخشب الصينى مع الـكثير من السيجارات والقليـل من التفاح . وكان لا ينتهى بنا الحديث الى محط حتى يبدأ بحديث آخر . فكنا أربعة وكأننا واحد . نمرح حينا فى مروج الأدب ، ثم نعرج على مستنقعاته . وحينا يسوقنا الحديث الى نكتة فنضحك ، أو الى فاجعة فنجهم . وعندما جئنا على ذكر الأدب الروسى أدهشنى جبران بقوله انه من المعجبين به . لا سيما بتورجينيف ، وتولستوى ، ودستويفسكى • وبالاخير بنوع خاص ، مع أن روحه تناقض روح نيتشة على خط مستقيم . غير أني اشتممت من كلامه الاجمالى عن هؤلاء الكتبة المشاهير أنه قرأ عنهم ولم يقرأهم . ولعله أحب أن يجاملني فيجارينى فى اعجابى بدستويفسكى عندما رآنى أضعه فوق كل كتاب الزمان الأخير بدون استثناء

ما كنت أدرى ساعة خرجت من تلك الصومعة بعد نصف الليل أننى فى خلال خمس عشرة سنة سأعود فأدخلها مرارا تضيق الذاكرة عن احصائها ، وأنني سأشهد فيها ولادة أكثر ما تمخضت به روح ساكنها الخصبة منذ تلك الليلة حتى ليلة ختمت الاقدار على رحمها • وأنني سأحيا لأذكرها كما يذكر المسافر فى البحر جزيرة وجد الأمن في مينائهـا برهـة من الزمن ثم ودعها وعاد الى البحر •ولاكنت أدرى أن آلام ساكنها وأفراحـه سـترسب فى أعماقى فتمتزج برواسب أفـراحى وآلامى

فى الكهوف المظلمة

فى تلك الاثناء كتب جبران مقالا بعنوان « المليك السجين» يخاطب فيه أسدا رآه فى حديقة الحيوانات فيصف له نيويورك وأهلها هكذا :

« انظر أيها المليك الجبار الى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن ... انظر فهذا كالخنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل . وهذا كالجاموس خشونة أما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشى على الاثنتين . وذلك كالغراب شؤما ولكنه يبيع نعيبه فى الهياكل . وتلك كالطاووس تيها واعجابا أماريشها فمستعار

« وانظر أيها السلطان المهيب الى تلك القصور والمعاهد ، فهى أوكار ضيقة يسكنها الانسان مفاخراً بزخارف سقوفها التى تحجبه عن النجوم ، مغتبطا بصلابة جدرانها التى تفصله عن أشعة الشمس . هى كهوف مظلمة تذبل فى ظلالها أزاهر الشباب . وتترمد فى زواياها جمرة الحب . وتتحول فى فضائها رسوم الاحلام الى أعمدة من دخان . هى سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع . وينتصب فيها تخت العروس بقرب نعش الميت

« وانظر أيها الامير الجليل الى تلك الشوارع المنفرجة والأزقة الضيقة ، فهى أودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها وتختبىء الخوارج فى جنباتها . هى ساحة قتال مستتب بين الرغائب والرغائب ، تتنازل فيها الارواح متضاربة ولكن بغير السيوف ، وتتصارع متناهشة ولكن بغير الانياب .

بل هى غابة الاهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر ، معطرة الاذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضى شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل ولا تؤول تقاليــــدها الى الافضل والاقوى بل الى الاخبث والاكذب . أما ملوكها فليست أســدا نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقر النسور وبراثن الضبع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع»

لكن قائل هذا القول كان يشتغل النهار والليل ، ويشتغل كالمحموم ، بقلمه وريشته ولسانه ليسترعي انتباه أولئــك «المخاليق العجيبة » ، ولتسمع تلك « الاودية الخطرة المعابر » وقع قدميه اذا مشى فيهـا ، ولتنفتح فى وجهــه أبواب تلك « الأوكار » اذا ما طرقها . وكان لا يتوصل الى معرفة رجل أو امرأة أو عائلة على أسمائهم شيء من اللمعان الادبى أوالفنى أو المادى أو السياسى أو الاجتماعى الا أخبرنى عن ذلك بلسان من لا يكترث لمثل ذلك اللمعان · ولكن بقلب من يكبر فى عين نفسه اذا ما تقرب من الذين يراهم العالم كبارا · وكأنه كان يخشى من أن أعيب عليه التناقض بين نفوره من تقاليد الناس ومفاخرته بها · فكان يطرح على كل علاقاته ستارا من السر وجلبابا من الفن والادب · كأن يقول لى مثــلا : «.البارحــة كنت مدعوا الى الشاى عند مسز كورين روبنسن » ثم يضيف بفخر ظاهر : « هى أخت ثيودور روزفلت » ويعقب ذلك بقوله: « وهى شاعرة تعجبك يا ميشا » . أو أن يخبرنى عن سهرة عند مستر فلان « وهو مدير البنــك الفـلانى ، وله ذوق فى التصوير جميل » أو عن زيارة لبيت فلان « وهــو من أخص أصدقاء رئيس الجهورية · وهو وزوجتــه من أقــدم العائلات الأمريكية وأوفرها ثروة وثقافة »

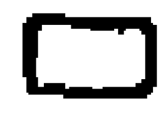
هكذا كان جبران يصفع الناس بيد ويصافحهم بالاخرى · يثور عليهم عندما يثوب الى روحه المتألم من كل شناعة وقساوة وظلم . ويسالمهم عندما تثور عليه نفسه الطماحة الى « المجد

والعظمة » والمتوجعة من قبضة الفاقة الماسكة بخناقها . يحفر لهم قبورا فى الليل • وفى النهار ، عندما تلحدهم الاقدار فى قبور غير التى حفرها لهم ، يهتف بقلب دامع : « مات أهلى وأنا على قيد الحياة أندب أهلى فى وحدتي وانفرادى »

وهكذا انقسمت نفسه على نفسه ، وانساق جبران المتعطش الى التفاتهم وعطفهم ومالهم ومجدهم وعظمتهم . فدرج فى كهوف نيويورك المظلمة • وكلما انفتح فى وجهه باب أدى به الى آخر ـ من حلقات فنية ، الى حلقات أدبية، الى رجال ونساء ذوى « سلطان » ـ لكلمتهم وزن ، ولصوتهم مدى ، ولعطفهم قيمة ، ولدعايتهم أثر بعيد • وأخذ يصور بعضهم بقلمه الرصاص بأثمان كانت تتراوح ، حسب قوله لى ، بين الخمسين والمائتى دولار عن الصورة • ويبيع من بعضهم شيئا آخر من نتاج ريشته • فكان يراه مضطرا لمالأتهم ومجاملتهم • اذا دعى الى شاى أو عشاء أو سهرة لا يرفض وان كان يعلم أن ربة البيت ليست من الفن أو الادب على شيء ، وان كل قصدها من دعوته أن تنوع مدعويها فيكون بينهم شاعر وفنان «شرقى» فى كلامه مضغة غير مألوفة وعليه مسحة غريبة • وذاك أقل ما يدفعه طالب الشهرة من ثمن شهرته فى مدينة بابلية كنيويورك وفى بلاد متسعرة الشهوات كأمريكا

الا أن جبران لم يكن قانعا بفتوحاته الفنية البطيئة • وهو يعلم أن فى روحه توأمين ـ الفنان والشاعر • وقد حمل الى الامريكيين فنه دون شعره ، والى أبناء لغته شعره دون فنه • فلا العرب يفهمون شيئا من فنه ، لأنهم لا يفهمون الفن التصويرى • ولا الامريكان يعرفون شيئا عن شعره ، لأنهم لا يعرفون العربية • فعليه ، ان هو شاء الجمع بين الاثنين ، أن يكتب بالانكليزية • تلك هى أمنيته من زمان ، وأمنية مارى والكثيرين من أصدقائه الامريكيين . ومن ثم فالعالم الانكليزى عالم ثقافة ، وعالم شاسع وغنى أين منه العالم العربى الصغير ،

الفقير ؟ والآن ، وقد تحلحلت عن خناقه قبضة العازة بما يدخله من نتاج ريشته ، علاوة على الخمسة والسبعين دولارا من ماري في كل شهر ، فلا شيء يعيقه عن الكتابة بالانكليزية الا الخوف من الخيبة ان هو عرض كتاباته فلم تلق ناشراً ولا « سوقا »



ذات يوم ، فی أوائل سنة ١٩١٨ ، دخلت على جبران فاستقبلنی بوجه لحظت فيه من البشر أكثر من المعتاد . وما أن تبادلنا السلام حتى قدم الى عددا هو الاول من مجلة انكليزية باسم « الفنون السبعة » . نظرت فی حلته فاذا بها جميلة ، وفی أسماء مديری المجلة ، فاذا جبران خليل جبران واحد منهم . تصفحته فاذا فيه أمثال وقصيدة منثورة بقلم جبران

لم أسأل جبران من أين جاء بالمال ليكون شريكا فی مجلة كتلك المجلة ، ولكننی أبديت له اعجابی بأسلوبه الانكليزی ، فقد وجدت فيه طلاوة ومرونة واتساقا أكثر مما فی أسلوبه العربی . وقلت له : « يا شيطان . لماذا خبأت عني هذه الجواهر حتى الآن ؟ اذا كان عندك بعد من هذه البضاعة فابرزه فی الحال »

فأخذ يقرأ لی أمثالا وقصائد دخلت كلها فيما بعد فی كتابه « المجنون » ، ومنها قصيدته المنثورة فی « الليل والمجنون » وقصيدته فی « الله » ، وهذه الاخيرة ، عندما بلغ ختامها حيث يقول لله : « أنا جذورك فی الارض وأنت زهرتی فی السماء . ومعا ننمو أمام وجه الشمس » سألته :

ــ وما هو هذا الاله الذی تنمو واياه أمام وجه الشمس ؟ أوينمو الله ، وكل ما ينمو يشيخ وينحل ؟ وكيف ينمو أمام وجه الشمس ؟ ألعل الشمس أقدم منه وأثبت ؟ أم أنت تعنی أن ادراكك الله ينمو بنموك ؟

فأجابنی أن له رأيا « خاصا » فی الله سيشرحه لی فی وقت آخر . لكن ذلك الوقت لم يأت . لأن جبران عاد فوجد الها

لا ينمو ولا يشيخ ولا يزيد ولا ينقص • ولا يتغير ولا يتحول

لم يكتب لمجلة « الفنون السبعة » أن تعيش الاشهورا قليلة كان منها أنها شجعت جبران على الكتابة بالانكليزية وأعطته نماذج يعرضها من شعره فى الاندية الادبية ومكنته من الاتصال بجمعية الشعر النيويوركية التى أتاحت له أن يلقى فى اجتماع من اجتماعاتها شيئا من نتاج قلمه • فألقى قصيدته « الليل والمجنون » • وعاد من الاجتماع ومراجله تغلى ومرارته تكاد تنفجر لان الحضور استقبلوه واستقبلوها ببرودة فى قلبها تصغير ازدراء وهمس سخرية

وماذا فعل جبران ؟ لم يجزع ، ولم يقنط ، ولم يلجأ لتفريج كربته الا الى مفرج كل كربه ومذيع كل أفراحه ـ الى قلمه • فكتب قصيدته الانكليزية « الانكسار » وفيها قلب خيبته خيبة لأعدائه ، انكساره فوزا لارادته واندحارا لهم :

« ••• انكسارى ، يا انكسارى ، يا سيفى البراق ودرعى الصقيل • لقد قرأت فى عينيك أن الجلوس على عروش الناس استعباد للناس • والوصول الى مداركهم انحطاط الى مستواهم ••• أنا وأنت سنضحك مع العاصفة •••وسنقف أمام الشمس بارادة لا تقهر • فحذار منا حذار ! »

هى حقنة من المورفين سكن بها جبران أوجاع كبريائه الجريح ، وأنين قلبه المتعطش الى « المجد والعظمة » ، ولجاجة فكره الثائر على الناس لغير ما سبب الا لأنهم على صورته ومثاله • ولو أنه كان يعتقد ما يقول ، ويفعل ما يعتقد ، لاعتزل الناس كل الاعتزال ولكف عن مخاطبتهم ان بالكلام أو بالرسوم • اذ ما نفعه من مخاطبتهم وهو لا يريد أن يكون مفهوما منهم خشية من أن ينحط الى مستواهم ـ اذا فهموه اغتاظ من نفسه ، وان لم يفهموه اغتاظ منهم ؟ أو ليس الكلام فى مثل هذه الحالة فضولا فى فضول والتصوير ضربا من الجنون ؟ أولم يكتب هو بقلمه مقالا فى « الكلام وطوائف

المتكلمين » ؟ أولم يقل في ذلك المقال :

« لقد مللت الكلام والمتكلمين

« لقد تعبت روحي من الكلام والمتكلمين

« لقد ضاعت فكرتي بين الكلام والمتكلمين



« والآن وقد أبنت بعض اشمئزازي من الكلام والمتكلمين أراني كالطبيب المعتل ، أو كمجرم يقف واعظا بين المجرمين . فقد هجوت الكلام بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين . فهل يغفر الله ذنبي قبيل أن يرحمني وينقلني الى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث لا كلام ولا متكلمين ؟ »

فما باله يقرع آذان الناس من حين الى حين ليعطيهم دستورا للحياة قبل أن يجعله دستورا لحياته ؟ وما بال الطبيب لا يطبب نفسه ؟

الا ان جبران ، وان شبه نفسه ـ على الورق ـ بمجرم يعظ مجرمين وبعليل يطبب معتلين ، لم يكن في الواقع يرى في نفسه علة أو اثما . بل كان يرى كل العلة وكل الاثم في الناس . ولولا ذلك لما كتب مقاله الانكليزي « العالم الكامل » فتهكم فيه على عالم الناس تهكما كله مرارة من حيث مقصده ، وكله جمال من حيث أسلوبه ، وكله حق من حيث معناه ، ثم هتف في آخره :

« ولكن لماذا أنا هنا يا اله الارواح الضائعة ، أيها الضائع بين الآلهة ؟ »

ومعنى هذا الهتاف : « ما شأني أنا الكامل في عالم كله نقصان ؟ »

وهو هتاف لا أقدر أن رئيس أجناد الملائكة يفوه بمثله اذا هو زج يوما بين الابالسة !

لقد خيل الى جبران أنه يحارب عدوا اسمه العالم . ولو أنه تمكن في ذلك الوقت ، مثلما تمكن فيما بعد ، أن

يخرج من نطاق نفســـه الضيقة ويشـــهد المعـركة عن كثب لأبصر أنهـــا تدور بين ضـــدين اسم كليهما جبران خليل جبران ـ جبران فى الصـــومعة وجبران فى العـــــالم .

فجبران فى الصومعة كان اذا ما فكر بأمجاد الناس وجـدها حقارة . وبغناهم وجده فقرا . وبفضائلهم وجدها عبودية . وبملذاتهم وجدها أعشاش ألم وشناعة . فكان يمتشق سيف النقمة فوق رؤوسهم . وجبران فى العالم كان يشتهى أمجاد الناس وغناهم وفضائلهم وملذاتهم . فكان يأتيهم حاملا قصعة المستعطى . ولأن الناقم لا يستعطى والمستعطى لاينقم نشبت بين جبران الصومعة وجبران العالم حرب عوان تتدفق عليك مرارتها من خلال سطور جبران الشاعر . وتطالعك أوجاعهـا من بين خطوط جبران الفنان

ومن ثم فلو أن جبران وقف في ذلك الزمان أمام المـــرآة وتفحص نفسه لوجد أن الجبة التى اسـتعارها من نيتشة لم تكن « تليق » له . لأنها لم تفصل لكتفين ككتفيه ولا لقـامة كقامته . فلا مزاج نيتشه مزاجه ، ولا ارادة نيتشه ارادته . أما القرابة التى وجدها بينه وبين نيتشـــه فلم تكن تتعـدى الخيال والقالب الذى يتخذه الخيال جسدا له . وفيماخلا ذلك فنيتشه في واد وهو فى واد . غير أنه حاول أن يزدرد نيتشه بجبته وحذائه . فغص ، وفى غصته كان ينبوع مرارته وظلمته وعذابه

هكذا مشى جبران فى كهوف نفســه المظلمـة وهو يحسبه ماشيا فى كهوف العالم المظلمة . وهـكذا راح يجرع المـرارة معصورة من قلبه وهو يظنها آتية اليه من قلوب الناس المريرة . ولو أن روحه آنئذ كانت نيرة لما طغت عليها الظلمة . فهـل تكون الظلمة الا حيث لا يكون النور ؟ ولو أن قلبه كان طافحا بالحلاوة لما طفح بالمرارة . وهل يستقطر الحنظل من العسل ؟ وقد بلغت هذه المرارة من نفسه مدى أصبح عنده يرى الحياة

« امرأة عاهرة ، ولكنها جميلة • ومن ير عهرها يكره جمالها»

وكاد ينسى كل ما كان يقدسه فى أول شبابه ، لاسيما الحب ـ حب المرأة • فقد صار يرضى بالمرأة شريكة له فى فراشه ولا يرضاها شريكة فى قلبه وفكره وروحه • بل صار اذا ما أحس بحبها يمتد فى جوانب قلبه ينتهر قلبه وينتهرها . لأنه يربأ بقلبه أن « يستسلم » للحب وبارادته أن تخضع لارادة امرأة • وما « الجنية الساحـرة » الا امرأة أثارت شـهوات جبران ثم تملكتها حتى كادت تسلخه عن نفسه • فقام يعلن اسـتقلاله عنها ويعرض عليها شروطه :

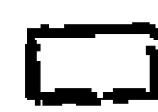
« وقد تمسكت بأذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمه ، متناسيا ما بى من الاحلام ، محدقا بما فيك من الجمال، متعاميا عن مواكب الاشباح المتطايرة حول رأسى ، مجـذوبا بالقـوة الخفية الكامنة فى جسدك •••

« ولكن قفى قليلا أيتها الساحرة • فها قد استرجعت قواى وكسرت القيود التى برت قدمى ، وسحقت الكأس التى شربت منها السم الذى استطيبته • فماذا تريدين أن نفعل ، وعلى أية طريق تريدين أن نسير ؟••

« هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديما ويأباه سيدا ؟

« هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ، ويشتعـل ولكنه لا يذوب ؟

« اذا هذه يدى فهزيها بيدك الجميلة ، وهذا جسدى فضميه بذراعيك الناعمتين ، وهذا فمى فقبليه قبلة طـويلة عميقـة خرساء (١) »



من حين الى حين كانت تشرق وحدة جبران المظلمة بنور هادىء بعيد يشع عليه من قلب مارى المحب • ومن حين الى حين كان

---

(١) قالت الى سيدة لبنانية فى نيويورك أنها «الجنية الساحرة» المقصودة فى المقال

يقترب منه ذلك النور فيؤنسه ويهـديه عنـدما كانت مارى تزوره فى نيويورك فيجعل بيته بيتها • أو عندما كان يزورها فى بوسطن فتجعل قلبها الدافىء وكرا لقلبه الشريد• وصدرها المطمئن ملجأ لمطامحه الصاخبة ، وأحلامه اللجوجة ، وأفكاره الثائرة

ومن حين الى حين كان يطرق أذنه فى سكينة الليل صوت غريب ـ قريب .هو صوت ذلك الشاب الذى كان جبران قد اذاع خبر موته ودفنه « فى وادى الاحلام » والذى لم يمت قط بل أدرج فى أكفانه قبل أن تغادره الروح • والاكفان التى أدرج فيها لم تكن الا جبة زرادشت وسراويله



الصوتان

ـ اسحبها

ـ لا بل أنت اسحبها !

هو جدال قصير كنا نبدأ به أكثر مقابلاتنا . فلا نتبادل السلام حتى يسأل واحدنا الآخر عما عنده من جديد نظمه أو نثره . ولا يندر أن يمد الواحد يده الى جيب الآخر طمعا باكتشاف قصيدة لم يشق بعد حجابها عن وجهها

أتيت جبران هذه المرة ــ وذلك فى أواسط مايو سنة ١٩١٨ ــ وللحال فهمت من شدة الحاحه على بابراز قصيدة جديدة أن عنده شيئا جديدا يريد أن يقراه لى . ولم يخب ظنى . فما أن استقر بنا المقام وأشعلنا كل واحد سيجارة وأترعنا كأسا من النبيذ حتى تناول جبران دفترا ، وقبل أن يبدأ بالقراءة مهد السبيل بقوله :

« هذه ستعجبك يا ميشا . هى قصيدة ذات صوتين . أولا ترى أن تعداد الاصوات يزيد فى وقع القصيدة ومداها ويسترعى انتباه القارىء أكثر من صوت واحد ؟ »

ثم أخذ يقرأ مفخما صوته ومحاولا أن يعطيه قوة لم تكن له وخشونة لم تكن تلائمه :

« الخير فى الناس مصنوع اذا جبروا ،
والشر فى الناس لا يفنى وان قبروا »

وهكذا حتى آخر القصيدة

كان جبران يقرأ ويلحن فى قراءته الى حد أنه لو سمعه رجل غريب لا يعرفه ولا يعرف عنه شيئا لقال ان قارىء

القصيدة غير الذى نظمها • أما أنا فكنت أسمعه وأعجب بأذنه الموسيقية التى كانت تحافظ على الوزن بالرغم من اللحن . وعندما لحظت فى أحد الابيات خللا فاضحا فى الوزن ونبهته اليه عجبت لانه لم ينتبه اليه من تلقاء نفسه . وعبثا حاولت أن أفعله له . فهو لم يكن يعرف التفاعيل ، وان كان قد درسها فى المدرسة . وظل يعيد ذلك البيت ولا يرى فيه عيبا الى أن بدلت له الكلمة القلقلة بكلمة استقام معها الوزن. وحينئذ أدرك الاختلال . مثلما أنى نبهته الى بعض هفوات نحوية . منها قوله :

« فسارق الزهر مذموم ومحتقر ،
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر »

فلم أتمكن من اقناعه لا بالاعراب ولا بالمنطق • لكنه قال لى انه اذا توفق الى قافية تأتى بذات المعنى أو بأقوى منه بدلها منها (١) والا ترك البيت على حاله• كذلك قلت له، فيما قلته ، ان مطلع القصيدة ضعيف البنية شاحب اللون ، لا يليق بما فى القصيدة من قوة وجمال . فأجابنى أنه يشعر بشعورى وأنه سيغير البيت اذا توفق الى أفضل منه

كنت أسمع جبران يقرأ واقرأ جبران فيما أسمع :

هو ذا جبران « المتقمص فى جسد رجل يحب العزم والقوة » ينازل جبران الذى « مات ودفن فى وادى الاحلام » والذى ، من حيث لا يدرى دافنه ، مزق أكفانه ودحرج الحجر عن باب قبره وعاد الى الحياة وفى عينيه نور حقيقة جديدة وفى قلبه جذوة ايمان قديم

يطل الاول على الحياة من كوة لا يبصر منها الا الانسان . وبعد أن يتفحصها بمجهر عقله يجدها حلقات متنافرة

---

(١) بقى البيت على حاله فى الطبعة التى أصدرها جبران فى نيويورك على نفقته . لكننى رأيته فى طبعة مصرية مغيرا هكذا : وسارق الحقل فهو الباسل الخطر

متناقضة : هناك الخير والشر . والحق والباطل . والعدل والظلم . والحرية والعبودية . والحب والبغض . والموت والحياة وغيرها من المتناقضات . ويجد الناس فى ارتباك مستمر وتشويش أبدى لانهم يحاولون أن يؤلفوا من تلك الحلقات المبعثرة سلسلة كاملة فلا يستطيعون . وهم لا يستطيعون لانهم لا يعرفون كيف يقيسون الحلقات ويزنونها. اما هو فيعرف . لكنه ضنين بمعرفته على قدر ماهو جواد بهزئه . فهو يهزأ بخير الناس وشرهم ولا يقول لهم ما هو خيره وشره . وهو يسخر بدينهم ولا يطلعهم على دينه . ويضحك من عدلهم ولا يتنازل ان يبين لهم عدله . ويتهكم على لطفهم من غير أن يعلمهم ما هو اللطف . وبين قذائف التقريع والتبكيت والهزء ، تفلت من فمه السوبرمانى نتف من معرفته الكاملة . وما كانت لتفلت الا لترى الناس الهوة الهائلة التى تفصل بينهم وبينه . من تلك النتف قوله فى الحق :

« والحق للعزم ، والارواح ان قويت
سادت ، وان ضعفت حلت بها الغير »

وقوله فى الحب ، وكأنه يبكت نفسه فيما يقول :

« والحب ان قادت الاجسام موكبه
الى فراش من الاغراض ينتحر »

« والحب فى الروح لا فى الجسم نعرفه ،
كالخمر للوحى لا للسكر ينعصر »

وقوله فى العلم :

« وافضل العلم حلم ان ظفرت به
وسرت ما بين أبناء الكرى سخروا »

وفى السعادة :

« وما السعادة فى الدنيا سوى شبح
يرجى فان صار جسما مله البشر »

وفى الموت :

« والموت فى الارض لابن الارض خاتمة ،
وللاثيرى فهـــو البــــدء والظفر »

وبالاجمال ماذا يقول للناس هـذا الواقف على كل أسرار الارواح والاجساد ؟ يقول لهم ان حلقات حيـاتهم لا تأتلف لانهم لم يحسنوا صنعها وتسميتها ، فلو أنهم مددوا حلقـة الحق وسموها عزما لاستقام حقهم . أما كيف تتمانق حلقة العزم وحلقة الضعف من غير أن يكون بينهما نفار فأمر يسكت عنه كل السكوت

ويقول لهم انهم لو شربوا خمرة الحب للوحى لا للسـكر لعرفوا الحب ولكنه لا يرشـــدهم كيف يؤلفون بين الحب والبغض لكيلا يكون فى سلسلة حياتهم قلق

ويقول لهم ان الموت هو النهاية لمن كان أرضيا والبـــدء والظفر لمن كان أثيريا . أما كيف يمكن ابن الارض أن يصـبح أثيريا لكي يتغلب على الموت فسر لا يكشفه لهم . ولا يكشفه لهم لانه لا يعرفه . ولا يعرفه لانه ما يزال فى عالم المقاييس والموازين يتوهم أن الناس يجهلون الحياة لانهم يجهلون قياسها ووزنها . ولو أنهم قاسوها ووزنوها بموازينه لوجدوها أطول وأثقل مما يحسبون . ولم يخطر له ببال أن المقاييس ، مهما طالت وتنوعت ، والموازين مهما دقت وثقلت ، لا تقيس الا ماله بداية ونهاية ــ طولا وعرضا وعمقا وعلوا . ولا تزن الا ماله وزن . أما الحياة التى لا بداية لها ولا نهـــاية ، والتى ليست طويلة ولا قصيرة ، ولا خفيفة ولا ثقيلة ، فكيف تقيسها وبماذا تزنها ؟

لو أن نيتشه أدرك هذا الامر لمـا بذر قوة خياله الهـائلة سدى فى التفتيش عن مقاييس وموازين جديدة ، وفى محاربة الذين جاءوا ليخلصوا العالم من كابوس المقـاييس والموازين، أمثال يسوع القائل : « أنا فى الآب والآب فى . وأنا فيكم وانتم فى . » فمن كان فى « الآب » ــ عنوان الحيـــاة السرمدية ــ

كان سرمديا كالآب . وهذا كيف تقيسه وتزنه ؟

ذلك حد ما توصل اليه جبران المتقمص فى جسد رجل يحب العزم والقوة



أما جبران الناهض من لحده فى وادى الاحلام فينبرى على مسرح الحياة خيالا طليقا من قيود المقاييس والموازين وكل أصناف المتناقضات . وما الغاب التى يسرح فيها ويرد كل شيء اليها سوى عنوان الحياة الشاملة لا الطبيعة بمعناها الضيق . وما الناى الذى ينفخ فيه سوى رمز الروح الذى تلتقى فيه كل الارواح فتؤلف لحنا واحدا كاملا لا نفار فيه ولا تشويش

يأكل الذئب الحمل فيصيح الناس : هى القساوة بعينها والجور الذى ما بعده جور ! الا أن الغاب ـ وهى الحياة الشاملة ـ لا تولول ولا تصيح . لانها تطعم ذاتها من ذاتها . فلا موت الحمل عندها مأتم . ولا غذاء الذئب وليمة . وسيان عند الشجرة اأكل ثمرتها انسان أم ثعبان . أم تفيأ ظلها قنفذ أم غزال . أم تدفأ بحطبها ملاك أم شيطان . فالانسان والثعبان ، والقنفذ والغزال ، والملاك والشيطان أبناء الغاب الواحدة • للغاب منهم غاية واحدة • ولها فيهم مشيئة واحدة . من عرفها لم يعاندها بل استسلم لها ، وباستسلامه جعلها مشيئة له . ومن جهلها فعاندها سحقته فأشقته . فالاستسلام نوعان : هناك استسلام الجاهل وهو العبودية. وهناك استسلام العارف وهو الحرية . ومن هـذا النوع استسلام النافخ فى الناى والقائل :

« ليس فى الغاب رجاء   لا ولا فيه الملل
كيف يرجو الغاب جزءا   وعلى الكل حصل ؟



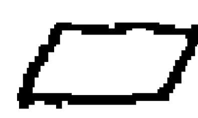
أعطنى الناى وغن   فالغنا نار ونور
وأنين الناى شوق   لايدانيه الفتور »

كأني بجبران بعد أن أصغى الى الصوتين المتنافرين في داخله وقف يسأل نفسه عن مقرها بينهما ـ الى ايهماتميل ؟ االى الجاهل المتمرد ، ام الى العارف المستسلم ؟ فأجابته نفسه ، ولم يكن في جوابها من ريب :

« العيش في الغاب . والايام لو نظمت
في قبضتي لغدت في الغاب تنتثر »

لكنها ، ما أعلنت رغبتها في الانعتاق من عالم المقاييس والموازين ، والخير والشر ، حتى ثارت عليها رغائبها الارضية ومطامعها البشرية . فاستسلمت لضعفها من جديد وراحت تقدم عنه أعذارا . وفي اعتذارها مرارة الخيبة والم الاندحار :

« لكن هو الدهر في نفسي له أرب
فكلما رمت غابا راح يعتذر
وللتقادير سبل لا تغيرها
والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا »



بعد ان انتهينا من القصيدة أخذ جبران يعرض على الرسوم التي كان قد أعدها لها . فوجدت فيها مواكب من الحياة كانت اشد فعلا في نفسي وابعد اثرا في خيالي من المواكب التي ساقها أمام عيني في حلل من الكلام الموزون . فحيث كنت أصغي الى ابياته فأشعر بالجهد العنيف الذي بذله في تذليل الكلام والاوزان والقوافي للمعاني ، وأبصر أن النجاح لم يكن نصيبه في كل جهوده ، كنت أنظر الى كل رسومه فأشعر كأنها رسمت ذاتها من غير جهد او عناء . فكأن عين جبران الفنان كانت اطوع لخياله ، ويده أطوع لعينه من قلم جبران الشاعر لشعوره . وفوق ذلك فجبران الشاعر كان شديد الولع بمزج الوان الكلام ورناته . فكان يكثر من الادهان والانغام الى حد الزركشة والتنميق ، حين أن جبران الفنان كان يطلب البساطة المتناهية فتأتيه بسهولة متناهية . هي بساطة كلاسيكية تعرف

أصول الفن وتنسى أنها تعرفها . وهي بساطة تخلق لك من خطوط قليلةأشكالا كثيرة . وخطوطها ليستحدودا لخيالك. بل هي عيونوأجنحة تمضي به الى أبعد منالخطوط والحدود

أول رسم وضعه جبران أمامي على المنصب كان يمثل فتى عاريا ، قوىالعضل ، متسقالجسم ، خفيفه ، يسير بخطوات ثابتة واسعة ، وفي يده اليمنى ناى ، وعيناه تحدقان بما هو أبعد من مجال البصر . وفي الفضاء من خلفه شكل أثيرى سابح في الهواء يمثل امرأة لا ترى منها غير رأسها وكتفيها وبعض من صدرها وذراعيها الممدودتين كأنهما جناحان يحرسان حامل الناى . وترى فيوجهها ما يشبه الحب ، لكنه غير ما يعرفه الناس باسم الحب . وترى في عينيها العالقتين بما وراء الافق لهفة كأنها تقول للفتى : سر ولا تخش . فأنا معك . ووراء الفتى قدسار جمهور من الناسيبدون بالنسبة اليه أقزاما

هو ذا صاحب الخيال الذى أدرك بخياله سر الامتثال فامتثل بارادته . وكان لذلك حرا . والشكل الاثيرى هو خياله الاكبر وحاديه وهاديه . والناس منخلفه قطعان تسير ولا تعلم لماذا والى أين تسير . فهم العبيد لان ليس لهم من خيالهم محرر

كنت ظننتنى أخذت بذلك الرسم حتى برز أمامي غيره . فأدركت أنه دون قمة جبران الفنية عندما رأيت رسم الدين والعدل والحرية وسواها . فرسم الدين يمثل شبه برجأعلاه مؤلف من رؤوس ثلاثة ـ رأس رع الىاليسار وزرادشت الى اليمين وبوذا في الوسط . وعلى رأس بوذا ، بين قلنسوة رع وزرادشت ، قد ارتكزت كرة ترمزالىالحقيقة اللامتناهية . وعند منتصف البرج ، على صدر بوذا ، الناصرى المصلوبوقد لمست كفاه كتف رع من جهة وزرادشت منالاخرى . ومن تحت ذراعى المصلوب حتى أسفل البرج أشكال بشرية تغلغلت

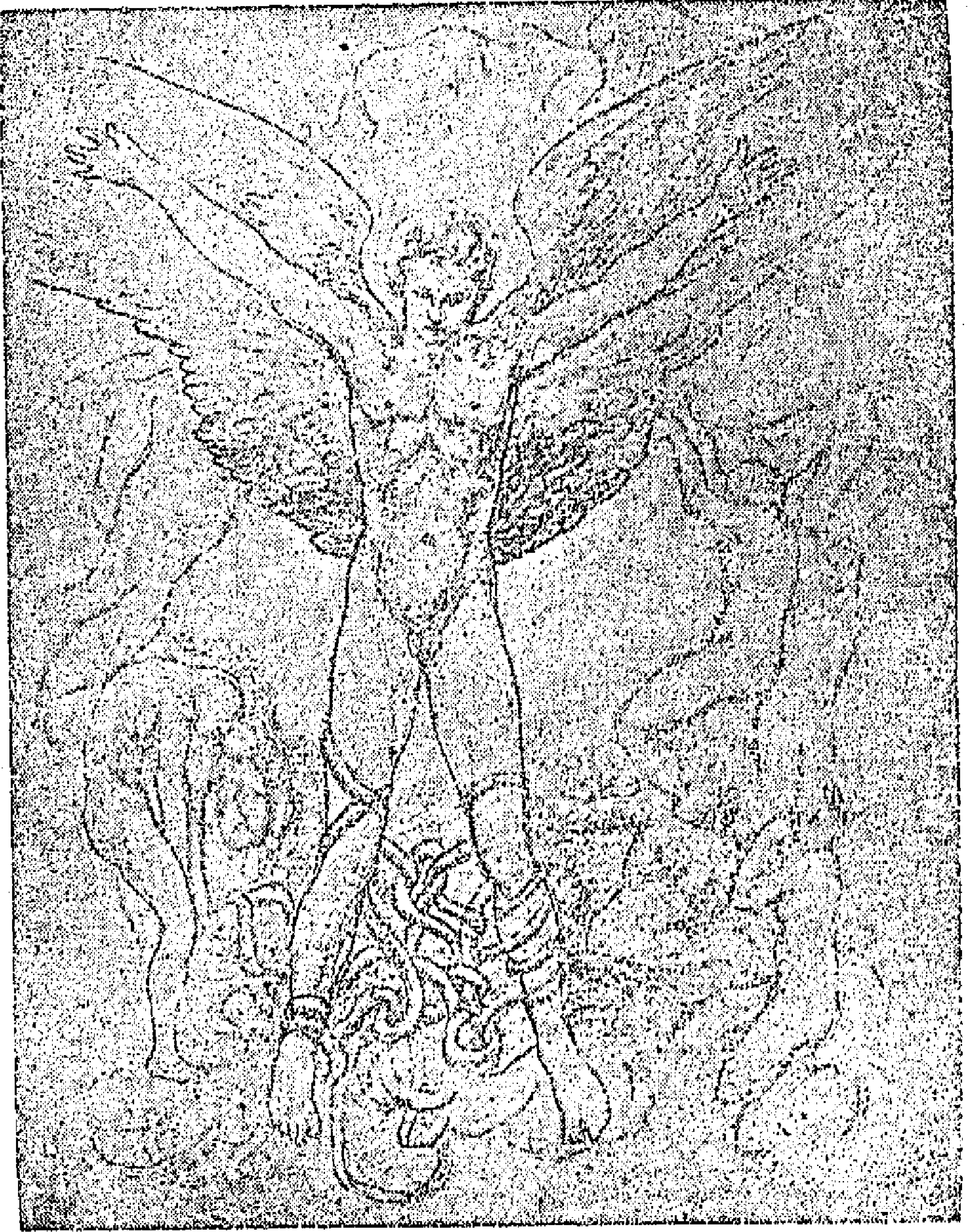
بينها أفاعي الخــــرافات والسخافات والشهوات والمتـــاجر الرائجة بين الناس باسم الدين في كنف أولئك الجبابرةالاربعة

والرسم الثاني ــ رسم العدل ــ يمثل جبارا مكتمل تقاطيع الجسم . لعلهالسوبرمان . وقد أمسك بيسراه ميزاناوانحنى الى اليمين فلمس بأصابعه كفة من كفتى الميزان فهوت الى تحت وارتفعت الثانية وفيها شكل انسان صغير ملتو على ذاته . ومن حول حامل الميزان شبه دائرة منالبشر المسرعين صعودا وهبوطا يخيـل اليـك أنه قد وزنهم كلهم فوجدهم ناقصين • كنت أنظر الى الرســـم فلا أرتوى من تفاصـــيله والتعجب في الالفة الـكاملة بين أصـــغرها وأكبرها والوزن الـكامل في تركيبها . حتى ليستحيل عليك أنتغير خطا فيها من غير أن تحدث خللا في توازنها وألفتها

أما رسم الحرية ففيه من الالفة والاتساق والتوازن مثلما في رسم العدل لكنه يثير فيك شعورا وأفكارا وخيالات تظل تزدحم في روحك زمانا بعد أن يغيب الرسم عن عينيك•فأنت تبصر فيه فتى بجناحين . وقد أسبل جناحيـــه الى فوق وانتصب بقامته الطويلة وافرج رجليه الواحـــدة عن الاخرى وجمع كل قواه للطيران . ولـكنه لايســتطيع أن يرتفع عن الارض . تحدق في عضلاته المنكمشة من قوة الاجهـاد وفي وجهه المنصب بكل معانيه الى غاية واحـــدة فتكاد تقفز من مكانك لتساعده عله يرتفع الى الجو . لـكنك ، بعد أن ترى الحبال المحبوكة حولرجليه ، تدرك أنه لن يطير حتىيقطعها . وانها لا تقطع بسيف ولا تقرض بمطرقة • هي حبال الرغائب والشهوات الارضية . وكأني بجبران رسم نفســـه بذلك الرسم . وكأني به وصف نفسه عندما قال :

« والحر في الارض يبني من منــازعه
ســـجنا له وهو لا يدري فيؤتسر »

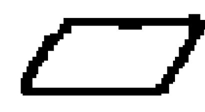
بعد ذلك بأيام ودعت جبران ونيويورك ومن فيها من قليل



« والحر فى الارض يبنى من منازعه
سجنا له وهـــو لا يدرى فيؤتسر »

الصحاب ، وارتديت البزة العسكرية ، وتقلدت السنكة والبندقية ، وسافرت جنديا مع الجند الامريكان الى فرنسا

وعندما عدت من المجزرة المالية بعد سنةوشهرين وجدت أن جبران قد أضاف الى الادب العربى أثرا جديدا باسم « المواكب » طبعه على نفقته فى نيويورك طبعا أنيقا فاخرا . وانه قد شق لذاته دربا فى الادب الانكليزى بكتابصغير سماه « المجنون » وتوفق الى نشره بواسطة شركة للنشر حديثة العهد فى نيويورك أسسها رجل يهودى المانى اسمه «كنوف» عرف كيف يستثمر مواهب الكتاب الحديثين • فكانوا سبب ثروته وكان مساعدا كبيرا فى نشر شهرتهم



محت الحرب فيما محته من الاسماء اسم « الفنون » من سجل الصحافة . فقضت على زنبقة هيفاء فواحة فى حقلنا الادبى كنت وجبران نتعشقها ونغار عليها غيرة غارسها وولى امرها ـ نسيب عريضه ـ واشد . فقد كانت لنا ، ولكتلة صغيرة من الادباء فى نيويورك ، بوقا صافى الصوت لا نخجل من أن ننفخ فيه من أرواحنا . وكانت يدا جميلة ونظيفة يلذ لنا أن نضع فى راحتها نتفا من قلوبنا وأفكارنا لتحملها الى من تهمهم قلوبنا وأفكارنا . وكانت ادارتها ملجأ لشوارد آرائنا ، وجوا فسيحا يمتزج فيه هزلنا بجدنا وتلتقى احلامنا بآلامنا

وكنت على أثر رجوعى من فرنسا فى صيف سنة ١٩١٩ قد سافرت الى ولاية واشنطن لارتاح ولو قليلا من الحرب وويلاتها ، ولانسى الحلو والمر من تذكاراتها . وكأن جبران استطال غيبتى أو خشى ان تطول فكتب يلح على بالرجوع للسعى فى رد «الفنون» الى الحياة . ويرسم لى خطة طويلة للعمل ويختمها بقوله :

« الخلاصة ـ انه على وجودك فى نيويورك يتوقف نجاح

المشروع . واذا كان رجوعك الى نيويورك يستلزم التضحية فالتضحية فى مثل هذه الظروف هى العزيز الموضوع على اقدام الاعز ، والمهم الموقوف على مذبح الاهم . وعندى أن الاعز فى حياتك هو تحقيق أحلامك . والاهم فى حياتك هو استثمار مواهبك . . . »

عدت الى نيويورك ولكن « الفنون » لم تعد الى الحياة . اذ وجدت أن الخطة التى كان قد رسمها جبران ونسيب كانت خطة يسهل تطبيقها على الورق ويكاد يستحيل تحقيقها بالعمل . فالذين كانت قلوبهم فى « الفنون » كانت جيوبهم فى عالم الشكوك والظنون • والذين كانت جيوبهم تعج بالذهب كانت قلوبهم بعيدة عن الادب • فمن أين تأتى بالمال اذا كنت تأبى التذلل والاحتيال ؟

ماتت « الفنون » ولكن كانت هناك « السائح » ـ جريدة نصف أسبوعية لصاحبها ومؤسسها عبد المسيح حداد ، كان قد مضى على تأسيسها نحو الست من السنوات . نعم • هى لم تكن من الادب الصافى بمرتبة « الفنون » لكن عبد المسيح اخ لنا . قلبهُ قريب من قلوبنا وروحه صديقة لارواحنا . وهكذا ما درينا الا و «السائح» بوقنا ، وادارته مكة خطواتنا، ومنبر أفكارنا ، وعكاظ قوافينا ، ومسرح مهازلنا . هناك كنا نلتقى كلنا لا أقل من مرة فى الاسبوع ، وبعضنا كل يوم فى الاسبوع ـ عصبة صغيرة تفاوتت قواها ولكن توحدت نزعاتها ومراميها ، فأتلفت قلوبها وصفت نياتها ، بينها من كتب فى حياته قليلا ثم انقطع عن الكتابة كل الانقطاع . وبينها من كان لا يكتب الا فى النادر . وبينها من كان لا يقعده عن الكتابة غير قوة فوق قوته . لكنهم كلهم ، المقلال منهم والمكثار والذى لا يقل ولا يكثر ، قد تقاربوا فيما يستسيغونه ويكرهونه من الادب . وبالطبع كان ضمن هذه العصبة افراد تربطهم ألفة ادبية وفنية وروحية أقوى من التى كانت تربط العصبة

بمجموعها
من تلك العصبة تألفت « الرابطة القلمية » . واليك فقرات من وقائع الجلسات التأسيسية كما دونتها بيدى :

« فى خلال ليلة أحياها صاحب « السائح » واخوانه فى بيتهم — فى العشرين من ابريل سنة ١٩٢٠ — ودعوا اليها رهطا من الادباء والاصحاب ، دار الحديث عن الأدب وعما يمكن الادباء السوريون فى المهجر القيام به لبث روح جديدة نشيطة فى جسم الادب العربى وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فعالة فى حياة الامة . ورأى أحدهم ان تكون لادباء المهجر رابطة تضم قواهم وتوحد مسعاهم فى سبيل اللغة العربية وآدابها . فقابلت الفكرة استحسان كل الادباء الحاضرين وهم : جبران خليل جبران . نسيب عريضه . وليم كاتسفليس . رشيد أيوب . عبدالمسيح حداد . ندره حداد . ميخائيل نعيمه . وأقروا باجماع الاصوات مباشرة السعى لتحقيق هذا الفكر ... واذ لم يكن من فرصة للبحث فى كيفية تأليف الجمعية وقوانينها دعا جبران خليل جبران الادباء الى عقد اجتماع فى منزله ليلة الثامن والعشرين من ابريل »

« جلسة الثامن والعشرين من ابريل سنة ١٩٢٠ عند جبران خليل جبران : التأم تلك الليلة فى منزل جبران الادباء الآتية أسماؤهم : عبد المسيح حداد ، ندره حداد . الياس عطاالله . وليم كاتسفليس . نسيب عريضه . رشيد أيوب . جبران خليل جبران . ميخائيل نعيمه . وبعد المباحثة أقر الجميع الامور الآتية :

١ — ان تدعى الجمعية « الرابطة القلمية » وبالانكليزية Arrabitah

٢ — أن يكون لها ثلاثة موظفين وهم : الرئيس ويدعى « العميد » . فكاتم السر ويدعى « المستشار » . فأمين

الصندوق ويدعى « الخازن » •

٣ ــ أن يكون أعضاؤها ثلاث طبقـــات ــ عاملين ويدعون « عمالا » . فمناصرين ويدعون « أنصار » . فمراسلين

٤ ــ أن تهتم الرابطة بنشر مؤلفات عمالها ومؤلفات سواهم من كتاب العربية المستحقين ، وبترجمة المؤلفات المهمـة من الآداب الاجنبية

٥ ــ أن تعطى الرابطة جوائز ماليـــة فى الشـــعر والنثر والترجمة تشجيعا للادباء

ووكل الحضور أمر تنظيم القانون الى العـــامل ميخائيل نعيمه . ثم انتخبوا باجماع الاصوات جبران خليـــل جبران عميدا . وميخائيل نعيمـــه مستشارا . ووليم كاتسـفليس خازنا . . . »

نظمت القانون ووضعت له مقدمة . وها أنا أقتطف من تلك المقدمة بضع نبذ تبين روح الرابطة ومراميها :

« . . . ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس ادبا ، ولا كل من حرر مقالا أو نظم قصيدة موزونة بالاديب . فالادب الذى نعتبره هو الادب الذى يستمد غذاءه من تربة الحيـــاة ونورها وهوائها . . . والاديب الذى نكرمه هو الاديب الذى خص برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر فى تموجات الحياة وتقلباتها ، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة فى نفسه من التأثير

« ان هـــذه الروح الجديدة التى ترمى الى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار في جميل الاساليب والمعانى لحـــرية فى نظرنا بكل تنشــــيط ومؤازرة ، فهى امل اليوم وركن الغد . كما أن الروح التى تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء فى المعنى والمبنى هى فى عرفنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا وان لم تقـــاوم ستؤدى بها الى حيث لا نهوض ولا تجدد

« بيد اننا ، اذا ما عملنـــا على تنشيط الروح الادبيـــة

الجديدة ، لا نقصد بذلك قطع كل علاقة مع الاقدمين . فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين من ستبقى آثارهم مصدر الهام لكثيرين غدا وبعد الغد . الا أننا لسنا نرى فى تقليدهم سوى موت لآدابنا . لذلك فالمحافظة على كياننا الادبى تضطرنا للانصراف عنهم الى حاجات يومنا ومطالب غدنا . وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا . . . »

ورسم جبران للرابطة شعارا جميلا يمثل دائرة فى وسطها كتاب مفتوح وعلى صفحتيه خطت هذه الآية من الحديث : **« لله كنوز تحت العرش مفاتيحها السنة الشعراء »** ومن فوق الكتاب قد أطلت شمس ملأت أشعتها نصف الدائرة الاعلى . وعند أسفل الكتاب سراج شطره الايمن محبرة قد انغمس فيها قلم فتحول حبرها الى لسان من نور خارج من طرف السراج الايسر . ومن تحت الدائرة اسم الرابطة القلمية مخطوط بأحرف مستقيمةالزوايا تشبه بعض أنواعالخطوط الكوفية ، ومن تحته اسم الرابطة بالانكليزية فعنوانها الذى جعلناه عنوان جبران

كان ذلك الشعار خاتمة دور الرابطة « التأسيسى » والحد الذى وقفت عنده فى مشابهتها جمعية منظمة . فهى من قبل أن تنظم لذاتها قانونا وتتخذ لها شعارا كانت « روحا » وظلت كذلك كل حياتها ، وقط لم تكن « جمعية » بمعنى هذهالكلمة المألوف . بل كان جل ما فعلته من ذلك القبيل أن أعطتتلك الروح اسما تعرف به بين الناس . وأعطت العاملين فيها شبه محجة مشتركة يصوبون اليها خطاهم ومما يعملون علىصيانة حرمتها ورفعها عن التحذلق والابتذال



على أثر « تنظيم » الرابطة أخذت كتابات عمالها تظهر فى أعداد « السائح » وتحت عنوان كل مقال او قصيدة اسم صاحبها متبوعا بهذه الكلمات : « العامل فى الرابطة القلمية »

وفى صدر كل عام كانت « السائح » تصـــدر عددا ممتازا يشترك فيه كل عمال الرابطة من التحرير حتى انتقاء الورق والغلاف وتنسيق المواد وتحديد القطع الخ . وهـذا العدد كان يطلع على الادب العربى كحـدث خطير • فتكتب الصحف فيه فصولا وتنقل عنه الشيء الكثير . وهكذا انتشر اســـم الرابطة فى العالم العربى وكل مهاجره واقبلت الصـحف على آثار عمالها تنقلها وتعلق عليها وقام البعض يجمعها فى مجموعات منها ما يدرس اليوم فى كثير من المدارس. ونقم أنصار التقليد والجمود عليها فما كانت نقمتهم الا لتزيدها قوة وحماسـة واندفاعا ولتنمي عدد أنصارها ومريديها ومقلديهـا والمعجبين بها فى كل قطر عربى . حتى حار فى أمرها أصحابها واعداؤها على السواء .. فما عادوا يعرفون الى ماذا يعزون سر قوتهـا وبعد تأثيرها • فمـن قائل أن السر فى الادب الامريكى الذى تأثر به عمال الرابطة ، وهو قول فارغ . ومن قائل انه فى جو الحرية الامريكية ، وهو قول أفرغ • ومن قائل انه فى تهتـك عمال الرابطة من حيث اللغة العربية واصولها ، وهو قول أفرغ وأعقم من القولين الاولين • أما الحقيقـــة فلا يعلمهـا الا الذى جمع عمال الرابطة القلمية فى فسحة محدودة من ديار غربتهم ولمحة معلومة من زمان هجرتهم ووضع فى صـــــدر كل منهم جذوة تختلف عن أختها حرارة وبهاء ، ولـكنها من موقـــد واحد واياها

اذكر أن صاحب جريدة عربية فى نيويورك ، لحســـد فى قلبه ، تهجم مرة فى جريدته على الرابطة وعلى جبران بنوع خاص . وتناول فى تهجمه رجلا جعله من عمال الرابطة ولم يكن منهم . واتفق أن التقيت به فى ذلك الوقت فقلت له : « فلان يا هـــذا ليس من الرابطة » . وأخبرت جبران عن ذلك على سبيل التفكهة . وشد ما كان عجبى عندما التفت الى جبران فاذا بعينيه تقدحان شررا وشفتيه ترتجفان غضبا وتقطران

سما . واذا به يقول :

ـ لو التقيته أنا ياميشيا لفعلت غير ما فعلت أنت

قلت :

ـ وماذا كنت تفعل ؟

قال :

ـ كنت أبصق فى وجهه وأفك رقبته . ان كلبا مثله لا يستأهل الا العصا

لم أستغرب ما قاله جبران لاننى كنت أعرف طباعه واعرف أن كل عامل من عمال الرابطة ، لا سيما جبران ، كان يغار على سمعتها أكثر مما يغار على سمعته . لكننى شكرت الله لان جبران لم يوفق الى « فك » رقبة ذلك المسكين ، وان الرابطة القلمية لم « تفك » حتى اليوم من الرقاب الا رقبة الصنم الذى كان أكثر أبناء الضاد يبخرون له ويسجدون أمامه ويمجدونه باسم الادب

العواصف

على أثر صدور كتاب « العواصف » لجبران فى سنة ١٩٢٠ كتبت مقالا توســـعت فيــه بعض التوسع فى درس الكتاب ونفسية صاحبه الادبية ، والمرارة التى كانت تفيض من قلمه فى ذلك العهـد ، والـكآبة التى كانت تطفو على مرارته (١) وكان المقال فى جيبى عندما عرجت على جبران بطريقى الى ادارة « السائح » . فسألنى ، حسب عادته ، اذا كان عندى من جديد اقرؤه له ، فأجبته :

ـ عندى مقال لا استطيع أن أقرأه لك الا اذا استطعت أن تسمعه كما لو كنت غير جبران خليل جبران

قال :

ـ انك تسألنى أمرا شاقا يا ميشا . ألعل مقـــالك فى جبران خليل جبران ؟

قلت :

ـ فى عواصفه

فقال وكان قوله مزيجا من المزح والجد :

ـ حسن يا ميشا . ســـأحاول أن أفعل الآن ما صرفت حياتى محاولاً أن أفعله . وذلك أن أنسى نفسى . لـكن بى خوفا منك يا ميشا . فلك عين تنفـــذ الى أعماق نفسى . وقلم ، لو شاء ، لمزق الستائر التى أتستر بها عن أعين الجهلاء والعميان . اقرأ

---

(١) المقال مدرج فى كتابى «الغربال» تحت « هواصف العواصف »

أخذت أقرأ وجبران يصغى . فأتيت على شبه توطئه قصيره أقابل فيها بين ضروريات الحياة وكمالياتها وأقول : « غدا ستغمرنا لجة العدم بأحزاننا وأوصابنا . بجائعنا ومتخومنا . بفقيرنا وموسرنا . بوجيهنا وحقيرنا . وستقوض الايام أركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية . فلا يبقى الا الخالد والجميل والحق فينا. ومن ذا الذى يبقى ليخبر عن الخالد والجميل والحق فينا ان لم يكن ابن الادب وابن الفن ؟ »

ثم أسأل عن أبناء الادب والفن عندنا آلذين سيخلدون هذا الجيل من وجودنا فى سفر الاجيال فلا أجدهم فى الكثير من « بلابل النيل وشحارير لبنان وحساسى سوريا » بل فى فئة قليلة من الذين « قد لمست الحياة أفواههم بجمرة جديدة فاتقدت قلوبهم بنار ما عرفتها قلوب من حولهم من المنتمين الى مملكة القلم . بعضهم لا يزال فى رحم السكينة المولدة . وبعضهم يتنفس الهواء الذى نتنفسه ويطأ الاديم آلذى نطؤه ومن هؤلاء ، بل فى طليعة هؤلاء ، شاعر الليل. شاعر العزلة . شاعر الوحشة . شاعر اليقظة الروحية . شاعر البحر . شاعر العواصف . . . جبران خليل جبران »

بلغت تلك النقطة من المقال واذا بى أسمع بكاء . واذا بدموع جبران تترقرق على يديه . واذا بجبران يشهق كالطفل فى بكائه . فطويت المقال ووضعته فى جيبى وجلست صامتا بين الارتباك والدهشة أرقب جبران ولا أشاء ، بل لا أقدر ، أن أقول كلمة قبل أن أسمع منه كلمة . وأخيرا لملم جبران عبراته بطرف منديله وقال وملح الدموع لا يزال متفشيا فى صوته :

ـ اعذرنى ياميشا . اعذرنى يا أخى . اعذرنى يا حبيبى. ولا تسلنى أن أفسر لك دموعى . فالدموع لا تفسر بالكلام ولا تفيض الا حيث يتعذر الكلام. وانت تفهم دموعى لان بك وحدة كوحدتى ، ووحشة كوحشتى ، وحرقة كحرقتى . وأنت

تفهم دموعى لأنك تفرح مثلما أفرح عندما تعثر على روح تفهم لغة روحك • ما أصعب أن تعاشر الناس وتكلمهم بلغتهم فيحسبون أن لا لغة لك سواها • وعندما تكلمهم بلغتك تجدهم لا يفهمون منها حرفا ونجدك مضطرا اما الى الصمت واما الى تدريسهم الالف والباء من هجاء لغتك ، وما أكبر بهجتك عندما تقع على من يعرف لغتك مثلما تعرفها • وأنت تعرف لغتى يا ميشا وأنا أعرف لغتك • تابع القراءة اذا شئت

فاعتذرت عن متابعة القراءة وقلت :

ـ أمن العدل يا جبران أن نلوم الناس ولا نلوم أنفسنا ونحن من الناس ؟ أم من العدل أن تتطلب منهم ما لا تتطلبه من نفسك ؟ أنت تطلب أن يفهمك الناس • وقد يكون أنهم لا يفهمونك لأنك لا تفهم نفسك • فهل أنت واثق من فهمك لنفسك ؟

ـ لا ، لست واثقا يا ميشا • ومصيبتى فى أننى أتكلم كما لو كنت واثقا

ـ لعل ذلك مصدر العواصف التى تجتاح وحدتك . ومنبع المرارة التى تفيض من قلمك • ومنبت التمرد الذى اتخذته قوسا لك ودرعا • فكم نتمرد على الغير جاهلين أننا لا نتمرد الا على أنفسنا الجاهلة • وكم تهب فى داخلنا عواصف تجلو ما اكمد من آفاق أرواحنا فنحسبها آتية من الخارج لتعكر ما صفا من آفاق أرواحنا • أولا ترى أن ما نخبر عنه بأقلامنا ليس الا زبدا يطفو على وجه حياتنا ، أما أعماقنا الساكنة فلا تدركها أقلامنا ؟

ـ هذا صحيح يا ميشا • وأنا تمر بى ساعات أرى فيها كل ما كتبته حتى الآن فضولا فى فضول . لكننى أشعر أن فى فمى كلمة لم أنطق بها بعد • ولن يرتاح لى بال حتى أنطق بها • لعلنى أحاول المستحيل عندما أحاول أن أفرغ زبدة حياتى فى كلمة أو فى كتاب • لكننى لا بد من أن أغمس قلمى فى أعماقى

الساكنة لتنطق بما فيها ـ ولو ببعض ما فيها • وماذا عساني أفعل غير ذلك ؟ أنا كالمرأة الحامل : ليس بي الا أن أضع بين أيدي الحيـاة ما أحمله في أجشائي . وأنا أعرف أن المـرارة ليست جميلة وأن الحلاوة أجمل • لكنني سأبقى مرا ما دام في قلبي مرارة

ـ ستبقى مرا يا جبران ما دمت دولابا يدور يمينـا بين دواليب تدور يسارا ـ كما تقول في « العاصفة » ـ لـكنني أراك قد بدأت تغير دورتك . ففي آخر « العاصفة » بعد أن تفرغ كل ما في قلبك من المرارة على الناس ومدنيتهم وطقوسهم تعود فتسأل نفسـك : « نعم . ان اليقظة الروحية هي أخلق شيء بالانسان . بل هي الغرض من الوجود . ولكن اليست المدنية بما فيها من التلبس والاشكال من دواعي اليقظـــة الروحية ؟ وكيف يا ترى تستطيع انكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على اثبات صلاحيته ؟ قد تكون المدنية الحاضرة عرضا زائلا . ولكن الناموس الابدي قد جعل الاعراض سلما تنتهي درجاته بالجوهر المطلق ـ فكأنك بهذا القول تعرض على الناس سلاما ، وكنت لا تعرض عليهم الا حربا . وكأنك ترضى أن تدور معهم الى اليســـار وكنت لا تدور الا الى اليمين

ـ هاهي ذي الافلاك يا ميشا بما فيها من أجرام لا تحصى . لكل جرم دورته وسبيله . وكلها يدور حول جـرم واحـد فيؤلف عالما واحدا . وهذا العالم يدور حول ذاته وحول عالم سواه . والعوالم كلها تؤلف عالما واحدا كاملا . كلنـــا دورات في دورات . وكلنا ضمن دائرة الحياة الكبرى

ـ فما أجهلنا يا جبران نرضى بأن ندور دورتنا وننكر على سوانا أن يدور دورته . ولولا دورة سوانا لما كانت لنا دورتنا

ـ نعم . ما أجهلنا نرى سبيلنا السبيل السوي . ونرى كل سبيل سواه معوجا . ولو استقام سبيلنا لاستقام كل

سبيل . لان كل السبل تؤدى الى سبيل واحد . لكن هو الشباب يا ميشا ــ نزقه أسرع من حكمته . وغضبه اقوى من عدله . وانا كنت حتى الآن كثير النزق شديد الغضب .
ــ ما قولك بقليل من الويسكى مع الكازوزة ؟ لقد اشتريت البارحة صندوقا من أحدمهربى المشروبات الروحية. ودفعت ثمنه ٣٥ دولارا . ذاك ثمن بخس بالنسبة لاثمان هذه الايام. والويسكى التى اشتريتها مثل ويسكى هذه الايام ــ مزيج شيطانى لا يعرف أجزاءه الا الذين ركبوه . قل لعن الله القسس • هذه بلاد قسس وكتبة وفريسيين • لقد حرموا المسكرات ظنا منهم أن الله لا يقبل فى سمائه الا من كان على شاكلتهم • نظيفا من الخارج أما فى الداخل فمملوء قذارة ونتانة . ولقد حرموها ليجعلوا من تحريمها متجرا لهم رابحا

وسكب جبران كأسين من الويسكى . فذقت كأسى وتركتها اذ لم اقدر على اقتحام طعمها ، وقلت لجبران :

ــ اعجب لك ياجبران تشرب مثل هذه الويسكى ، فهى قتالة

فأجابنى وقد جرع جرعة كبيرة :

ــ لا بأس بها يا ميشا ، ومن ثم فالكحل خير من العمى ، ما العمل وتلك مشيئة القسس الاطهار فينا ؟

ــ دعنا من الويسكى ومشيئة القسس الاطهار • وهات أخبرنى الى اين وصلت فى كتابك « السابق » وهل اضفت شيئا جديدا الى مواده الكتابية والفنية ؟

ــ لم ازد شيئا على المواد التى اطلعتك عليها . والكتاب اليوم فى يد الناشر وسيصدر قريبا . ويعز على انك تفضل « المجنون » عليه

ــ ما همك والاثنان لك ؟ انى افضل « المجنون » لانه مرارة صرف . اما «السابق» فمزيج من مرارة فقدت مرارتها وحلاوة لم تكتمل بعد حلاوتها . وأين أنت من كتابك الجديد

الذى تفكر به لاحقا للسابق ؟

ـ لقد بدأت بأول قطعة منه ولم انته منها بعد . ولن أقرأها لك حتى تكتمل . ذلك الكتاب يملأ الآن كل حياتى يا ميشا ، فأنا انام واياه واقوم واياه وآكل واشرب واياه

فى اليوم التالى سافر جبران الى بوسطن . وصدر مقالى عن « العواصف » فى جريدة السائح . فكتب الى جبران يقول :

« قرات الساعة مقالتك فى « العواصف » فماذا يا ترى اقول لك يا ميخائيل ؟

« لقد وضعت بين عينيك صفحات كتابى مكبرة بلورية فظهرت أكبر مما هى حقيقة ـ وهذا مما يجعلنى أخجل من نفسى . لقد القيت بمقالتك مسؤولية كبيرة على عاتقى ، فهل أستطيع ان أقوم بها ؟ هل استطيع تحقيق الفكرة الاساسية فى نظرياتك ؟ اتبينك منشئا هذه المقالة النفيسة وانت تنظر الى مستقبلى لا الى ماضى ـ لان ماضى كان خيوطا ولم يكن نسيجا ، كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قط بناء . أتبينك تنظر الى بعين الامل لا بعين النقد . فأندم على الكثير من ماضى وفى الوقت نفسه أحلم بالمستقبل وفى نفسى حماسة جديدة . فان كان هذا ما اردت ان تفعله بى ولى عندما كتبت نقدك فقد نجحت يا ميخائيل ! »

لقد صدق جبران فى قوله انى نظرت الى مستقبله لا الى ماضيه . فقد أخذت أشعر من محادثاتى الكثيرة معه انه مشرف على فجر حياة جديدة . وان العواصف التى أثارها فيه نيتشه فكادت تقتلع جذوره من تربتها الشرقية وتتركه عالقا بين الارض والسماء قد بدأت تهدأ . وأن جبران الذى انسلخ عن نفسه المؤمنة بجمال الحياة وحكمتها والمستسلمة لمشيئتها السرمدية قدعاد الى «وادى الاحلام» يبحث عن تلك النفس وينبشها من لحدها ليجدد معها مواثيقه

وعلاوة على ذلك فحجر الرحى ــ رحى الفاقة ــ الذى كان يحمله في عنقه منذ فقد أمه وأخاه وأخته أوشك أن يتحول الى قلادة من ذهب . فقد صار جبران ينام من غير أن يفكر بحاجاته اليومية من أكل وشرب ولبـاس ومأوى . بل انه أصبح ، فى كل شهر تقريبا ، يودع قيمة من المال فى البنك. والخمسة والسبعون دولارا من مارى هاسكل ما فتئت تأتيه فى مواعيدها . فاستعان عن نور الغاز فى محترفه بنـور الكهرباء . وعن وجاق الحطب بوجاق من الغاز . وجـاء بتليفون

اما « المجد والعظمة » اللذان كان جبران يحلم بهما منـذ صباه فقد أخذ يتذوق حلاوتهما من السنة الناس الذين كانوا يستسيغون كتاباته ورسومه فلم يعد فى استطاعته أن يشرب من البئر ويرمى فيها حجرا ــ أن يتقبل حلاوة الشهرة من السنة الناس ثم ان يكوى تلك الالسنة بنار نقمته وسخريته. بل صار يبذل كل جهده ، بلسانه وقلمه وريشته ، ليكون عند ظن الناس به ، وليفوق ظنهم به . وكلما ازداد توفيقا من هذا القبيل اشتد عنف الحرب الناشبة بين نفسه الظاهرة ونفسه الباطنة . نفسه التى كان يعرضها على الناس ونفسه التى كان يسترها عنهم فلا تراها الا عين روحه الساهرة

نبأ كاذب

أفقت من نومي صباح يوم من ربيع سنة ١٩٢١ وأمام عيني بقايا صورة مزعجة رأيتها فى الحلم وعبثا كنت أحاول أن أمحوها من فكرى . فقد رأيتني واقفا على حافة بئر مستديرة عميقة ولا ماء فيها . ورأيت فى قعر البئر شجرة يابسة ذات ساق ضئيل قصير وفروع قليلة لا اغصان لها ولا أثر للورق او للثمر عليها . ورأيت تحت الشجرة رجلا مضطجعا على جانبه الايمن وقد توسد ذراعه . ثم رأيت الرجل ينهض متواكلا ويفرك عينيه ويتأمل الشجرة ويتسلق بنظره جدران البئر الملسة كأنه يبحث عن واسطة للنجاة . ورأيت فى وجهه الهزيل الاصفر المقنع بالحزن والالم بقعا سوداء وخضراء وصفراء . وتخيلته فى كل حركة من حركاته كأنه اليأس بعينه ، أو كأنه بقية من الحياة تسرولت بسراويل الموت . فناديته بأعلى صوتى : « جبران ! » وأفقت مذعورا من صوتى ومن الصورة التى رأيتها

ما صدقت أن اجتمعت اليوم بجبران فى ذلك اليوم لتكذب عين يقظتى عين منامى ، وليمحو وجهه النضر رسم وجهه الشاحب من خيالى . ومن غير أن اطلعه على حلمى أخذت اسأله عن صحته حتى انه تعجب لكثرة اسئلتى وقال :

ـ تدهشني يا ميشا شدة اهتمامك بصحتى اليوم أكثر من كل يوم . فكأنك تشعر بالخلل الطارىء عليها والذى لم اكشفه بعد لاحد . كنت اظنني من حديد . لكن هذه الآلة العجيبة الصنع والتركيب التى ندعوها الجسد تنتابها علل

شأن كل آلة مركبة من أجزاء كثيرة ، بل ان عللها بعض من اجزائها . فأنا أخذت أشعر فى الايام الاخيرة برعشة فى قلبى ما شعرت بمثلها من قبل . وهذه الرعشة تشتد على فى بعض الاحايين الى حد أن تضيق انفاسى . فيصعب على أن أصعد الدرج من أسفل البناية حتى منزلى

ـ هل استشرت بشأنها طبيبا يا جبران ؟

ـ أنا اكره الطب ولا أؤمن بالاطباء . فهم يرون الجسد اجزاء متعددة ويحاولون أن يداووا الجـزء جاهلين ان علة الجزء هى علة الكل وأن مصدرها قد لا يكون فى المحسوس بل فى غير المحسوس . وكيف تداوى ما ليس محسوسا بالعقاقير والطلاسم الطبية المحسوسة ؟ مع ذلك قد اضطر الى مخابرة طبيب ، لعله يعرف جسدى وعلله خيرا منى

ـ ليس خفقان قلبك الا نتيجة جورك عليه يا جبران : أنصفه ينصفك . أنت تنهشه نهشا بقلمك وريشتك . وانت تنبش منه كل خباياه لتعرضها على الناس . وتسرق كل دقة من دقاته لتجعلها نغمة فى كلمة أو خطا فى صورة . وأنت تسهر الليل وتقضى جانبا كبيرا من النهار مطاردا قلبك حيثما ارتحل وأنى استقر . وانت فوق ذلك تجهد ما فيه من لحم ودم بكثرة ما تتناوله من القهوة ودخان التبغ والمشروبات الروحية ، فخفف من كل هذه

ـ الم تر أنى انقطعت عن القهوة بتاتا؟ اماالدخان فسأحاول أن اقلل منه . لكننى لن أستغنى عنـــه . وأما المشروبات الروحية فانى أعتقد أنها تنفع قلبى ولا تضره . لكن الدآء هو أعمق من كل ذلك يا ميشا . وقد لمست بعضه فيما قلته . فماذا أعمل ؟ أانقطع عن الكتابة والتصوير- وهما كل حياتى؟ إأترك « النبى » وهو ما يزال جنينا ـ وهو خير ما حبلت به روحى حتى اليوم ؟ بل سأمضى به حتى النهاية وان انتهت حياتى بنهايته . ولكن قل لى يا ميشا : ما الذى جعلك تكثر

السؤال عن صحتي اليوم ؟ ارأيت شيئا جديدا فى وجهى ؟

فأخبرته أنى رأيت حلما مزعجا ولم أخبره بتفاصيله . وذلك جرنا الى التحدث عن الاحلام وأصنافها . وكان كلانا يؤمن بأن النفس فى النوم تستجلى حالات كثيرة من حالات حياتها على ممر الاجيال . قد يكون بعضها تذكارات سحيقة من ماض سحيق كأحلام الطيران التى تعود بالانسان الى زمان كان فيه طائرا قبل ان يصير انسانا . وقد يكون بعضها أشباح رغائب دفينة لم تظفر بالتحقيق • أو رسوم أو أمور آتية مقررة فى سفر الزمان حيث يلتقى الماضى والمستقبل فى الحاضر الابدى . او خليطا مشوشا من الماضى والحاضر والمستقبل بما فيه من قلق جسدى وروحى . وفى اكثر الاحوال تكون رموزا تحتاج الى تفسير . ولا يندر أن تأتى جلية كأن يرى انسان فى نومه مدينة لم يرها قط فى يقظته . ثم يتفق له بعد حين أن يزور مدينة مثلها بالتمام

فرويت لجبران حلما رأيته منذ سنين حين كنت طالبا فى روسيا . وكان لا يزال جليا فى ذاكرتى كأنى ابصرته الليلة البارحة • وفسرت رموزه لجبران كما فهمتها وبينت له كيف أن ذلك الحلم كان بمثابة خريطة لحياتى بمعانيهاالواسعة لا بدقائقها الصغيرة . فقال جبران :

ــ أما أنا فلا أزال أذكر حلما حلمته من زمان . وكلما ذكرته ارتعشت . فقد رأيتنى جالسا على صخرة فى وسط نهر واسع المخاضة ، كثير الرغوة ، شديد العربدة ، ليس على ضفتيه أثر لانس أو لجن • ومع انى أحسن السباحة ، لم أكن فى خوف من طغيان النهر . بل كنت اشكر الله لاننى فى مأمن من المياه الصاخبة . وأعجب كيف توصلت الى الصخرة ، وافكر فى كيفية العودة الى اليابسة . وأنا كذلك واذا بأفعى عظيمة هائلة تخرج من النهر وتتسلق الصخرة التى أنا عليها • فترتعد فرائصى منها • وأحاول أن أرفسها ،

ثم أمسك بخناقها لادفعها عنى ولكن بغير جدوى . أما هى فتأخذ تلتف على دورة بعد دورة . ويشتد ضغطها وثقلها على أضلاعى الى ان تنحبس انفاسى. فأجمع كل قواى لاصرخ طالبا الاغاثة وعندها أفيق من نومى وقلبى يقرع أضلاعى فزعا وقطرات العرق البارد تبلل جبهتى

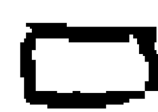
قلت :

ـ وما تفسيرك لمثل هذا الحلم يا جبران ؟

قال :

ـ فسره كما شئت . اما أنا فقد رأيت فيه رمزا لحياتى مثلما رايت انت فى حلمك رمزا لحياتك

ما ابهت كثيرا للحلم فىذلك الوقت ، ولاأخاله عبر بخاطرى مرة بعدها فى حيـاة جبران . أما بعد مماته فلا أكاد أذكر جبران واتفحص معانى حياته الا ذكرت ذلك الحلم ورايت فيه رمزا لتلك الحياة . فالنهر الصاخب هو العالم بأمجاده ومساخره ، وملذاته وأوجاعه ، ورغائبه واطماعه . والصخرة هى حقيقة الوجود الثابتة فى تيار الحياة العالمية . وقد أدركها جبران بخياله النشيط واطمـأن اليها بروحه . والافعى الخارجة من النهر هى ميول جبران العالمية وتعطشه الىمجد العالم وعظمته وملذاته . وهى التى افسدت عليه طمأنينته الروحية ونشوته الخيالية وقضت على أمنيته الكبرى .. أمنية التوفيق بين أعماله وأقواله والتوحيد بين ذاته الظاهرة وذاته الخفية



فى صيف تلك السنة اتفقنا أنا وجبران ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد ان نقضى عطلة قصيرة فى البرية . فانطلقنا فى أواخر يونيو الى مزرعة صغيرة تبعد نحو مائة ميل عن نيويورك اسمها كاهونزى . وهى واقعة فى قلب غاب تمتد اميالا كثيرة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا . فيها أنهار وجداول

وبحيرات ومنخفضات وتلال وأماكن مدغلة قلما تطأها رجل انسان . فى تلك العزلة الطافحة بالسلام ، المعطرة بالسكينة، المكحلة بالجمال قضينا عشرة أيام مرت كعشر دقائق . فقد كنا كأربعة عصافير افلتت من اقفاصها . أو كأربعة أحداث انعتقوا من المدرسة ومن تهديد معلميهم وأوامر والديهم . وكنا لا نمشي الا معا ولا نأكل الا معا ولا ننام أو نقوم الا فى ساعة واحدة . حتى ان أهل المزرعة والمصطافين فيها اطلقوا علينا لقب « الاربعة الكبار » ـ وهو لقب كان لا يزال شائعا على ألسنة الناس ، وكانوا يعنون به ممثلى الدول الاربع الذين كانت لهم أكبر يد فى تنظيم معاهدة فرساى ـ ولسن ولويد جورج وكليمنصو واورلاندو . ولا وجه شبه بيننا وبينهم الا من حيث العدد

وكان نسيب عريضة قد خبر تلك المزرعة وضواحيها من قبلنا بسنين . فكان دليلنا فى تجوالنا وتطوافنا . وذات يوم قادنا الى شلال يبعد عن المزرعة بضعة اميال . فما بلغناه حتى نسينا كل مشقة تكبدناها فى الوصول اليه . اذ وجدنا انفسنا فى قعر واد حجبته الاشجار والادغال عن الابصار وكانت تحجبه عن الشمس . كأنه متنسك لا تنقطع صلاته ليل نهار . وفى صلاته دوى الرعد ، وهيبة الوحدة ، ورهبة المثول أمام العزة الصمدانية وجها لوجه

اقتربنا من أسفل الشلال على قدر ما سمح لنا بالاقتراب منه . وهناك وقفنا بضع دقائق كالمسحورين . اشعة الشمس تكوى وجوهنا فيبددها الشلال برشاشه المتطاير فى الهواء كمسحوق دقيق من الماس . وابصارنا تتغلل فى تجاعيد المياه الغزيرة الهاوية من علوها الشاهق فتردها الوان النور المتكسرة عليها كليلة حائرة . واصواتنا تحاول ان تنطق بما فينا من دهشة فتخنقها هلهلة القطرات المتسابقة الى البحر . والاشجار عن جانبينا تنحنى ثم تستقيم . وتتأود

ذات اليسار وذات اليمين • والأعشاب بينها فى رعشة دائمة

وأخيرا أخذنا نفتش عن مكان نجلس فيــه • فرأينا صخرة فى وسط النهر على مقربة من مصب الشلال كأنها معدة لمن كان مثلنا يطلب منادمةالمياه الزاخرة فى خلوة من الطبيعة مثل تلك الخلوة . وكان بيننا وبين تلك الصخرة شقة واسعة من المياه المزبدة . لكنها لم تكن لتحرمنا لذة الجلوس على تلك الصخرة . فأخذنا نرمى فى النهر حجارة كبيرة وصغيرة الى ان تيسر لنا أن نجمز من الضفة الى الصخرة

جلسنا على تلك الصخرة ووجهتنا الشلال . ومع أنه لم يكن بيننا ولا واحد يحسن الغناء ، ما شعرنا الا ونحن نغنى . وكان من الواجب ، أن نحن لم نخجل من أنفسنا ، أن نخجل من أصواتنا المتهدجة ترتفع فى آن واحـــد ومكان واحد مع صوت ذلك الشلال . لكن هو الشلال جنى علىذاته . فلولاه لما ارتفع لاحدنا صوت . أما أغانينا فكانت كلها من الاغانى القومية القديمة المعروفة فى لبنان وسوريا • مثــل « العتابا » و « الميجانا » و « أبو الزلف » و « المواليا » . ومن بعدها اخذنا نسرد ما نذكره من الشعر العامى القديم . فأنشدنا جبران « موالا » كان شديد الاعجاب به ومطلعه :

« يا زين عن درب الهوى ضعنا　　من كتر ما فيكم تولعنا
مشتــاق اليــكم والمجــال بعيد　　يا ريتنـــا كنا تودعنا »

والذى زاد فى زهونا وأنسانا خشونة أصواتنا قليل من العرق شربناه ممزوجا برشاش الشلال. وعندما نفد ونفدت بضاعتنا الغنائية نزعنا أحذيتنا وانحدرنا الى النهر ندغدغه تارة بأيدينا وطورا بأرجلنا ، شاعرين كما لو كنا ننزع عنــا كل أثقال المعيشة ونطهر أنفسنا من كل أدران الماضى ومخاوف المستقبل



وآن وقت العودة . فودعنا الشلال حاملين صـــلاته فى

أرواحنا وجمال هيكله بين أجفاننا . ورجعنا أدراجنا سالكين الى المزرعة شعابا تكتنفها الاشجار والادغال . وسار نسيب وعبد المسيح فى المقدمة ومشيت أنا وجبران فى المؤخرة . وبيننا وبين رفيقينا مسافة لا يمكنهما معها سماع حديثنا ولايمكننا سماع حديثهما. وكنت وجبران نتحدث بالانجليزية، شأننا فى كل أحاديثنا عن الادب والفن والامور الروحية . وكان حديثنا فى قطعة قرأها لى منذ أمد قريب عن المحبة وقال انها ستكون الاولى من سلسلة قطع على شاكلتها ينوى تأليفها ونشرها فى كتاب سيدعوه « النبى » . وكان قد سبق لى أن أبديت له اعجابى بتلك القطعة وارتياحى لانتقاله من « التمرد » على الناس وحياتهم الى تفهم أسرار تلك الحياة وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكلى . وانتهى بنا الكلام الى الصمت الذى هو أفصح من كل كلام

قطعنا ساعة من الطريق على وقع أفكاره الصامتة . والاشجار عن جانبينا تستقبلنا وتشيعنا صامتة . والطريق تحملنا كأنها بساط من ريح

ونحن كذلك ، واذا بجبران يقف فجأة ويضرب الطريق بعصاه وينادى « ميشا ! » فأقف مثله وألتفت اليه . فأرى بهجة الشلال قد طارت من عينيه وحلت محلها سحابة من الكآبة المريرة . ثم أسمعه ينادى ثانية باسمى ويقول :

ـ ميشا ! أنا نبأ كاذب ! I'm a False alarm

ثم يطرق ويعود الى الصمت

من كل الوقفات التى وقفتها وجبران خلال خمس عشرة سنة لست أذكر وقفة كانت ابعد أثرا فى نفسى من تلك الوقفة . ومن كل ما قاله لى منذ التقينا حتى افترقنا لم يهزنى شىء مثلما هزتنى تلك الكلمات الثلاث

أهى الساعات التى قضيناها فى منادمة الشلال ؟ أهى روح الكرمة التى شربناها ممزوجة بروحه ؟ أم هى هيبة الحقيقة

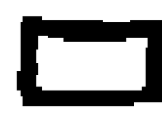
العارية المهيمنة فى الغاب دفعت جبران ليقف تلك الوقفة ويفوه بتلك الكلمات ؟ ـ لست أدرى . غير أننى شعرت بروح رفيقى تتعصر من الالم وتستغيث . ولعل الطبيعة التى لا تعرف التكتم والتستر ، فلاتظهر بغير مظهرها ولاتستحيى بحالة من حالاتها ، سطت عليه بكل ما فيها من سحر التعرى والصدق والامتثال ، وبأسرع من لمحة الطرف أثارت كل زوايا قلبه وخزائن نفسه فجعلته يخجل من كل ما تخبأ فيها من ضعف تردي برداء القوة ، وتصنع امتسح بمسحة الجمال ، وشهوة نهمة بدت كأنها العفة الصائمة . فرأى نفسه نبياً كاذبا وهاله ان يكون ذلك النبأ فى حضرة الطبيعة التى لا تعرف الكذب ولا الغش . وهاله أكثر من ذلك أن يكون رفيقه الماشى بجانبه ممن صدقوا النبأ . فلم يتمالك من الاعتراف له . بل لم يجد كالاعتراف لصديقه منقيا لقلبه ومطهرا لنفسه . ولم يجد أفضل من الطبيعة شاهدا على صدق اعترافه

ومثلما هال جبران أن اكون مخدوعا بظواهر حياته عن بواطنها ، هالني أن يمضى فى اعترافه أمامى فيجلد نفسه العاتية المتمردة أمام عينى وينزع عنها دروعها الحديدة ، ويتركها عريانة وبلا سلاح . ومن ثم فمن أنا لاقتبل اعتراف نفس وان تكن أختا لنفسى ؟ وقد تكون نفسى أحوج الى الاعتراف منها . لذلك عند ما حاول جبران أن يتوغل فى تشريح « النبأ الكاذب » غيرت مجرى الحديث واسرعت فى السير

فى مساء ذلك اليوم خرجنا نحن الاربعة نتمشى علىالطريق العمومية ، وكانت الشمس قد غابت وأشباح الغسق قد انتشرت فى الغاب . وكنا فى جدل وأحاديثنا تتنقل بسرعة خطواتنا . ثم أخذنا نتبارى فى تصنيف «القرادى» . وعندما مللناه سكتنا هنيهة كأننا فى هدنة . وفى أثناء تلك الهدنة خطر لى بيت من الشعر فأنشدته على مسمع الآخرين

وهو :
« أسمعيني سكينة الليل لحنا   من نشيد السكينة الابدية »
فما كان من أحدهم الا أن أردف البيت ببيت من عنده على ذات الوزن والقافية . وهكذا رحنا ينظم واحدنا شعرا والآخر يكمله الى أن تمت لنا قصيدة من ثلاثة عشر بيتا . وها أنا أثبتها ، لا لما فيها من كنوز شعرية بل كأثر تاريخي وعلى سبيل التفكهة . ولو سألني القارىء لمن هذا البيت أو ذلك الشطر لاجبته بالتقريب لا أكثر . لذلك أترك له الحق في رد المصاريع الى أى من الاربعة . واليه القصيدة :

« اسمعيني سكينة الليل لحنا	من نشيد السكينة الابديه
وافتحي يا نجوم عيني على	أن أرى بيتك الطريق الخفية
واجعلي يا رياح منك بساطا	واحمليني الى الرياض العليه
واخطفي يا نسائم الليل روحي	وخذيها مني اليك هديه
ودعيني هناك أسرح حرا	انما العبد يشتهي الحريه
طال سجني وطال في الاسر يأسي	واحتمالي لحالتي البشريه
أنا ما لي وللورى فارفعيني	ودعيهم في بؤسهم والرزيه
مل قلبي بغضاءهم وهواهم	مل قلبي سبابهم والتحيه
ولساني قد صار يخشى لساني	وجناني أضحى على بليه
وفراشي شوكا ونومي ارتعاشا	ويقيني شكا وبري خطيه
وشرابي تعللا وأواما	وطعامي مجاعة روحيه
ولباسي رماد فكري تذريه	رياح تثيرها الامنيه
تلك حالي ــ حرب عوان فان	اظفر فنفسي قتيلة أو سبيه »



ودعنا كاهونزي وعاد كل منا الى نيره . وسافر جبران الى بوسطن ليقضى ما بقي من الصيف مع أخته ماريانا . وكان من عادته أن يصرف موسم الميلاد ورأس السنة وأيام الصيف معها . وكان آخر ما قلته له عند ما ودعته في ذلك الصيف :
ــ دار قلبك يا جبران ، دار قلبك !



جبران والمؤلف (عن يمينه)
في غابات كاهونزي

الفصل الثالث

الفجر

الضباب يتبلور

« أخي ميشا

مذ جئت هذه المدينـــة وانا أتنقل من طبيب اختصاصي الى طبيب اختصاصي ، ومن فحص دقيق الى فحص ادق . كل ذلك لان هذا القلب قد فقد وزنه وقافيته . أنت تعلم يا ميخائيل ان وزن هذا «القلب» لم يكن قط مطابقا للاوزان ، وقافيته لم تكن البتة مماثلة للقوافي . ولما كان العرض تابعا للجوهر والظل للحقيقة كان من المقرر والمحتوم أن تأتلف هذه الكتلة فى صدرى مع ذلك الضباب المرتعش فى الفضاء ـ ذلك الضباب الذى أدعوه « أنا »

« لا بأس يا ميشا ، فكل ما قدر يكون . غير أننى أشعر بأننى لن أترك لحف هذا الجبل قبل طلوع الفجر . وسيلقى الفجر نقابا من النور والبهاء على كل شيء »

(من رســــالة بعث بها جبران الى من بوسطن فى أواخــر صيف سنة ١٩٢١)

« أنا » ـ هى ألف الوجـــود وياؤه ـ من عرفها عرف كل شيء . ومن جهلها جهل كل شيء . من عرفها عرف لذة الالم وتذوق الطمأنينة الروحية حتى فى انكد حالاته . ومن جهلها جهل مرارة اللذة ولم يعرف سوى الالم حتى فى اســـعد أوقاته . والفرق بين الناس ليس على قدر ما يملكه ذاك أو هذا من مال أو عقار أو جاه أو موهبة او صيت او سلطة وما اليها من صنوف التفاوت البشرى . بل الفرق على قدر ما يضيق الواحد منهم « أنا » ويوسعها الآخر

ما الفرق بين القائل : « من ضربك على خدك الايمن حول له الايسر كذلك » وبين القائل : « عين بعين وسن بسن » الا الفرق بين من ادرك أن كل « انا » منبثقـــة من « انا » الشاملة . فهى شاملة مثلها . فالضارب والمضروب فيهـا واحد . وبين من حصر « أنا » ضمن حظيرة من الاوهام فراح يثأر لها من كل متعد عليها جاهلا أنه المتعدى والمتعدى عليه . وأنه يثأر من ذاته لذاته . وما الوحى الا انفتاح كوة فى الروح تنفذ منها أشعة « أنا » الشاملة وتبدد ضبـــاب الفردية المحصورة فتبصر الروح ذاتها واذ ذاك فما « القضاء » الا مشيئة الكل ، فى الكل ، وللكل . فهو فوق خيرنا المحصور وشرنا المحدود . ولا « القدر » الا ما تحتمه النفس على ذاتها ما دامت مصرة على الاحتفاظ بالضباب الذى ندعوه « انا »

غير أن سواد الناس لا تزال كوى أرواحهم مغلقة دون اشعة « أنا » الشاملة . ولذلك لا يزال ما يدعونه « أنا » ضبابا . ولذلك كان كل ما يصدر منهم ضبابا فى ضباب . وكانت حياتهم مقايضة مستمرة بين اللذة والالم . أما الذين انفتحت كوى أرواحهم فأبصروا انفســـهم فى كل نفس ، واتصلت حياتهم بكل حياة ، وطبقوا أعمالهم على أفكارهم . فهؤلاء هم رسل الحق وهداة البشرية اليه . ولا عجب لو عبدهم الناس . فهم قد اكتشفوا الاله فى الانسان

هل عرف جبران الوحى ؟ لقد عرفه مثلما عرفه كل ذى خيال طليق، فأنت تلمح له وميضا متقطعا فى بعض مقالات «دمعة وابتسامة » ثم يغيب عنك ذلك الوميض من بعد ان استسلم جبران لسحر نيتشه فثار على الناس وكاد يغرق فى رغوة ثورته ويختنق بعجاج معاركه من غير أن يغرق أحـدا من الناس أو يخنق طقسا من طقوسهم . فكأنه فى تلك الفترة من حياته الروحية والادبية كان يثير حربا ــ بل حروبا ــ انما على جبهات مختلفة . فعلى الجبهة الواحدة كان يحارب

الفقر . وعلى الاخرى الادب والفن لينال منهما القسط الذى كان يحسبه من حقه . وعلى الثالثة الناس ليحملهم على اكبار أدبه وفنه • وعلى الرابعة قلبه ومن احتله أو حاول احتلاله من النساء . فكان فى شغل عن جوهر « انا » الشاملة وموحياتها . بل انه أوصد دونه كوى روحه بما اثارته من حروبه العنيفة من عثير وضباب

لكنه ، بعد أن تحصن من الفقر ولو بعض التحصن ، وتمكن من أدبه وفنه ، وآنس من الناس ارتياحا اليهما ، واستقر قلبه على حب امراة واحدة ، ثاب الى نفسه يسترشدها ويستفسرها ويفتح كواها لاشعة الوحى . فلم ترذله نفسه ولم تخيبه . بل راحت تعظه وتعلمه وتصوغ له من الضباب الذى كان يدعوه « أنا » جوهرة نورانية تنعكس فيها كل ذات من غير أن تحدث أقل تعكير فى صفائها ، أو أقل تشويش فى جمالها :

« وعظتنى نفسى فعلمتنى وأثبتت لى اننى لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة . وقبل أن تعظنى نفسى كنت أحسب الناس رجلين : رجلا ضعيفا أرق له أوازدرى به ، ورجلا قويا أتبعه أو أتمرد عليه • أما الآن فقد علمت أننى كونت فردا مما كون البشر منه جماعة • فعناصرى عناصرهم وطويتى طويتهم . ومنازعى منازعهم ومحجتى محجتهم . فآن أذنبوا فأنا المذنب . وان أحسنوا عملا فاخرت بعملهم . وان نهضوا نهضت واياهم ، وان تقاعدوا تقاعدت واياهم »

ان بين هذا القول وقوله : « اننى أكرهكم يا بنى أمى لانكم تكرهون المجد والعظمة » لوهدة عميقة . ولكنهما ، على كل ما بينهما من التناقض ، موجتان من بحر واحد . فجبران الذى يكره الناس القانعين من حياتهم بغير المجد والعظمةهو نفس جبران الذى يرى ذاته شريكا لكل أثيم فى اثمه • ولكل

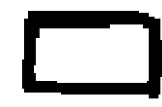
عبد فى عبوديته . ولكل ضعيف فى ضعفه . ذاك جبران فى عالم الظواهر . وهذا جبران فى عالم البواطن . ذاك ضباب يعميك عما فيـه من نور . وهـذا نور ينسيك ما حوله من ضباب . ذاك هو القشرة ، وهذا هو اللب

هكذا خمدت ثورة هذا الثائر الذى كان يدعو نفسـه ، ويباهى اذا ما دعاه الغير ، ثائرا ومتمردا . وهل الثورات بكل أنواعها غير فوران تلهيك رغوته عن صريحه ؟

ما اتسعت ذات إنسـان فعانقت الذات الجامعـة آلا رآه مضطرا الى نبذ كل محدود ومحصور . ومتى نبذ الانسان المحصور والمحدود أصبحت عنده كل مقـاييس النـاس وموازينهم الاعيب صبيانية . فأصبح لا يرى العلة الا رأى فيها النتيجة . أو البداية الا أبصر فيها النهاية . وبكلمـة اخرى أصبح لا يرى الا دوائر وأشكالا كروية حيث يرى غيره خطوطا مستقيمة ومكسرة ، ومسطحات ومربعات ومكعبات. فصار لا ينطبق منطقه على منطق الناس . ولا يماشي فكره أفكارهم . هم يخاطبونه بعقولهم واستنتاجاتها وهو يخاطبهم بخياله وومضاته . فاذا ما رأى قاتلا وقتيلا قال فى كليهما أنه القاتل والقتيل في وقت واحـد . واذا ما سمع منشـدا ونائحا كان الانشاد والنوح عنده سيين على حد قول المعرى :
«وشبيه صوت النعى اذا قيس بصوت البشير فى كل واد»

وقد تعجب ، مثلما أعجب ، لهذا الخيال الشرقى كيف أنه ينفذ أبدا من البدايات الى اللابداية . ومن النهايات آلى اللانهاية . ومن المحسوس الى غير المحسوس . فمذاهب الشرق كلها ، على وفرتها واختلافها فى الظاهر ، تلتقى فى ذلك الجو الفسـيح حيث المسبب والمسبب واحد . وكل ذى خيال طليق لابد من ان يدرك ذلك الجو بخيـاله . ولكن الويل كل الويل لمن كان خياله أنشط من ارادته . فهو كالطيارة التى يطلقها الاولاد فى الهواء مشدودة بخيط فى أيديهم . فلا تتذوق حرية الفضاء

حتى يجذبها الخيط الى عبودية الارض • ومن كان كذلك لن يتحرر من ربقة الارض ولا بالموت • تلك كانت حال جبران مع خياله وارادته . والمجد كل المجد لمن كان نشاط ارادتهم كنشاط خيالهم • هؤلاء ، وان مشوا بأرجلهم على الارض ، فقلوبهم أبدا في السماء • وهم قد تحرروا من الموت قبل أن يموتوا • وما أقل ما هم فى تاريخ البشرية !



« ميشا • ميشا ! نجاني الله واياك من المدنية والمتمدينين • ومن أمريكا والامريكيين • ونحن سننجو باذن الله • وسنعود الى قمم لبنان الطاهرة ، وأوديته الهادئة • وسنأكل من عنبه وبقوله ، ونشرب من خمره وزيته • وسننام على بيادره، ونسرح مع قطعانه ، ونسهر على شبابات رعاته وخـــرير غدرانه • ـ ما بالك لا تدخن ؟ أشعل سيجارة ، ولا تخش من الدخان أن يحجب وجهك عنى • ـ أمل رأسك الى اليسار قليلا • هكذا هكذا ـ آه ! لقد صح لى النور الذى أرغب . وسأنتهى منك بأقل من ساعتين • ـ التصوير كالنظم يا ميشا : اذا تملكك الموضوع واهتديت الى القالب المناسب نظمت القصيدة بسرعة وبغير عناء ، فكأنها نظمت ذاتها كذلك اذا آنست ممن تصوره ، أو فيما تصوره ، قوة تستفزك الى التصوير ، فالصورة تصور ذاتها فتصبح الريشة فى يدك بعضا من يدك • وتصبح أناملك كأن فى رأس كل منها عينا • وكأن كل هــــذه العيون تبصر بحدقة واحدة • استرح قليلا اذا كنت قد تعبت »

كنت جالسا فى كرسى على دكة التصوير • وعلى مقــــربة منى المنصب • وعلى المنصب لوحة من الكرتون الابيض بقياس ٤٢ × ٥٥ سنتيمترا • وجبران يصورنى عليها بقلم من رصاص حسب عادته مع كل من صورهم فى حياته من الرجال والنساء . ومنهم رودين ، وطاغور ، وميسفيلد ـ شاعر بريطانيـــا ـ والمصور الامريكى ريدر ، والكاتب الاســـوجى سترندبرج

وسواهم • مكتفيا بتصوير الرأس لا غير

كنت أرقب حـــركات جبران وهو يصـــورنى فتدهشنى بسهولتها ورشاقتها • فكان بعد أن يحدقنى هنيهة يهجم على المنصب بقلمه الرصاصى الذى لم يكن يتجاوز الاربعةالقراريط ويعمله فى لوحة الكرتون . ثم يأخذ ينقل بصره من اللوحة الى وجهى ومن وجهى الى اللوحة • ثم يبتعد قليـــلا عن المنصب ويأخذ يزورنى تارة واللوحة أخرى ثم يعود الى اللوحة بقلمه أو بالماحى (المحاية) الذى لم يكن أكبر من حبة الفول • وبعد أن يفركه بين ابهامه والسبابة حتى يتكون له رأس كرأس القلم يأخذ يصلح به بعض الخطوط أو الظلال،وكثيرا ماكان يستعيض عن الماحى بأصبعه ــ بالسبابة أحيانا وأحيانا بالوســـطى ــ ليخفف من ظل أو ليمد ظلا • كل ذلك ووجهـــه مشرق بلذة العمل ، ولسانه جذل يجارى بالسرعة قلمه • وأنا اذ آنست منه تلك الرغبة فى الكلام ، تركت له الحديث•فما كنتأقاطعه الا لأستزيده

ــ ليس يتعبنى من كل من أصورهم مثل النساء يا ميشا • فقلما ترضى الواحدة منهن بصورتها كما تراها عينى ويبرزها قلمي • لانها ، ان تكن عليها مسحة من الجمال ، تتوقع منى أن أصورها أجمل من فينيس • وان تكن خلوا من الجمال ، تحسب من واجبى أن أجعلها جميلة•وأنا لا أسخر فنىلأحد• فالمعانى التى أراها فى الوجه الذى أمامى هى التى أصورها . والوجه يعكس كل معانى الروح لمن يعرف كيف يستجليها • والفن كل الفن فى تصويرها ، فهى مركبة مندقائق لا تحصى• تبصرها عين الفنان اذا كان أهلا لان يدعى فنانا وقلما تبصرها حتى عين صاحبها • أما الآلة الفوتوغرافية فعمياء عن الـكثير منها . ولو لم يكن الامر كذلك لقامت الآلة الفوتوغرافية مقام الفنان • لكنها لا ولن تقوم مقامه • ومن الآن حتى انقضـــاء الدهر لن تقوم آلة مقام انسان

« لابد يا ميشا ، لابد لى ولك من الرحيل عن هذه البلاد . فالويل لمن كان مجهولا فيها لانه ليس أثمن من خرقة. والويل لمن نال فيها ولو بعض الشهرة لانه يصبح مثل ممسحة . أنا اليوم ممسحة يا ميشا . ونفسى تطالبنى بعزتها . وفكرى يطالبنى بحريته . وجسمى يطالبنى براحته . ولن أستعيد عزة نفسى وحرية فكرى وراحة جسمى الا فى لبنان. ولو كنت تعرف الصومعة التي اخترتها لي ولك هناك لكنت تجذبني من يدي في هذه الدقيقة وتقول : هيا بنا اليها . هى صومعة أصلية يا ميشا لا تقليدية كصومعتي هذه »

فقلت بلجاجة :

ـ هات أخبرنى عنها بالتفصيل

ـ هى دير مهجور فى ضاحية من ضواحى بشرى اسمه مارسركيس قائم فى جبهة وادىقاديشا ، فى سفح جبلالأرز. أما غرفه القليلة ، ومنها كنيسة صغيرة ، فمحفورة حفرا فى قلب الجبل الكلسى . وأمامه منحدر من الارض لا تزال فيه بعض أغراس قديمة من الكرمة . هى خلوة يا ميشا لا أظن فى السماء أجمل منها . وأنا قد فوضت محاميا فى طرابلس ليبتاعها لى لكننى أخشى من الرهبنة ـ قاتل الله الرهبان والراهبات ـ أن تمتنع عن بيعها لى . لاننى ، كما تعلم ، رجل كافر فى نظر الرهبان والراهبات . مع ذلك ، لى ثقة كبيرة بصديقى المحامى . فهو لا شك سيدير الامر بحنكة ودراية

« هناك سنعتزل العالم يا ميشا . وسنحلم ما طاب لنا أن نحلم . وسنكتب ما شئنا أن نكتب . وسنقتنى مطبعة كاملة المعدات نذيع بواسطتها أحلامنا على الناس. وسنجعل من الطباعة فنا جميلا . وسنعمل فى الارض فنحول اليابس منها اخضر . والقاحل خصبا . وستباركنا الرياح ، وتفرح بنا الشمس ، ويحمل الينا الوادى أنفاسه الملهمة »

قلت وقد شاقنى وصف جبران لتلك الصومعة ، وأيقظ فى

نفسى أمنية قديمة عميقة :
ـ نحن اليوم فى نوفمبر من سـنة ١٩٢٢ • فما قولك لو استقبلنا ربيع السنة القادمة على كتف وادى القديسين ؟
فأجابنى ، وكان فى جوابه شىء من التردد . وكان تردده كالماء تصبه على نار متأججة :
ـ لى علاقات كثيرة هنا لا يمكننى قطعها فى شهر أو أشهر • وعندى بعض أشغال لابد من تتميمها • ومنها نشر كتـابى : النبى
قلت :
ـ ما زلت ههنا فعلاقاتك تزداد من يوم ليوم • وما دامت لك اليوم أشغال لا يمكن انجازها فى لبنان فستبقى تولد لك أشغالا جديدة من نوعها • فلا تسـكن مار سركيس الا فى أحلامك
ـ لا بل سأسكنه ـ سنسكنه يا ميشا ـ بالجسد • اذاكنت قد مللت هذا العالم ـ عالم الماكينات والخيالات ـ فأنا قدمللته مثلك وأكثر • وأنت وأنا لم نجد منه ملجأ أجمل وأهنأ وأقدس من مار سركيس • وأنت ستحب تلك الصومعة مثلما أحبهـا
قلت :
ـ لقد جعلتنى أحبها منذ الآن • وستزورها أحـلامى مرارا عديدة قبل أن تزورها عيناى وتطأ ترابها قدماى . الا قربنا الله منها أو قربها منا
تحدثنا طويلا فى مار سركيس • ولا شـك فى أن الاقدار التى كانت تصغى لحديثنا كانت تضحك منا • لانها كانت تعلم أن جبران لن يدخل تلك الصومعة الا محمولا على الايدى ، وفى نعش من صنع تلك الماكينات التى كان يود أن يهرب منها . واننى لن أزورها لانقطع فيها الى التأمل . بل لأطرح سلامى على جثمان رفيقى معطر بأنفاس طاقة جمعتها بيدى من أزهار جبل الارز المقدس

المصطفى

عندما أطل جبران بخياله على عالم الوحدانية الكاملة ،حيث الحياة ألفة أبدية ، تضاءلت في عينيه كل العوالم التى سكنها من قبل والتى كان يحسبها حقيقة ولم تكن الا وهما • وصار اذا ما ذكرها فكما يذكر الطائر قشرة البيضة التى نقف منها . أو كما يذكر النهر الصخور والادغال والاوحال التى مر بهـا قبل أن يبلغ البحر • أو كما يذكر من تسلق جبـــلا الاودية والهضاب التى اجتازها قبل أن يدرك القمة • وصـــار كيفما أطلق خياله فى جو عالمه الجديد رأى كل ما فيه يعانق بعضه بعضا عناق محبة لا حواجز فيها ولا حد لها. فراح يمجد الحياة ــ وقد دعاها من قبل عاهرة ــ ويهتف من اعماق قلبه :

ــ ما أكرم الحياة وما أسنى هباتها !

« ليت لى ألف يد منبسطة امام السماء والارض بدلا من هذه اليد المستحيية القابضة على حفنة من تراب الشاطىء »

ويشتهى لو كان له ألف عين ليرى كل ما فى الحياة من جمال• وألف أذن ليسمع كل أنغامها الساحرة • ولانه شاعر ــ وداء الشاعر بث مشاعره وأفكاره بالكلام ، ولانه مصور ــ ومحنة المصور تصوير ما يراه من الحيـــاة ، راح يفكر فى « كيف » يخبر الناس بالكلام والخطوط والالوان عن الجمال الذى رآه فى عالمه الجديد

و « كيف » هذه ذات قيمة عظيمة فى نظر الشاعر والفنان• اللهم اذا كان الشاعر شاعرا والفنان فنانا . فهى من الشعر

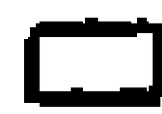
والفن بمثابة الجسد من الروح • وهى لا تنحصر فى تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والالوان • بل هى القالب الذى يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والالوان من بعد التنسيق • والفنان يعنى بقوالبه عنايته بما يسكبه فيها من روحه ، لعلمه أن جمال القالب يزيد فى جمال ما يسكب فيه • لذلك عندما تنسم جبران بخياله جمال الروح الكلى ، وشاقه أن يخبر الناس عنه ، كان همه الاكبر أن يخلق القالب الفنى اللائق به . فما هو القالب الذى خلقه ؟

لقد خلق جبران رجلا دعاه « المصطفى » وجعل روحه نيرة الى حد أن سامعيه كانوا يخاطبونه « يا نبى الله » • وفى انتقاء الاسم وحده ما يحمل على التجلة والاحترام • فكلمة تسمعها من فم انسان عليه وشاح النبوءة لأكبر وقعا بما لا يقاس من الكلمة عينها تسمعها من رجل عادى . وهكذا ، بكلمة واحدة ، رفع جبران الفنان قيمة شعر جبران الشاعر الى مستوى النبوءة حتى قبل أن يفوه به

لكن جبران الفنان عرف كيف يخلع على مصطفاه وشاح النبوءة. فهو يبرزه لك رجلا غريبا فى مدينة اسمها «اورفاليس» صرف فيها اثنتى عشرة سنة فى انتظار سفينته التى كانت قادمة لتعود به الى الجزيرة التى هى مسقط راسه . ثم يصعد به اكمة خارج المدينة حيث يبصر سفينته مقبلة فى الضباب . فيفتح لك قلبه ويريك ما يتمايل فيه من العواطف المتضاربة بين لذة الانعتاق من الغربة وألم الوداع • فتفهم الى أى حد أحب مدينة غربته وأهلها والى أى حد أحبوه • ومن بعد ذلك يهبط به المدينة • واذ يبصره أهلها ويدركون أنه مودع يتركون كل أعمالهم ويتقاطرون اليه ويلحون عليه بالبقاء بينهم . فلا يجيبهم الا بالصمت والدموع . وأخيرا يسير واياهم الى الساحة الكبيرة أمام الهيكل • وهناك تخرج من الهيكل رائية اسمها « الميترا » • فيرمقها المصطفى بحنان كلى « لانها كانت أسبق

الناس الى اكتشـافه والايمان به حين لم يكن قد مر عليه فى مدينتهم الا يوم واحد »

الميترا هذه تدرك ان لا مرد لعزم المصطفى لانها تعرف عظم شوقه الى « أرض تذكاراته ومسكن أمانيه الكبرى » فتطلب اليه أن يحدثهم قبل الوداع عن انفسهم وعما عرفه بالوحى من كل ماهو بين الولادة والموت ، بادئة بالحب او المحبة . وهكذا تفتح المجال فسيحا للمصطفى ليكشف لسـامعيه علائقهم بعضهم مع بعض ومع الحياة ، لا كما يرونهـا بأعينهم المقنعة بالاوهام ، بل كما يراها هو بعين روحه الصافية فى عالم الروح الصافى . فيمضى فى حديثه الطلى . ولا ينتهى من علاقة حتى يسأله بعض السامعين أن يحدثهم فى أخرى . وبعد أن يلقى عليهم خمسا وعشرين موعظة فى خمس وعشرين جهة من جهات الحياة الانسانية يودعهم مؤثرا وينصرف عنهم الى بلاده



هذا هو القالب الذى اختاره جبران ليسكب فيه خلاصـة أفكاره فى الناس وحياتهم . وهو ، كما ترى ، قالب جميـل يليق بما يحمله ، وما يحمله يليق به . لكنه ـ ويا للاسف ـ لم يكن كله من صياغة جبران . فشكله الاجمالى مستعار من نيتشه وزرادشت . فكأن جبران الذى تخلص من سطوة أفكار نيتشه لم يتخلص من سطوة أساليبه البيانية والفنية . ولم يكن يعلم أنه لم يتخلص

نيتشه اتخذ زرادشت ــ وهو نبى ــ بوقا لافكاره. وجبران اتخذ نبيا دعاه « المصطفى »

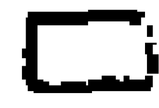
زرادشت نيتشه يسير غريبا بين الناس ناثرا عليهم أفكاره . وعندما تتعب روحه من الغربة بينهم وتحن الى العزلة الملهمة يتركهم ويعود الى «جزائره السعيدة» . ومصطفى جبران ينثر مواعظه على الناس ثم يعود بعد غربته بينهم الى « الجزيرة التى هى مسقط رأسه »

زرادشت نيتشه يودع تلاميذه فى آخر القسم الاول من الكتاب ويقول لهم فيما يقوله : « وأنا لن اعود اليكم الا متى انكرتموني كلكم » ومصطفى جبران يودع اصحابه قائلا فى بعض ما يقوله لهم : « أما اذا تلاشى صوتي فى آذانكم ، وطار حبى من ذاكرتكم ، فانى عائد اليكم مرة ثانية »

زرادشت نيتشه ، فى أول القسم الثالث ، يتأهب للعودة من الجزائر السعيدة الى العالم • فيصعد جبلا عاليا وفى صعوده يكشف قلبه وآلامه . ثم يشرف على البحر فيخاطبه هكذا : « وأنت أيها البحر القاتم ، الحزين ، المنبسط تحتى ! أيها القدر وأيها البحر ! اليكما أنحدر الآن » ومصطفى جبران يصعد هضبة خارج اورفليس ويخاطب قلبه طويلا ثم يرى البحر فيخاطبه هكذا : « وأنت أيها البحر الشاسع ، أيتها الأم الهاجعة ، فيك وحدك السلام والحرية للجدول وللنهر • سيدور هذا الجدول دورة بعد • سيهمس بعد همسة فى هذه الغاب • ومن بعدها سآتيك قطرة لا تحد الى محيط لا يحد »

وكما أن زرادشت هو نفس نيتشه ، كذلك المصطفى هو نفس جبران • وكما أن نيتشه طرح على زرادشت نقابا من التمويه الرمزى والمجازى يحجبه عن عيون الذين يجهلونه من قارئيه ، هكذا طرح جبران على المصطفى نقابا من المجاز والرموز يحجبه عمن ليس يعرفه • أما من عرف جبران كما عرفته فلا يصعب عليه أن يراه ويرى بعض ظروف حياته وكل أشواقه فى المصطفى وظروفه وأشواقه • فما اورفليس التى كان فيها غريبا يترقب رجوع سفينته الا نيويورك أو أمريكا . وما « الميترا » التى اكتشفته وآمنت به قبل كل الناس الا مارى هاسكل • ولا « الجزيرة » التى كان يشتاق العودة اليها غير لبنان • ولا وعده لأهل اورفليس بأنه سيعود اليهم سوى ايمانه بعقيدة التناسخ القائلة ان الموتى الذين لم ينهوا دورة

الحياة الكاملة يعودون حتما الى الارض ليجددوا عليها ويكملوا العلائق التى تركوها عند موتهم • ولك ، ان أنت شئت ، أن تتخيل فى غربة المصطفى فى اورفاليس غربة الروح عن ربها أثناء دورتها الارضية • وأن ترى في عودته الى « الجزيرة » عودته الى مصدر الحياة الأسمي•فالشاعر يترك المجال فسيحا لخيالك • وفى ذلك سر من أعظم أسرار فنه



لئن دفع جبران فى كتابه « النبى » جزية كبيرة لنيتشه من حيث القالب فهو من حيث الروح التى سكبها فى ذلك القالب لم يدفع جزية الا لخياله . أما تلك الروح فهى من ينبوع الروح الفياضة الذي تستقى منه كل روح • فاذا ما رأيت تشابها فائق الحد بين ما يبديه جبران من النظرات بلسان المصطفى وبين ما تقرأه من آثار بعض الصوفة ، وبالاخص فى كرازة بعض الانبياء والرسل ، فلا تتسرع بحكمك على جبران ولا تقل أنه قد نقل ما ليس له • بل قل انه قد تناوله بخياله من حيث تناوله من قبل ، ويتناوله اليوم ، كل خيال انعتق من كابوس المقاييس والموازين وجميع ما تقيسه من المحدودات المتناقضة• فهو من هذا القبيل لم يأت بشيء جديد ـ وهل من جديد تحت الشمس ؟ لكنه قال ما قاله بأسلوب يكاد يكون جديدا بنضارته ، وانسجامه ، وجمال ألوانه واتساقها ، ووفرة أنغامه وائتلافها ، مع قلة كلامه ، وقوة الحياة النابضة فى كل نبرة من نبراته ، وسكتة من سكتاته . حتى انك لو شئت أن تجد فيه عيبا يستحق الذكر لما استطعت • الا اذا قصدت التنكيت والتعنت • أو كنت ممن لا يستسيغون كثرة الطلاء فى الكلام • فقد نعيب عليه وفرة المجاز والاستعارة والكناية • وحينئذ ليس أسلوب « النبى » عندك غير طلاسم فى طلاسم • لان جبران في هذا الكتاب ، أكثر منه فى أى كتاب آخر ، بلغ أقصى مقدرته الفنية فى انتقاء التشابيه المبتكرة وابتداع

الاستعارات والمجازات الناتئة كتماثيل محفورة فى صخر • لكنها تماثيل مبهمة لمن لاميل فيه الى مثل هذا النوع من الفن • أو لمن حرم التمتع بها فى حلتها الانكليزية • فهى فى الترجمة تفقد الكثير من روعتها وطلائها لاسيما اذا كان المترجم قليل الحظ من الذوق الفنى وقصير الباع فى اللغة التى يترجم منها أو اليها

وماذا الذى قاله جبران بلسان نبيه ؟

فى « النبى » أشرف جبران بخياله على الحياة فرأى جوهرها واحدا وهو المحبة • ورأى الناس شركاء أسواء فى جوهرها لايتميز واحدهم عن الآخر الا بقدر ما أدرك الواحد ذلك الجوهر وجهله الآخر • وهذا الجوهر يذيع ذاته لكل الناس على السواء • لكن بعضهم لا يسمعه ولا يبصره لكثرة ما فى أذنيه من أصوات الحس المشوشة ، وما على بصره من غشاوات الوهم الكثيفة • أما الذى طهر أذنيه من جلبة الحواس الخارجية ومزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع أو يبصر من الحياة الا جوهرها الصافى • وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها بل يحبها بكليتها ويمتثل لها فيصبح واحدا واياها

لذلك يقول المصطفى لأهل اورفليس : « اذا ما أحببتم فلا تقولوا : ان الله فى قلوبنا • بل الأحرى بكم أن تقولوا : اننا فى قلب الله »

ومن كان فى قلب الله هل يرى من فاصل بينه وبين انسان ؟ أولا يصبح كل انسان فيه وهو فى كل انسان ؟ ومن كان كذلك كيف له أن يقول : أعطيت فلانا أو أخذت من فلان ؟ أوليس هو الآخذ عندما يعطى والمعطى عندما يأخذ ؟ واذ ذاك ففضل من يعطى كفضل من يأخذ ـ لا أكثر ولا أقل

ومن كان فى قلب الله كيف له أن يدين أثيما باثمه ؟ أفى الله اثم ؟ ـ حاشا • انما الاثم فى الانسان الذى لم يتوصل بعد الى ذاته الالهية • والناس فى الاثم سواء :

« أنتم لا تقدرون أن تفصلوا بين العـــادل والظالم ، وبين الصالح والشرير · من شاء منكم أن يرفع الفأس على شـجرة ليقطعها باسم الصلاح عليه أن يتفقد جذورها أولا · الحق أقول لكم أنه يجد الجذور الصالحة والطالحة ، والمثمرة وغير المثمرة ، ملتفة معا فى قلب الارض الصامت ··· وكما أن ورقة واحدة على الشجرة لا تصفر الا بمعرفة الشجرة كلها ، هكذا لايرتكب أحدكم جريمة الا بارادتكم الخفية المشتركة »

ومن كان في قلب الله كيف له أن يقيم حواجـــز بين شيء وشيء ، حتى بين نفسه وبين ما يأكله ويشربه ؟

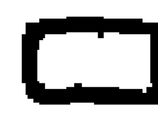
« ليت لكم أن تحيوا بأريج الارض ··· ولكنـــكم ما دمتم مضطرين الى القتل لتأكلوا ، والى سلب صـــغار البهائم حليب أمهاتها لتطفئوا عطشكم،فليكن أكلكم وشربكم نوعا من العبادة. ولتكن موائدكم مذابح تقدمون عليهـــا الطـــاهر والبريء من مواليد الغاب والسهل ذبائح لكل ما هو أطهر وأكثر براءة منه فى الانسان ··· وعندما تذبحون بهيمة قولوا لها فى قلوبكم: ان القدرة التى تذبحك تذبحنا···وما دمك ودماؤنا الاالعصير الذى يغذى شجرة السماء »

الى مثل هذا المستوى يرفع المصطفى سامعيه · مستعينا فى حديثه بالطبيعة ومظاهرها · وماسحا لهجته بمسحة ظاهرة من لهجة بعض أسفار « العهد القديم » ومستعيرا من الانجيل بعض الرموز والقوالب اللفظية مثل : « لقد قيل لكم كذا وكذا أما أنا فأقـــول لكم كيت وكيت ··· والحق أقول لكم » وسواها · الا أنه يفعل كل ذلك بحذاقة ولباقة وفن تنسيك ما فى حديثه من مستعار ، وتحملك علىأجنحة قوية سريعة الى حيث تقصد أن تحملك · فلا تودع المصطفى الا تحس بأنه قد أودع حشاشتك حشاشة السنين التىصرفها فىالتأمل والالم· وانه ـ ان كنت مغمض الروح ـ قد فتح فى روحك كوة واسعة تطل منها على الروح الكلى

وضع جبران لكتابه « النبى » اثنى عشر رسما . عشرة منها بالأدهان المائية واثنان بالرصاص ، وهما رسم المصطفى فى أول الكتاب و « اليد المبدعة » فى آخره • أما المصطفى فأول ما يستوقفك من وجهه عينان واسعتان ذاهلتان تبدوان كأنهما لا تنظران الى شيء ولكنهما تبصران ما هو أدق من الاشـــياء وأقصى من مجال الأبصار • ثم تنظر الى فمه بشفتيه المتلاصقتين فتكاد تحسبهما متورمتين بحمى الشهوات الجسدية لولا ما فيهما من حزن عميق وصمت يترفع عن الشهوات وكل ما فيها من ضوضاء النزاع والغيرة والاستقتال • وعلى الوجه كله ، بما فى تقاطيعه من صلابة وقوة ، تطفو سحابة شـــفافة من الكآبة القصوى التى تكاد تلامس الفرح الأقصى • أما الشعر فقد انسدل على جانبى الوجه الى تحت الذقن بسهولة وخفة ونعومة تنسيك أنه شعر وتجعله يبدو كهالة من نور • هو وجه تحدق اليه طويلا فترى فيه ميدان عراك عنيف بين ما استتر تحتــه من أهواء الارض وأشواق السماء وترى الغلبة بجانب السماء • لكنها غلبة لم تلتئم بعد الجراح التى سببتها • ولم تلحد بعد الاشلاء التى تركتها مبعثرة فى ساحة القتال

وأما « اليد المبدعة » فيد منبسطة تكاد تلمس قوة الفن فى كل أصبع من أصابعها • وفى وسط كفها عين مفتوحة تبصر كل شيء • ومن حولها دائرة من الاجنحة المتلاصقة بأطرافهــا وكأنها فى زوبعة من الحركة السريعة • ومن حــول الاجنحــة سديم أو ضباب تطوقه دائرة من الاجســام البشرية المشتبكة بعضها ببعض • هــذه يد الله • فى لمسها بصر • وفى بصرها خيال • تتخيل الاشكال قبل أن تكونها • ثم تلمس الســديم فتكون الاشكال • ولعل جبران عندما رسم هــــذه اليد ، عاد بالذكرى الى « يد الله » من صنع رودين • لكنه اذا ما أخذ منها الفكرة الاساسية ، فقد أعطاها من فنه كيانا استقلت به كل الإستقلال عن يد رودين

ما بقي من الرسوم قد جاء بمثابة تعليق على المتن ، وأحيانا بمثابة متن فوق المتن ، فيه رموز بعيدة ، وانسجام فني بديع. ولكن في تقاطيع بعضه نعومة تبلغ درجة من الاسترخاء والانوثة قد تستحبها في فن امرأة الا أنك تستهجنها في فن رجل . أما من حيث قوتها الرمزية ، والفكرة التي ترمي اليها ، فلا يسعك الا أن تجلها وتكبر الخيال الذي تخيلها واليد التي أبرزتها أمامك أشكالا محسوسة . مثال ذلك رسم الألم . وهو يمثل امرأة مصلوبة على صدري رجلين تحبهما بالسواء أو يحبانها بالسواء . فلا هي تستطيع أن تقسم قلبها بينهما . ولا الواحد منهما يرضى بأقل من قلبها كله . ولعمري هل من الم أشد من ألم الحب الذي يصبح صليبا للمحب ؟ بل هل أعذب من الحب يقود المحب الى آلام الصليب ، ومن آلام الصليب الى غبطة المحبة العلوية ؟



قبل أن سلم جبران « النبي » الى الناشر بشهر أو شهرين أعطاني نسخة منه مكتوبة على الآلة الكاتبة . وأرسل مثلها الى ماري هاسكل لتنظر فيها وتهديه الى كلمات قد يكون أساء استعمالها أو عبارات قد لا يكون قالبها انجليزيا بحتا . وتلك كانت عادته معها في كل كتاباته الانجليزية . أما النسخة التي أعطاني اياها فكان قصده منها ـ وان لم يكشفه لي بالتمام ـ أن أدرس الكتاب درسا وافيا وأقول فيه كلمة عند صدوره . وكان قد قرأ لي كل موعظة من مواعظه حال فراغه من تأليفها ـ ما خلا الفاتحة والخاتمة . لكنني بعد أن قرأت الفاتحة والخاتمة ورأيت جبران يحدث عن نفسه في تلك وهذه استنكرت منه أن يصور نفسه « نبيا » حتى تحت نقاب من التمويه الفني . فلو أنه اتخذ من المصطفى بوقا لا غير لافكاره وأشواقه لهان الأمر . ولقلت ان جبران الفنان والشاعر شاء أن يصور نبيا ويكشف عن روح نبي . كما نصور أمرا نرغب فيه ونقصر

دون الوصول اليه

لكن جبران ربط ظروف حياة المصطفي بظروف حيـــاته وصوره كمن بلغ فى الواقع الحالة الروحية التى يحدث عنها . فكأنه صور نفسه بالغا تلك الحالة لا بخيـــاله فقط بل فى كل أحوال معيشته وأدوارها • ولانه خلععليه وشاح النبوءةفكأنه خلعه على ذاته أيضا

قد يكون أن جبران لم يقصد هذا القصد•لكن ذلك ماتؤديه فاتحة الكتاب وخاتمته • وذلك ما أداه الكتاب كله الى أذهان الكثير من الناس وبالاخص أولئك الذين كتبوا فوق ضريحه فى مارسركيس هذه الآية :

« هنا يرقد نبينا جبران »

وكأنه أقام لهم من يحاسبهم عن الضمير فى « نبينا » الىأين يعود • فغيروا الكلمة الى « بيننا » • وهى التى قرأتها عنـدما زرت الضريح صيف سنة ١٩٣٢



حصة فى السماء وحصص فى الارض

زحل « النبى » عن قلب جبران فتسلمته المطابع ولفظته، فى خريف سنة ١٩٢٣ ، كتابا صغيرا، بسيط الهندام ، جميله ، وأرسلته فى الشعاب التى تدرج عليها مواليد المطابع فى هذه الايام والتى يخفرها تنين النسيان ويطوقها غربال الزمان فلا يبقيان منها الا على القليل القليل . وكان جبران قد فرش لكتابه الجديد بساطا من الدعاية المستطرفة التى تنسيك أنها دعاية لما فيها من جواذب اللطف والدماثة والفن . ففى نيويورك وحدها من مدن الولايات المتحدة جمعيات وحلقات وأندية و «صالونات» لا تحصى تدعى علاقة ما بجهة ما من جهات الفن أو الادب أو الدين وما ينتمى اليها . بعضها للنساء ، وبعضها للرجال ، وأكثرها مشترك بين الرجال والنساء الذين يروقهم أن يسرقوا من ساعات أعمارهم المهدورة فى سبيل الجسد ومنازعه بضع ساعات فى الاسبوع يتلهون فيها بما يحسبونه أرفع من حاجات الجسد وملذاته . وبذلك يوهمون أنفسهم أنهم من طينة أنقى وأشرف من سائر الناس ، وأنهم « يوفون قسطهم للعلى » . ولا يخفى ما فى ذلك الوهم من لذة التخدير والاغترار بالنفس

من عادة تلك الجمعيات والحلقات والاندية والصالونات ـ على ما بينها من تفاوت فى المراتب ـ أن تتبارى فى دعوة الشعراء والكتاب والفنانين لالقاء المحاضرات ، أو للقراءة من

مؤلفاتهم • وجبران كان لا يرد دعوة للقراءة حتى اذا جاءته من هيئة يستصغرها أو يحتقرها • وان هو تلكأ فى ذلك كان ناشر كتبه يحثه أن لا يهمل فرصة تمكنه من الظهور بين الناس، لأنه يعرف أن اسم الكاتب اذا شاع على ألسنة الناس كان من أقوى العوامل فى ترويج كتاباته • والكاتب الذى كثر معارفه راجت مؤلفاته • لا سيما اذا كان معارفه من ذوى «النفوذ» • لذلك ما صدر « النبي » الا بعد أن كان جبران قد قرأ فصولا منه فى أندية أمريكية عديدة

أما بين اخوانه المهاجرين فى الولايات المتحدة فقد كان لجبران فى « السائح » أكبر بوق وأعظم نصير • وجبران كان يعرف كيف ينتقى الاخبار التى كان يقصد اذاعتها عن نفسه فى السائح من غير أن يجعل صاحب السائح يشعر بقصده • وصاحب السائح ، من فرط حبه لجبران ، كان يأخذ عنه الخبر ويبرزه فى الجريدة بأسلوب منمق يزيد فى أهميته أضعافا . فكان من جراء ذلك أن أقبل السوريون المهاجرون على كتب جبران بالانكليزية ـ والنبى بوجه خاص ـ يبتاعونها لأنفسهم ويهدونها الى بعض معارفهم من الأمريكان آملين بذلك أن يرفعوا مقامهم فى نظر جيرانهم وعملائهم من أهل البلاد • فكأنهم كانوا يقولون لهم : « انظروا • فمؤلف هذه الكتب ابن جلدتنا وابن لغتنا • وهو يجيد لغتكم خيرا منكم • فما نحن بالقوم الخاملين كما تتوهمون • » وذلك أبدا شأن الضعيف يباهي بعزم ابن عمه أو خاله • وشأن الاقرع يفاخر بشعر أخيه أو جاره • والمفلس يذكرك بما كان عليه من الثروة آباؤه وأجداده

من الاخبار التى أذاعتها « السائح » عن «النبى» خبر قراءته فى كنيسة أمريكية فى نيويورك ، فقد كان منه ، ومن شتى الروايات التى نقلتها الصحف العربية عنه ، أن اعتقد الكثير من الناس بأن « النبى » أصبح فى أمريكا كتابا كنسيا مقدسا، الى حد أن البعض فى لبنان كان يسألنى بكل جد :

« أصحيح أن « النبى » قد حل فى كنائس امريكا محل الانجيل ؟ ! »

أما حقيقة الخبر فهى أن فى نيويورك كنيسة أسقفية (أبيسكوبالية) تدعى كنيسة القديس مرقس فى الباورى • وهى من أقدم الكنائس في المدينة • ولها قسيس اسمه وليم غثرى • ولهذا القسيس نظر غريب فى العبادة وطقوسها وأساليب تحبيبها الى الناس • فهو يرى أن طقوس الكنيسة لم تعد تفى بغايات الناس في هذا العصر الذى كثرت فيه أنواع الملاهى • وان الناس يتوانون في تأدية فروضهم الدينية لأنها متحجرة وقاسية بالنسبة الى ما فى روح العصر من المرونة واللين • لذلك رأى أن يجعل من كنيسته شبه مسرح ، أو هيكل يونانى قديم ، فيه الرقص ، وفيه الشعر،وفيه التمثيل ـ حتى ومناجاة الروح • مدعيا أن فى ذلك « جمالا » • وأن الجمال فى كل مظاهره يبعث على التخشع والعبادة . فقد شهدت هناك مرة امرأة جاء بها غثرى كانت تدعى أن الارواح توحى اليها الشعر • فكان من شاء من الحضور أو « المصلين» يعطيها «موضوعا» • وهذا الموضوع قد يكون كلمة ، أوعبارة، أو اسم علم أو أى شىء آخر • فتذهل هنيهة ثم ترشق « برباعية » تتسابق مفرداتها من فمها تسابق الرصاص من فم المتراليز • وليس فى الرباعية معنى ، والشعر منها براء • غير أن الحضور كانوا مبتهجين لمثل هذه الفرجة ، وكانت الكنيسة غاصة بهم حتى الابواب

لقد نجح غثرى نجاحا باهرا من حيث اكثار عدد «المصلين» فى كنيسته لا سيما من بعد أن اصطدم بمطران الأبرشية الذى شجب أعماله ، وهدده بالحرم والتجريد من حلله الكهنوتية ان هو لم يقلع عنها • فتناولت الصحف الخلاف ووسعت خرقه • فازدحمت كنيسة غثرى « بالمصلين » والمتفرجين وطارت « شهرته » فى البلاد من أدناها الى أقصاها

ذات أحد دعاني جبران مع نسيب عريضه وعبد المسيح حداد الى كنيسة القديس مرقس هذه ، قائلا انهم سيقرأون من بعض كتاباته فى خلال الخدمة وسيمثلون « النبى » . فذهبنا . وكان أول ما سمعناه هناك من كتابات جبران قصيدته المنثورة فى « الليل والمجنون » . وهي قطعة لا صلة بينها على الاطلاق وبين ما اعتاد الناس سماعه فى الكنائس . اذ لاعلاقة لها بالدين لا بمعناه المحصور ولا بمعناه الواسع . فكان رجل ينشد ما يقوله « المجنون » على توقيع الأرغن . فيجيبه آخر بلسان « الليل » . وهكذا حتى آخر القصيدة . وعند انتهاء الخدمة ظهر على المسرح رجل فى قميص أبيض عرفنا أنه يمثل « المصطفى » . وهذا الرجل أخذ يجيل بصره ذات اليمين وذات اليسار ، ثم راح يخاطب نفسه بما يخاطب « المصطفى » نفسه فى أول الكتاب وذاك بصوت غير طبيعى وبلهجة تمثيلية خالية من الروح . وبعد قليل أقبل عليه نفر من رجال « أورفليس » ونسائها وفى مقدمتهم امرأة فى حلل بيضاء عرفنا أنها الميترا . فألقى المصطفى موعظتين أو ثلاثا من مواعظه . وبها اختتم «الرواية»

عندما خرجنا من الكنيسة أبديت لجبران أسفى على أن الممثلين قد شوهوا ما حاولوا أن يمثلوه فوافقنى جبران فى ذلك لكنه أضاف :

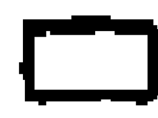
ـ ولكن ، يا ليتك شهدت يا ميشا تمثيل «النبى» فى كلية سمث للبنات ، فقد أجادت البنات فى تمثيله أيما اجادة . أما هؤلاء فليسوا بممثلين

الا أن «النبى» ، وان ساعدته الدعاية ، ليس من الكتب التى لا تعيش الا بالدعاية، ولا من الكتب التى تموت على دواليب المطابع فلا تحييها لا الدعايات ولا الاعلانات . بل ان فيه من عصير الفكر الصافى ومن وهج الخيال المتوقد ما يكفل له حياة مترامية الاطراف ، متعددة الاصداء ، موقورة بالسنين . فجبران قد عرف كيف يجعل منه شجرة كاملة بفروعها وأغصانها، وكيف

يدفن جذورها فى تربة الحياة البشرية حيث تبقى حية مادامت البشرية حية • فما دام الناس يولدون ويموتون ، ويأكلون ، ويشربون ، ويحبون ويتزوجون ، ويفرحون ويحزنون ـ مادام الناس ناسا سيبقى بينهم من يفتش عن معانى الحب والزواج وسواهما من علائق الحياة ، ومن يرتاح الى تفسيرها كما هى مفسرة فى « النبى » • وقد يبوخ أسلوب الكتاب الرمزى والمجازى كما باخت من قبله أساليب بيانية كثيرة • أماجوهره فان يبوخ

وكأنى بجبران ، بعد ان اسلم « النبى » الى العالم ، تنفس الصعداء وقال فى قلبه : « الآن قد لفظتها ! » ـ والضمير عائد الى « الكلمة » التى كان يحسبها فى فمه فلا يطلقها الا بعد ان يتثبت من انه قد اودعها خلاصة روحه وجوابه الاخير لنفسه عن الحياة وكنهها وزبدتها . فقد عرف ان الحياة وحدة شاملة تتكسر عليها كل المقاييس الجزئية والفردية والزمانية والمكانية. وانها فى قطرة الماء مثلها فى الأوقيانوس . وفى ذرة الرمل مثلها فى الجبل . فهى لا تحد حتى فى اصغر مظهر من مظاهرها. وكأنى به ذكر ما كان من شأنه معها قبل ذلك من تأفف وتفجع وثورة وعصيان فضحك من نفسه وقال :

ـ عندما طرحنى الله حصاة فى بحرة الحياة العجيبة احدثت على سطحها دوائر لا تحصى . لكننى من بعد ان بلغت القاع اصبحت هادئا



لقد كان على جبران ، وقد بلغ القاع ، ان يهدأ . لكنه لم يهدأ هنالك ولم يستكن . لأنه لم يبلغ القاع الا بخياله . فكان كموسى الذى أشرف على ارض الميعاد فوطئها بعينيه لابقدميه. وذاق طعم لبنها وعسلها بروحه لا بفمه . او كان كالغواص ينحدر الى قاع البحر مشدودا بالحبال. فلا يتلمس القاع هنيهة من الزمن حتى تشده الحبال الى سطح البحر . والحبال التى

كانت تربط جبران بسطح الحياة وما عليه من أمواج صاخبة وزبد متطاير كانت أشد من أن يقطعها خياله • وهذه الحبال ظلت تحز مفاصل أيامه ولياليه ، وتكبل أجنحة أحلامه وأشواقه، وتحول دون السلام بين نفسه ونفسه حتى آخر حياته

ان كلمة تطلقها من فمك تصبح شهادة لك أو عليك تجاه النــاس • ان خيرا فخيرا وآن شرا فشرا • وليس ينقضها الا أعمالك • وجبران قد أدى في « النبى » شهادة فى نفسه تكاد تكون الكمال بعينه • فمن يشهد مثل تلك الشهادة عليه أن ينسى ذاته الفردية ليجدها فى الذات العامة • فلا يبغض انسانا لأنه كل الناس • ولا يملك شيئا لأن كل شيء له • ولا يهرب من الألم لانه الطريق الى الخلاص . ولا يدين مجرما لأنه يدين نفسه • ولا يطلب مجدا لأن كل مجد باطل • وان هو لم يفعل كل ذلك كانت شهادته كاذبة

وجبران كان أدرى الناس بذلك • فهو كان يعرف أن « من نصب نفسه للناس اماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره» ـ كما قال الامام علي ـ « وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه • ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم • » ولأنه كان يعرف ذلك كان يتألم من نفسه القاصرة دون اللحاق بخياله ، ويعزيها بقوله انها ستعود الى الارض لتتغلب فى دورات تالية على ما استعصى عليها فى دورتها هذه

كان « النبى » لا يزال مخطوطة فى حقيبة جبران عندما طغت على الولايات المتحدة موجة المقامرة بالاطيان والمسقفات • فكنت لا تسمع الا بمن ابتاع أمس بيتا أو قطعة من الارض بألف دولار فباعه أو باعها فى الغد بألفين أو ثلاثة • فاندفع جبران مع من اندفعوا بذلك التيار • وتشارك مع رجل سورى فى بوسطن فى شراء بناية هناك • ودفعا نحو عشرة آلاف دولار من أصل ثمنها وبقى نحو أربعة أضعاف تلك القيمة دينا عليهما • وتوفق الشريكان على الأثر الى سيدة استأجرت منهما

البناية لتجعلها مركزا لجمعية نسائية • وكانت قيمة الأجر المتفق عليها وافية لدفع الفوائد واستهلاك الدين فى خلال سنين قلائل • الا أن الشريكين اضطرا أن يحدثا فى البناية تحسينات وتبديلات كثيرة لجعلها « لائقة » بتلك الجمعية وغاياتها • والتحسينات هذه كلفتهما من المال قدر القسط الذى دفعاه من الثمن • لكنهما كانا يمنيان نفسيهما بأرباح طائلة • وهكذا راح جبران يرى الثروة على قيد باع منه ، وفيها يرى الاستقلال المادى التام الذى كان يحلم به كل حياته

ولكن سرعان ما انقلب الامل الى ألم • فما هى الا شهور حتى قصرت السيدة المستأجرة عن الدفع مدعية أن جمعيتها لم تنجح ، وأن آمالها بنجاح تلك الجمعية كانت كل ما لديها من رأس مال • واذ أن البناية لم تعد صالحة الا لجمعية كتلك الجمعية تعذر على جبران وشريكه ايجارها • واذ لم يبق فى أيديهما مال تعذر عليهما دفع الفوائد واستهلاك الرهن • فذهب مالهما وذهبت أتعابهما هباء

فى تلك الاثناء كتب جبران الى من يوسطن يقول :

« ••• يعلم الله أننى لم أصرف شهرا فى غابر حياتى يماثل الشهر الماضى بصعوباته ومصائبه ومشكلاته ومعضلاته• ولقد سألت نفسى مرات ما اذا كانت « جنيتى » أو « تابعتى » أو « قرينتى » قد تحولت الى عفريت يعادينى ويقاومنى ويوصد الابواب أمامى ويضع العثرات فى سبيلى • منذ مجيئى الى هذه المدينة العوجاء وأنا فى جحيم من الدنيويات • ولولا شقيقتى لتركت كل شىء وعدت الى صومعتى نافضا الدنيا عن قدمى

« ••• غير أن الامور التى أبقتنى فى هذه المدينة والتى تجبرنى على البقاء عشرة أيام أخرى ، لا تتعلق بما كتبت أو قرأت أو سأقرأ بل بأشياء جامدة بليدة متعبة تملأ القلب شوكا وعلقما وتقبض على الروح بكف حديدية خشنة كالمبرد »

هي ضربة استنزفت من جبران كل ما جمعه من المال بالجد والتوفير في خلال سنين طويلة • فضعضعت قواه ، وبعثرت أفكاره ، وأغلقت عليه أبواب الهامه• وأثقلت من وطأة مرضه• لكنه تلقاها بصبر جميل وجأش رابط • ورأى أن لا مناص له من تجديد بنيان استقلاله المادى • فهجر القلم زمانا وعاد الى ريشته يستعين بها على رد خسارته • وكانت كتبه قد بدأت تدر عليه بعض المال • والخمســة والسبعون دولارا من مارى ما برحت تأتيه فى كل شهر • وما هى آلا سنتان أو ثلاث حتى انتعش جيبه من جديد ، فلملم شعث أفكاره واسترد مفاتيح خياله ، وثاب الى محابره ودفاتره • وكان قد مضى عليه نحو ثلاثة أعوام لم يصدر له في خلالها كتاب • وهى سكتة طويلة، فى بلاد كأمريكا ، لكاتب لا يرضى أن ينساه الناس وهو حى

أقبل جبران على شذور كان قد وضعها بالعربية فى أدوار مختلفة من أدوار حياته • فترجمها الى الانكليزية وزاد عليها وأصدرها فى سنة ١٩٢٦ فى كتاب سماه « رمل وزبد » • وقد قال لى فى ذلك الوقت انه كان يشعر كما شـــعر الملك داود عندما مات ابنه من بتشابع ـ امرأة أوريا • فداود انقطع عن الطعــام والشراب، واســتسلم للحزن فى كل مدة مرض الصبى•أما عندما بلغه خبر موته «فاغتسل وادهن وغير ثيابه» وأمر عبيده فجاؤوه بطعام وأكل قائلا : « لما كان الصبى حيا صمت وبكيت لأنى قلت من يعلم لعل الرب يرحمنى ويحيـا الصبى • وأما الآن فقــد مات • فلماذا أصوم ؟ أفأستطيع أن أرده بعد ؟ »

وهكذا هو ـ جبران • فقد كان ، قبــل أن تنتهى مشكلة البناية فى بوسطن ، يعلل نفسه بأن يسترد منهــا ولو بعض ما دفنه فيها من ماله • لكنه ، بعد أن انتهت المشكلة ولم يبق له من أمل بأقل تعويض ، طرح خســـارته من فكره وثاب الى أدبه وفنه

لم يمض وقت طويل حتى ابتاع جبران أربعين حصة فى البناية التى يسكنها في نيويورك . وهذه المرة كانت صفقته رابحة الى حد أنها عوضت عليه أضعاف خسارته فى بوسطن



الدبك

«الدبك» بضم الباء وتشديد الكاف ـ كلمة عامية شائعة في بعض جهات لبنان • وهي تعني حيلة يقصد بها المزح اذا انطلت على الممزوح معه • وأنا مدين بعنوان هذا الفصل لرشيد أيوب الذى نبش هذه الكلمة من خزانة تذكارات صباه فأدخلها على قاموس اخوانه فى « الرابطة » والمقربين منهم • وأكثرهم لم يكن سمعها من قبل فى حياته • وأنا مدين بالفصل كله لعبد المسيح حداد الذى كان يجيد هذا النوع من المزاح أيما اجادة ، لا سيما مع رشيد أيوب الذى دعاه لذلك « شيخ الثعالب » أو « الثعلبان » للمبالغة • وكلاهما خفيف الروح ، حاضر النكتة ، لطيف المعشر • فكم حالة عابسة بدلاها بحالة ضاحكة • وكم ساعة تدب ثوانيها فى أصفاد من الهم والأسى جعلاها دقيقة ترفرف بأجنحة من الزهو والطرب

كان النهار سبتا • وكان عبد المسيح منهمكا فى اصدار عدد ممتاز من السائح • فمررت به بعد الغداء، ومن لطخ الحبر على يديه عرفت أنه كان فى المطبعة وأنه قد باشر الطبع بعد أن اكتملت لديه كل المواد • وكان آخر ماوصله منها أبياتا لرشيد أيوب أطلعنى عليها قبل ذلك بيوم فأعجبتنى • وقرأتها لجبران بالتليفون فأعجبته

كان عبد المسيح يحدثنى عن تعبه المضنك فى ترتيب «الممتاز» وتنسيقه والوقوف على طبعه • وكنت أقلب بعض الصحف على المنضدة أمامى • فوقع فى يدى عدد من جريدة « ألف باء »

الدمشقية وفى صفحته الاولى عمود أبيض ضرب قلم المراقبة على ما فيه • تأملت ذلك العمود وأنا أعجب لسخافة المراقبين وأقلامهم • وهنا خطر لى أن فى ذلك العمود الابيض جرثومة صغيرة لـ « دبك » كبير أو لأحبولة ينصبها عبد المسيح لرشيد أيوب • فما كدت أبوح لعبد المسيح بما جال فى خاطرى حتى أطرق هنيهة ، ثم انتصب واقفا ، وقد لمعت عيناه بنور الفوز• وبأسرع من لمحة الطرف خطف الجريدة من يدى هاتفا : «عندى!» وهرول خارجا

بعد دقائق عاد عبد المسيح وفى يده ألف باء•واذا بالعمود الابيض قد اسود • واذا بالسواد الذى فيه أبيات رشيد أيوب التى قدمها للسائح الممتاز • وفى أعلاها بأحرف كبيرة هاتان الكلمتان : « لابن المعتز » !

أدركت فى الحال ما فعله عبد المسيح • فقد ذهب توا الى المطبعة حيث كانت أبيات رشيد لا تزال منضدة • فحذف من أعلاها اسم رشيد أيوب « العامل فى الرابطة القلمية » ووضع مكانه اسم ابن المعتز • وطبعها فى العمود الابيض كما تطبع « البروفا » فجاءت نظيفة ، منمنمة ، سوداء ، لا تميزها عما حواليها من مواد الا عين خبيرة بأسرار الطباعة وألوان الحبر وأشكال الاحرف

وكان قد قرب ميعاد قدوم رشيد أيوب الى الادارة لينام هناك « دقيقته المعهودة » حسب عادته من بعد ظهر كل يوم • فاتفقت وعبد المسيح أن نطرح الجريدة فى سلة المهملات • وبعد أن يأتى رشيد نكلف رجلا من غير الرابطة أن يجلس الى منضدة التحرير ويتظاهر كما لو كان يفتش من غير اكتراث عن صحيفة ما يتسلى بها • فينتشل مصادفة ذلك العدد من « ألف باء » ثم يطرحه من يده الى الارض•ثم يرفعه وقد وقع نظره على أبيات ابن المعتز • فيظهر لها اهتماما كبيرا ويقرأها بصوت عال لائما عبد المسيح لانه يطرح مثلها فى سلة المهملات

بدلا من أن ينقلها الى السائح حين أنه ينقل الكثير مما هو دونها
وهكذا كان . فما دخل رشيد واحتل كرسيه وسند رأسه بكفه وراح يغازل الاهة آلاحلام حتى بدأ « آلمساعد » بتمثيل دوره . وما قرأ بيتين أو ثلاثة من أبيات « ابن المعتز » حتى أرهف رشيد أذنيه ورفع نظارتيه عن عينيه الى جبهته ، ثم هب عن كرسيه ، وبالرغم من سنيه الخمسين وثب وثبة واحدة الى القارىء واختطف الجريدة من يده . فما وقعت عينه على العمود الذى فيه أبياته حتى جمد فى مكانه وقد جحظت عيناه ، وامتقع لونه ، واستوات الدهشة على كل عضلاته . هى لحظة لا توصف . لكنها لم تكن الا لحظة أشرقت بعدها أسرة رشيد ، وعادت نظارتاه من جبهته الى عينيه ، ومشى الدم فى عروق وجهه . فالتفت الى عبد المسيح مقهقها وقال :

ــ آه يا ثعلبان ! هذا دبك . . . لقد بلغت من فنك درجة هى العبقرية بعينها

ونحن فى ذلك واذا بجبران يخاطب الادارة بالتليفون قائلا انه قادم بعد قليل . فاتفقنا بالبداهة أن « نلعب الدور » معه . وكان من نصيبى أن أمثل الجانب الأكبر من ذلك الدور

وجاء جبران . فلم نبش له كالمعتاد بل استقبلناه بوجوه ارتسم عليها الحزن والهم والارتباك . الا رشيد . فقد تظاهر كما لو كان لا علم له بشىء . وما هى الا هنيهة حتى بدت الحيرة على وجه جبران كذلك . فأخذنى جانبا وسألنى بالهمس : « ما الخبر؟ » أما أنا فمن غير أن أجيبه بكلمة أخذته من يده ودخلت به غرفة محاذية . ومن بعد أن أغلقت الباب كمن يخشى أن يسمعه أحد ناولته عدد « ألف باء » وأشرت له بأصبعى الى العمود المعهود وهمست له همسا : « اقرأ » وجلست أرقب حركاته وأدرس التغيرات الطارئة على معانى وجهه . فما انتهى من القراءة حتى رفع الى عينيه وفيهما من الحيرة أخماس وأسداس . وقال :

ـ أليست هذه الابيات أبيات رشـيد التى قرأتها لى أمس بالتليفون ؟
ـ بلى ، حرفا حرفا !
ـ عجبا يا ميشا كيف ينتحل رشيد مثل هذه الأبيات وقد نظم فى حياته ما هو أجمل منها بكثير ، أو ليس من الممكن انه قد نظمها من زمان وبعث بها الى ألف باء ؟
ـ هذا مستحيل يا جبران . فلا علاقة بين رشيد والف باء على الاطلاق . وفوق ذلك فهو يعرف مثلما يعرف كل واحد منا أن ماينشر فى السائح الممتاز يجب أن يكون جديدا وخصيصا بالممتاز . ثم ان رشيدا قال لعبد المسيح ولى أنه نظم هـذه الأبيات منذ يومين وقضى ليلة كاملة فى نظمها
ـ أنقول اذن انه توارد خواطر ؟ أم نقول ان رشيدا حفظ القصيدة فى حداثته ونسى انه حفظها . وعندما جاء لينظم خطرت له معانيها ومع المعانى أكسيتها اللفظية فكتبها وهو يحسب أنه ينظمها . وهكذا انخدع من حيث لا يدرى ومن حيث لا يقصد أن يخدع ؟
ـ انت تستخف بنفسك وبى يا جبران عندما تأتينى بمثل هذه التعاليل
ـ ما كنت أحسب رشيداً يرتكب مثل هذه الفظيعة
ـ أما وقد ارتكبها فما العمل لتلافيها ؟ بماذا نجيب الناس غدا بعد أن يصدر « الممتاز » ويروا أن أحد عمال الرابطة قد اختلس قصيدة برمتها ؟ وهل فى العالم من الصابون مايكفى لغسل هذه اللطخة عن اسم الرابطة ؟
ـ لنقل لعبد المسيح أن يهملها من العدد الممتاز
ـ ولكنها قد طبعت يا جبران ولا سبيل الى اسقاطها الا باتلاف الملزمة كلها . ومن ثم فماذا نقول لرشيد اذاصدر الممتاز ولم ير فيه أبياته ؟ أنقول له اننا عرفناه سارقا فنبذناه ؟
ـ لا ، لا . وألف لا . بل نقول له ان عبد المسيح أهمل أبياته

من غير قصد . ثم ننشرها فى عدد عادى . فقد تعود الناس ان لا يقرأوا فى المتاز الا مواد جديدة . أما الأعداد العادية فليس لها من المكانة والتأثير ما للأعداد الممتازة

ـ وهكذا نبقى حيث كنا . وتبقى اللطخة على اسم الرابطة . ويبقى رشيد سارقا ... لا ، لا يا جبران . هذا عذر اقبح من ذنب

ـ اذن لتصدر القصيدة فى المتاز باسم رشيد . وفى أول عدد من السائح يصدر بعده ليعلن عبد المسيح أنه قد ظهرت خطأ فى المتاز قصيدة تحت اسم رشيد أيوب وهى لابن المعتز

ـ وبذلك نكون كمن يحاول أن يغسل لطخة من الحبر على ثوبه فيزيدها تفشيا . أما رشيد الذى هو أخونا ومنا وفينا فنكون كأننا غمسناه فى مرجل من الزفت . لا يا جبران . جئنى برأى غير هذا الرأى

هنا أطرق جبران طويلا وقد شعرت بأفكاره كأنها الاسماك فى شبكة يتراءى لها منفذ فلا تندفع اليه حتى تجده مسدودا . فتعود تختبط بعضها فوق بعض . وكان عبد المسيح فى أثناء هذا المشهد يدخل علينا بين الفترة والفترة . فيفتح الباب بهدوء كلى ، ويغلقه بهدوء كلى ، كأنه داخل الى مجلس يترتب مسير الكون على خلاصة مناقشاته . وكان ، اذا ما فاه بكلمة ، فليزيد بها فى هول المصيبة وحراجة الموقف . وأخيرا نفدت حيل جبران ، فالتفت الى التفاتة المستغيث وقال :

ـ ولكن ما حيلتك يا ميشا ؟ انها لمصيبة عمياء

قلت :

ـ لا حيلة عندى غير الصراحة يا جبران . وكل حيلة سواها ستكون عارا علينا حتى وان نجحت . فمن رايى ان تصارح رشيدا بالأمر لانك عميد الرابطة

فانتفض كالملسوع وقال :

ـ انا ؟ لا والله ! فان عرفت أن رشيد ايوب عرف أنى عرفت

لما استطعت بعد ذلك أن أرفع اليه بصرى . بل الاحسن أن تصارحه أنت لانك مستشار الرابطة

ـ هذا هو الجبن بعينه ياجبران • وما كنت أعهدك جبانا تهرب من أمر واقع وتتخلص من مسؤولية على عاتقك بالقائها على عاتق غيرك . ان يكن رشيد صديقك فهو صديقى أيضا . وعلاوة على ذلك هو ابن بلدتى

وكان عبد المسيح قد دخل علينا للمرة الرابعة أو الخامسة ، فاستنجدته بقولى :

ـ ما رأيك يا عبد المسيح ؟ أليس من واجب العميد أن يفاتح رشيدا بأمر هذه القصيدة قبل أن نقع ونوقع رشيدا والرابطة فى ورطة لا يعلم مغبتها الا الله ؟

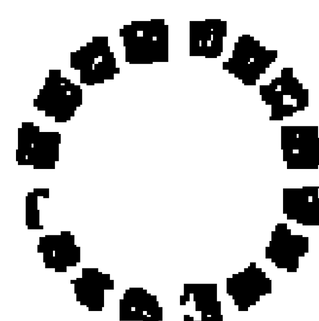
وبالطبع لم يتردد عبد المسيح لحظة واحدة فى تثبيت رأيى . وعندها ، بعد أن طالت مجادلتنا أكثر من نصف الساعة ،وبعد أن انسدت كل المسالك أمام جبران ، انتشرت على وجهه سحابة من الحيرة والحزن الابكم ، وبرقت فى عينيه دمعتان

ومن غير أن يقول كلمة، نهض عن كرسيه، وفتح الباب ،وخرج الى الغرفة التى كان فيها رشيد أيوب ونفر من عمال الرابطة ومن يلوذ بهم ، وارتدى معطفه وأخذ عصاه وقبعته وهم بالانصراف دون أن يودع أحدا

فلم يتمالك رشيد عندئذ من الضحك . ومعه ضحك رجل لم يكن جبران يعرفه • فشزره كأنه يريد أن يمزقه بعينيه لأنه غريب عن الرابطة وتجاسر أن يضحك فى مثل تلك « المأساة » . وعلى الأثر خرجت وعلى وجهى ابتسامة وخرج عبد المسيح وهو يقهقه • فوقف جبران لمحة كالمشدوه أو كمن خولط فى عقله . ثم القى نظرة على الجمهور كله فأدرك أن المأساة لم تكن الا ممازحة . فبسم بسمة صفراوية وضرب الأرض بعصاه وقال :

ـ يا مناحيس ، لقد أنقصتم من عمرى عشر سنين ، من هو

صاحب هذا الدبك الذى هو طرفة من طرف الفن ؟ أنا حتى الآن لا أفهم منه شيئا . أين عدد ألف باء ؟ أم أنا أعمى ؟ أم أنا بليد ؟ هاتوا فسروا لى كيف وصلت أبيات رشيد الى دمشق منذ أربعين يوما ولم ينظمها الا منذ يومين ؟ ومن هو ابن المعتز ومن أين نبشتموه ؟ لله دركم . لله دركم !



السيدة الملتحية

ما برح الانسان يتكلم عن الحياة منذ تعلم النطق . ويكتب عنها منذ تعلم الكتابة . ويصورها بالانغام والالوان والحجر منذ تعلم الغناء والتصوير والنحت فى الحجر . والحياة ما تزال بلا شواطىء . لا تستوعبها كلمة ، ولا يسبرها لحن ، ولا تقتنصها صورة ، ولا يمثلها تمثال . لكن الذين أدركوا بلاغة الصمت وهيبة السكون فى حضرة ما لا يحد لم يولدوا بعد . واما عرفت هذه الارض أمثالهم فالبشرية لم تعرفهم لأنهم كانوا صامتين ساكنين

لعل أقصى درجات المعرفة هى المعرفة بأن سر الحيـاة يدرك بالروح ولا يذاع باليد واللسان . وأسمى مراتب البلاغة هو الصمت المبطن بتلك المعرفة . وقد يكون أن ذلك الصمت هو المحجة التى نسير اليها عن غير علم منا . فلو كان لواحد من الناس أن يجمع كل ما قاله فى حياته لدهش للسانه كيف أنه لم يبر من ترديد بعض الكلمات والعبارات ملايين المرات من غير ما جدوى . ولنفسه كيف لم يرهقها بالثرثرة دون أن يدنيها قيد شعرة من المعرفة التى هى معرفة . ولفكره كيف لم يرزح تحت جبال من المقاطع والمفردات التى لو غربلها كلها لما بقى منها فى غرباله كلمة واحدة يمكنه أن يقول فيها : « هى ذى خلاصتى »

لكن بعض الناس مهنتهم الكلام . ومنهم الكتاب . فواحدهم لا يكاد ينتهى من فصل أو كتاب حتى يفكر بآخر . وعذره فى ذلك أن عنده أفكارا وآراء جديدة يعرضها على الناس .

والناس يحملونه على ذلك اذا هو لم يحمل نفسه عليه . فهم يتوقعون منه أن يكون شجرة فاكهة على الطريق وأن يكون عليها ثمر جديد كلما مروا بها . وكما ان الشجرة المثمرة لا تعرف فى اى فصل من الفصول ، وفى اية سنة من السنين تأتى بثمرة تكون أجمل وأشهى كل أثمارها، هكذا الكاتب المثمر قد يأتيك اليوم بكتاب يبلغ فيه أقصى مداه فلا ينفك يكتب جاهلا أنه لن يقول غير ما قال ولا اجمل مما قال

كتب جبران « النبى » وهو يشعر أنه قد أفرغ فيه كل قلبه وكل فكره وكل فنه . لكنه ما درج الكتاب فى سبيله حتى راح يفكر بسواه . فكأنه من بعد أن ظن انه قد لفظ « الكلمة » التى كانت فى فمه عاد فوجد انه لم يلفظ منها سوى مقطع واحد . فعاد يفكر بما بقى من مقاطعها وهو لا يشك فى أن بامكانه ان يلفظها كلها . وما كان يدرى أنه يحاول المستحيل ولا كان يدرى أن العمر ينقضى ، والبشرية تنقرض وتبقى الحياة كلمة يفهمها الوجدان ويعجز عن النطق بها اللسان . لذلك قال لى بعد صدور « رمل وزبد » :

ــ هــذا لسد الفراغ في حياتي الكتابية ما بين « النبى » والكتاب الذى سيتلوه . فقد مر بى ثلاث سنوات لم يصدر لى فيها كتاب . أما « النبى » فكتاب غريب يا ميشا . وما أكثر الذين يغبطوننى عليه . لكنه مقدمة لا غير . فأنا فيه أتحدث عن علاقة الانسان بالانسان . وبفكرى اليوم كتاب آخر اتحدث فيه عن علاقة الانسان بالطبيعة . وسأدعوه «حديقة النبى» . وكتاب ثالث أبين فيه علاقة الانسان بالله . وسأدعوه « موت النبى » . وهكذا تتكون من هذه الكتب الثلاثة حلقة كاملة . فما رايك

لكنه ما عتم أن فاجأنى بخبر جديد . فقد جئته يوما اساله اين أصبح من « حديقة النبى » . فاذا به يجيبنى :

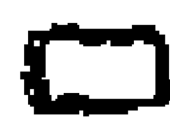
ــ الحديقة ما برحت فى خاطرى . ومثلها موت النبى . ولكن

ما قولك فى كتاب عن يسوع ؟ يسوع يساور أفكارى من زمان . وقد سئمت الذين يؤمنون به يا ميشا يتحدثون فيه ويكتبون عنه ويصورونه كما لو كان سيدة بلحية . فهو جميل لكنه مسكين وضعيف وفقير ووديع ومتواضع . وسئمت الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذا وساحرا . وسئمت « العلماء » يأتونك بالابحاث الطويلة والبراهين العقيمة ليثبتوا أوليدحضوا وجوده ، وهو اكبر حقيقة فى حياة البشرية . وسئمت اللاهوتيين يحوكون له من مماحكاتهم السخيفة أكفانا تحجبه عن الفكر والقلب . فلا هو بشر مثلك فتقتدى به . ولا هو اله فتعبده . ويسوعى بشر مثلى ومثلك . وقد بلغت قحة أحد الكويتبين الامريكان أن صور يسوع تاجرا محنكا يرمى بكل تعاليمه الى غاية مادية بحتة . فتأمل ! وعندى أنه كان رجل العزم مثلما كان رجل الرافة . وانه قط لم يكن مسكينا أو متمسكنا. وأنا أكره المسكنة وأرى التواضع ظاهرة من ظواهر الضعف

فقلت من غير أن أجادله فى رأيه :

ـ يسوع موضوع لا ينضب مهما تناولته الألسن والاقلام . ومهما كثرت الكتب عنه يظل هناك مجال لكتاب جديد . ولكن كيف تنوى أن تكتب عنه يا جبران ؟

ـ لقد اهتديت الى قالب يعجبك يا ميشا . وبعد أن اهتديت الى القالب أصبح الكتاب فى فكرى كأنه قد كتب . فسأجعل معاصرى يسوع يتحدثون عنه ـ كل حسب منازعه ومداركه . ومن أحاديثهم تتكون صورة يسوع كما أراه أنا . وهو قالب يناسب أسلوبى كل المناسبة



وراح جبران يستنطق الأموات عن يسوع . وهو فى الواقع لا يستنطق الا قلبه ولا يحكم الا فكره . فقد كان يجهد ذاك وهذا فى الليل والنهار . وكم ليلة سهرها حتى الفجر متغلغلا فى روح يهوذا الاسخريوطى أو قيافا أوبيلاطس النبطىأومريم

المجدلية أو مريم ام يسوع أو من كل الرسل وسواهم وهو لا يأتى على شهادة واحد منهم الا بعد أن يتقمص فيه وينتقل بالفكر الى عصره . فكان ، وهو فى صومعته فى نيويورك ، أو عند اخته فى بوسطن ، يرود جبال الجليل ، وبطاح اليهودية ، وغور الأردن ، وشواطىء بحيرة طبرية متتبعا خطوات يسوعه ومصغيا الى كرازته فى الجماهير وفى الهياكل وفى التلاميذ على انفراد . ومحاولاً أن يأتى بخلاصة تلك الكرازة والقوة التى جعلتها أحرفا من نار على جباه عشرين من القرون .

كل ذلك والداء يمكن قبضته من قلبه يوما بعديوم . وهو لا يعى أو لا يبالى . بل كأنه كان والداء فى سباق . وكان يخشى أن يسبقه الداء قبل أن ينتهى من كتابه الجديد . لكن الاقدار كانت لا تزال بجانبه . فقد مكنته من السبق . فانتهى من كتابه فى صيف سنة ١٩٢٨ وسلمه للنشر . فصدر فى خريف تلك السنة وجبران فى بوسطن . وقد كتب الى فى أول اكتوبر يقول :

ـ كتاب يسوع تناول صيفيتى مريضا وصحيحا،ولاأكتمك أن قلبى ما برح فيه رغم أنه قد صدر « وطار من هذا القفص »

على أثر صدور « يسوع ابن الانسان » كتبت فيه كلمة بعنوان : « يسوع جبران » لست أرى بأسا من اثباتها هنا لأن رأيى اليوم فى الكتاب لا يزال كما كان منذ عدة سنوات:

وجهه جميل ونبيل . يعلوه غشاء من الشحوب النام عن شفقة ممسكة بالقلب . لا عن أسى رابض فى النفس

فى فمه الحساس صلابة تفهم اللين فلا تجرح . ورفعة تعرف ذاتها فلا تتضع . وفى أنفه رقة الشعر ، ودقة الفن ، واتساق الهندسة

أما عيناه فتنظران الى أبعد ممـــا تبصران . فيهما رهبة الوحى دون طمأنينته . واليقين بالنصر دون النصر . ووحدة لا تلطفها المحبة . وعزلة لا يؤنسها نورها

في حاجبيه تقطب خفي . كأنه يجهد فكره للوصول الى سر عميق • وكأنه بلغ عتبة ذاك السر • أما بابه فلا يزال موصدا في وجهه

في جبينه الواسع العالي اباء وعظمة . وفي شعره الناعم المرتد عن جبينه وصدغيه ، والمسترسل فوق كتفيه ، طهارة لا تعرف الدنس . هو وجه معانيه كثيرة . واظهرها ارادة تحاول ان تتغلب على ذاتها أو ان تستر ضعفها ريثما يتم لها النصر

هذا هو يسوع بريشة جبران . وهو أول ما يقع بصرك عليه في كتابه الجديد « يسوع ابن الانسان » . ذاك ما رايته فيه . ولعلك ترى غير ما رأيت أو عكس ما رأيت

اما يسوع من قلم جبران فلن تحظى به في صفحة او صفحتين • بل تتناول صفاته الحسية والروحية من سبعة وسبعين فما (وفم جبران احدها) بينها فم التلميذ وفم الجار وفم الصديق وفم العدو • فم العالق بالارض • وفم الطامح الى السماء . فجبران يحدثك عن يسوعه بالسنة معاصريه . بعضهم مذكور في الانجيل وبعضهم اختلقته مخيلة المؤلف

وعندما تشبع نفسك ، وتشنف اذنك باقوال هؤلاء كلهم — واقوالهم منسقة بقلم جبران فهي قصائد منثورة — قابل بين يسوع الذي انطبع في خيالك من مطالعة سطور الانجيل القليلة، ويسوع الذي علق بذهنك من السنة معاصريه كما انطقها جبران ، تر أن بين الاثنين فرقا ليس طفيفا

يسوع الانجيل ولد في بيت لحم من عذراء . اما يسوع جبران فولد في الناصرة من رجل وامراة

يسوع الانجيل يبكي ويتألم • أما يسوع جبران فيضحك• وهو فوق الدموع والألم

يسوع الانجيل يطوب المساكين بالروح والفقراء ، اما يسوع جبران فلا يعرف مسكنة ولا يرى غبطة في الفقر

يسوع الانجيل أدرك منتهى الرفعة الروحية ، لذلك كان « وديعا ومتواضع القلب » . أما يسوع جبران فلا دعة فيه ولا تواضع

يسوع الانجيل لا يخجل من أن يهتف على الصليب : « الهي . الهي لماذا تركتني ؟ » لأنه لم يكن قد تغلب بعد على كل ضعف في بشريته . أما يسوع جبران فلاضعف فيه .أو أنه يخجل من اظهار ضعفه فيهتف : « لماذا تركتنا ؟ »

ولعلك تذهل ، مثلما ذهلت انا ، عندما تتمادى فى قراءة الكتاب فترى أن المؤلف ، رغبة فى اظهار شخصية يسوع كما يراها بعين روحه ، يجيئك بانجيل يكاد يكون جديدا لولا انه يتقيد ببعض حوادث الانجيل وأشخاصه وهيكل أقواله . فهو يأتيك بموعظة على الجبل من فم متى منسوجة على نسق الموعظة الانجيلية الشهيرة لكنها تغايرها مبنى وروحا . ويسرد بعضا من عجائب يسوع وحوادث حياته وأقواله . فيسقط منها أويضيف اليها طبقا لما يتصور أنه كان من واجب الانجيليين ان يسقطوه أو يضيفوه

لعل لجبران عذرا فى ذلك . فهو لا يكتب كمؤرخ ، لأنه لم يكن مؤرخا ولن يكون . بل هو الشاعر والفنان أولا وآخرا . لقد تلجم قلم المؤرخ أما خيال الشاعر وريشة الفنان فكيف وبماذا تلجمهما ؟ ومن ثم فجبران يكتب عن يسوعه بقلب طافح بالاعجاب والمحبة والعبادة . فهو فى نظره مثل البشرية الأعلى واقصى محجاتها

مع ذلك أقول ان جبران كان فى غنى عن التصدى لما جاء فى الانجيل وتحريفه أو التصرف به . فقد ورد فى آخر انجيل يوحنا أن هناك « أشياء أخر كثيرة صنعها يسوع لو أنها كتبت واحدة فواحدة لما ظننت أن العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة . » أليس أن فى هذه الاشياء التى لم تدون مجالا واسعا لخيال كخيال جبران ؟ فليختلق من الحوادث ما اراد . ولينظم

من المواعظ ما شاء وشاء رب الهامه

أما ما دون في الانجيل فلسبب قد دون بتلك الالفاظ لا بغيرها • ولسبب قد احتفظت به البشرية بأحرفه تسعة عشر قرنا . من ليس يفهمه أو يقبله كما هو فليقل في نفسه انه لم يعط فهمه بالتمام • ومن ليس يفهمه الا اذا حرفه وتصرف به فهو في الواقع غير فاهم له . لنا أن نفسر الانجيل . ولكل أن يصور لنفسه يسوعه ، مثلما يصور لنفسه ربه . لكن ليس لنا أن نأخذ يسوعنا من الانجيل ومن ثم أن نحرف الانجيل لينطبق على يسوعنا



والآن فلنعد الى جبران الشاعر المأخوذ بمجالي الروح في الكون . لا سيما بأسمى مجاليها في البشرية ـ يسوع ابن الانسان

فما أجمل ما يقوله بلسان ملاخي الفلكي البابلي :

« في يسوع اجتمعت كل عناصر اجسادنا واحلامنا طبقا للناموس . وكل ما كان من قلبه سابقا لأوانه وجد فيه أوانه »

ثم اسمع تعليله الجميل لبعض عجائب الناصري :

« يقولون انه كان يعطي العميان بصرا . والمقعدين مقدرة على المشي . وانه كان يخرج الشياطين من المجانين

« قد لا يكون العمي الا فكرة مظلمة يمكن التغلب عليها بفكرة ملتهبة . وقد لا يكون العضو المشلول الا سكونا يمكن تنبيهه بالقوة المتحركة . وقد يكون أن الشياطين ـ تلك العناصر القلقة في حياتنا ـ تخرجهم منا ملائكة السلامة والطمأنينة »

وهاك ما يقوله بلسان اندراوس في قضية الزانية التي أطلقها يسوع قائلا ـ وأنا لا ادينك ـ :

« عجبت آنئذ مما اذا كان « يسوع » قال ذاك للزانية لأنه هو كذلك لم يكن بغير خطيئة • • • أما الآن فأعرف أن نقي القلب فقط يغفر العطش الذي يقود صاحبه الى مياه آسنة »

ان جبران فى كتابه الجديد ، شأنه فى كل كتبه ، ينثر بسخاء جواهر من التشابيه المبتكرة . وينقش رسوما من الفن تقف عندها جذلا مهللا . ولا بد لى من نقل بعضها :

« الريب ألم أنسته وحشته أنه والايمان توأمان »

« وعند الفجر بقيت واقفة بيننا (الكلام عن أم يسوع) كأنها علم يخفق فى قفر لا جحافل فيه »

« ستبقى المرأة أبدا رحما ومهدا وقط لن تكون رمسا »

« لا تمشى النساء الا مقودات بأبنائهن »

« غسل بيلاطس يديه ولا يزال يغسلهما . وحتى اليوم تحمل أورشليم الطست ورومة الابريق »

واليك بعضا من التقاريع الجبرانية . وجبران اذا ما قرع وأنب وتبرم أتاك بأقصى مقدرته البيانية . وكأنه فى الكلام الآتى لا يدفع تهمة عن يسوع فحسب . بل عن نفسه كذلك . فقد قال البعض فى يسوع انه لم يكن عالما فى نفسه . ولذلك كان مشوش الفكر :

« كم بومة لا تعرف من الاغانى غير ما شابه نعيبها . أنا وأنت نعرف مشعوذى الكلام الذين لا يحترمون الا من كان أكبر شعوذة منهم . هؤلاء هم الذين يحملون رؤوسهم فى سلال الى السوق ويبيعونها بأول ثمن يعرض عليهم . نحن نعرف الاقزام المتحاملين على من تلمس رؤوسهم السماء . ونعرف ما يقول العوسج عن السنديانة والارزة »

خذ كذلك هذه الفقرة من كلام يسوع ليهوذا الاسخريوطى :

« مملكتى ليست من هذه الارض • وعرشى ليس قائما على جماجم أسلافكم • اذا كنتم تطلبون غير مملكة الروح فخير لكم لو تركتمونى هنا وانحدرتم الى مغاور موتاكم حيث رؤوس الأمس المتوجة تعقد مجالسها فى قبورها • ولعلها حتى اليوم تجود بالألقاب والمكارم على عظام أجدادكم »

كذلك تهكمه على الاغنياء بلسان واحد منهم . وعلى أولياء

الامور والمحافظين على كل سلطة وتقليد بلسان قيافا • فهو يسود وجوههم بما يضعه من الكلام فى أفواههم

ومن الغريب أن جبران يتناول بتهكمه حتى الرسول بولس . فهو لا يعترف له بفضل • بل يعتقد انه أفسد تعاليم الناصرى بما أدخله عليها من تعاليمه • وفى اعتقادى أنها تهمة ظالمة



ليس ما ينقشه جبران بريشته أقل فعلا فى النفس مما يسطره بقلمه . وهو كعادته فى كتبه السابقة قد زين كتابه الجديد بطائفة من الرسوم تقف أمامهـــا مستجليا رموزها ، مأخوذا بتناسق خطوطها . منها وجه يسوع وقد ذكرته . ووجه مريم المجدلية الذى تكاد تقرأ فيه ما قاله لها يسوع (حسب رواية جبران) ـ « أما أنا فانى أرى فيك جمالا لن يذوى ، وعندما تدركين خريف أيامك لن يخشى ذلك الجمال من أن ينظر ذاته فى المرآة . ولن يهان »

هناك وجه لبطرس وآخر ليوحنا الحبيب . ورسوم اخرى رمزية أذكر منها اثنين ملونين ـ أحدهما يمثل انسانا راكعا على سحابة وقد أحاطت به سلسلة حلقاتها أجسام بشرية . والآخر يمثل « شجرة الحياة » جذورها بشر . وساقها بشرى . واغصانها مجنحة . واثمارها دانية . ان فى هذين الرسمين ألوانا موسيقية • بل ألحانا ملونة . بل شعرا فياضا

لقد قيل فى نبى الجليل منذ بدأ حتى اليوم ما ليس يحصى . فأنكر البعض وجوده • والذين سلموا بوجوده رماه بعضهم بالشعوذة . وبعضهم قال انه كان مخدوعا . وجعله البعض الها . والآخر انسانا . والبعض الها وانسانا معا . ولعمرى ان فى ذلك دليلا بينا على أن هذا الرجل كان مظهرا رائعا من مظاهر الكونية الشاملة • فهو أكبر من أن ينحصر بين دفتى كتاب • وليس يدخل « ملكوته » من فهم أقواله فحسب . بل من عمل مشيئة « أبيه » الذى فى السموات

على أننا ، وان قصرنا عن العمل بمشيئة « الآب » نكفر بعض التكفير عن تقصيرنا بكشف ما فى وجداننا من الشوق والتعطش الى مجاراة «ابنه». وكتاب جبران الجديد هو المحرقة التى يقدمها قلبه لأخيه الاكبر « يسوع ابن الانسان »



مريم المجدلية بريشة جبران
نقلا عن « يسوع ابن الانسان »

الصلح

قال بعضهم فى الدنيا انها ان اقبلت بلت وان أدبرت برت. فهى مقبلة حين تراها مدبرة . ومدبرة حين تحسبها مقبلة. وجبران ، من بعد « النبى » و « يسوع ابن الانسان » ، أدبرت دنياه وهو يظنها مقبلة بجحافلها وبيارقها وطبلها وزمرها . فقد أخذ عدد المعجبين به يزداد من يوم الى يوم . وأكثرهم من النساء . واتسعت موارد رزقه حتى أن صديقا لهمن أصحاب المصارف اسمه ادجار سباير أخذ يهتم «بتوظيف» امواله . واقبل البعض على ترجمة كتابه « النبى » الى لغات أجنبية . وعرضت عليه شركة أن يتجول فى البلاد ويقرأ من كتاباته فى مختلف الأندية . ونقل أخته من بيت قديم فى حى الصينيين فى بوسطن الى بيت جديد ابتاعه فى ضاحية جميلة من ضواحى المدينة . وأقام له اخوانه فى نيويورك مأدبة تكريمية احتفلوا فيها بيوبيله الفضى . وأصبح لا يكاد يمر به يوم الا جاءه البريد أو التليفون بشهادة اعجاب أو تقدير من أناس يعرفهم وأناس يجهلهم ما بين أعراب وأعجام . فقد قال لى مرة بفخر كلى ، متظاهرا بعدم الاكتراث الكلى ، ان ملكة رومانيا السابقة ـ مارى ـ كتبت الى احدى صديقاتها فى نيويورك التى كانت قد أهدت اليها نسخة من « النبى » تقول انها طالعت الكتاب بلذة فائقة ، وتكلف صديقتها اهداء سلامها الى المؤلف . وأطلعنى مرة على رسالة من رئيس كلية فى ولاية كولورادو يستأذنه فيها بحفر آية صغيرة من آيات « النبى » على الجرس الكبير من سلسلة أجراس صداحة

في قبة كابيلا المدرسة (chimes) . اما الآية فهذه « ما اليوم الا ذكرى الامس . ولا الغد الا حلم اليوم »

لكن للدنيا شؤونا مع الذين يركنون اليها هى أشبه بشؤون الهر مع فأرة يلاعبها . فهى أقرب ما تكون من الهلاك عندما يطلق الهر سبيلها فتحسب انها نجت . ثم لا تلبث أن تجد ذاتها بين شدقى الهر

لعل أفظع الفقر فقر يعضك بأنياب من ماس فى لثة من ذهب . وأشد الضنك ضنك يرفل بالخز والبرفير . وأقسى الوحدة وحدة تخاطبك بألسنة المعجبين والمكرمين . وجبران، من بعد أن تفتقت الأكمام عن الكثير من احلام صباه وشبابه ، فتغلب على الفاقة ، واتسعت دنياه ، وكثر مكرموه والمعجبون به ، أحس بفقر أحد نابا من الفقر الذى عرفه من قبل . وبضيق أشد وطأة من الضيق الذى كان فيه . وبوحدة اقسى ملامس من تلك التى كانت تساور أيامه ولياليه . فقد اقفر قلبه من الحب فى حين أن النساء كن يحمن حوله حوم الفراش حول السراج . والشهرة وما فيها من بخور الاعجاب والتكريم قد تخدر القلب يوما ـ قد تخدره شهرا ـ لكنها لا تطفىء عطشه ، ولا تسكن جوعه ، ولا تؤنس وحشته اذا ما أفاق من تخدره فى سكينة الليل وضوضاء النهار . فكيف به اذا كان قلب شاعر وقلب فنان ، وكان علاوة على ذلك ، قلبا عليلا فى صدر عليل ؟

لقد ظل جبران أعواما يماطل الداء والداء يماطله ، وهو يحسبه رجفة فى القلب تزول بالحماية والوقاية . لكنها ماكانت لتزول . بل كانت كلما تقادم بها العهد تكاثرت نوباتها ، وتنوعت اشكالها ، وتصلبت أوجاعها . فكانت تارة تفتك فى مفاصله فيظنها النقرس . وأخرى فى اجهزة التنفس فيخالها نزلة قوية . وطورا تشد على قلبه بأصابع من حديد فيحسبها علة فى القلب . والاطباء كانوا يصفون له المداواة حينا بالحماية

والراحة وآخر بالكهرباء وحينا بالراديوم وأحيانا بالعقاقير . فكان يتداوى بكل ذلك . وكان المرض يهادنه بين النوبة والنوبة هدنا متفاوتة المدى . فتنتعش قواه وتتجدد آماله ، وتبرأ همته من فتورها ، فيعود فى الحال الى قلمه وريشته ليقتنص الخيالات والافكار التي تحاصره فى سريره ، وتجالسه وتماشيه فى مجالس الناس ومعابرهم

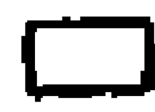
وأخيرا كشفت « الاشعة » لجبران مكمن الداء فى احشائه. فكتمه عني وعن كل أصحابه.ولو كان بامكانه لكتمه حتى عن نفسه.وأشار عليه طبيب فى بوسطن باجراء عملية جراحية . فامتثل لاشارته . واستعد لاقتبال القدر المحتوم فى الميعاد الذي ضربه له الطبيب . وارتدى ثيابه وخرج من بيت أخته قاصدا المستشفى . لكنه ما بلغ أسفل الدرج حتى عاد وقال انه قد عدل عن عزمه فلتفعل الأقدار ما تشاء . وكان فى عدوله صلابة ، وفى استسلامه عتو . فهو لم يتذمر قط من مرضه ، ولم يشك دهره ، ولم يقنط من حياته ، ولم يشل الوجع يده ، ولا كبل خوف الموت خياله

الا انه عندما عاد الى « حديقة النبي » ليخبر عما فيها وجدها غير ما كان قد تخيلها . فقد رآها من قبل بعين خياله حديقة تآخت فيها النبتة والحشرة ، واندغم النور بالظلمة ، واستوى الانسان والحيوان فى ميزان الوحدانية الصمدانية . فكانت كلها جمالا وسلاما ومحبة . ذلك فى الفترات التي كان فيها صافى الذهن ، قرير الفكر ، وفى هدنة مع الألم . وقد صور بعض ما رآه منها فى بضع صفحات لم تنشر بعد . اما الآن ، وقد توالت عليه غارات الوجع ، فأصبح كيفما تفقد تلك الحديقة رأى الالم يعبث فى غرسها ، ويعكر صفاء جوها، ويفسد سلامها . فمال عنها وهو يمنى نفسه بالعودة اليها حالما تعود اليه نشوته الروحية التي عرفها فى « النبي » . لكن تلك النشوة لم تعد . وهو مع ذلك لا ينفك يكتب

ويصور

كم من مرة فى تلك الاثناء لاذ جبران بقلمه من الالم ، فسمع قلمه يهتف اليه : دعني وشأني وعد الى قلبك . ففيه وحده نور الهداية والخلاص : « طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله ! »

وكم مرة عاد الى قلبه فهتف اليه قلبه : « ألا رحمة يا جبران . كم شكوت اليك الجوع فأطعمتنى ما ليس يشبع . والعطش فسقيتنى ما ليس يروى . وها أنا ما أزال جائعا الى طعام لا يبلى ، وعطشا الى شراب لا ينفد . وها أنا فى خلوة هذه الصومعة أتكوى بالاوجاع ولا قلب يخفف أوجاعى . ولا عين تسهر فوقى . ولا يد تجس أنباضى »



ذات يوم تسلم جبران رسالة اعجاب وتقدير من فتاة ما كان يعرف عنها شيئا . لكنه آنس فى رسالتها روحا تفوق باخلاصها ، وجمالها، وشدة شغفها بما هو خلف المحسوسات كل ما جاءه من رسائل الاعجاب والتقدير . وكان فى الرسالة عنوان الفتاة ورقم تليفونها . فأخذ في الحال التليفون وخاطبها وشكر لها جميل رسالتها . وعندما أبدت رغبة فى زيارته رحب بها كل الترحيب . فزارته ، وكانت لم تقرأ من كتبه الا « النبى » . وبلسان يتعثر بشتى الانفعالات ، ولكن بروح تفيض حماسة وطهارة ، راحت تصف له تأثير الكتاب فى نفسها وكيف أنها لاقت فيه أقوى نصير لأفكارها وأوفى صديق لاشواقها ومعتقداتها . وانصرفت من عنده ثملى بخمر حديثه ، وكأنها وجدت فيه الكمال الروحى فى جسد بشرى

وتلت تلك الزيارة زيارات . وكان جبران قد أجدب قلبه من الحب وأخذ يشعر بحاجته الى امرأة تقاسمه حلو الحياة ومرها . فقد كان قبل أن اشتد المرض يخشى على عزلته من أن تعبث بها امرأة أو رجل . وعزلته كانت مبعث الهامه ومهد

مواليد فكره وخياله • أما بعد أن ثقلت عليه وطأة الداء أصبح يخشى العزلة فى المرض والمرض فى العزلة . وكان اذا ما عرض أمام نفسه كل النساء المقربات منه لا يجد بينهن واحدة تطمئن اليها روحه الا مارى هاسكل . ومارى فاتحها مرة بأمر الزواج فكان بينهما ما كان . وهى ما تزال كوكبا نيرا فى سماء حياته الروحية . ومارى قد تزوجت منذ سنوات من نسيب لها غنى ، لكنه مسن ، فى مدينة سافانا من ولاية جورجيا . وقد استشارته فى زواجها فأشار عليها بالزواج وبارك ما فعلت

والآن جاءت هذه الفتاة الغريبة • أيكون أن الحياة قد بعثت بها اليه لتؤنس وحشته ، وتخفف من أوجاعه، وترافق أشواقه وآلامه ؟ أيكون انها المرأة « المكتوبة » له فى سجلات الارض الغامضة ؟ كيفما كان الامر ، ها هى ذى ــ شعاع دافىء ومؤنس . وهى صحيحة الجسم ، نشيطته ، وفى قلبها من الاخلاص له والتفانى فى سبيله ما يقارب العبادة

ولكن هى البشرة ــ وما اضعفها ! ولكن هى الشهوة ــ وما أقواها ! فقد نسى جبران هذه المرة كذلك بيته الجميل فى « المواكب » :

« والحب ان قادت الأجسام موكبه
الى فراش من الأغراض ينتحر »

وكان عذره فى ذلك لنفسه وللفتاة : « تلك هى حياتى » لكنه عذر ، ان كان مقبولا عند جبران ، لم يكن مقبولا عند الفتاة التى كانت روحها مشبعة بروح « النبى » والتى أخذت الندامة تنهش قلبها وتعصر فكرها . فأحست كأن جوهرة ثمينة كانت فى يدها وتحولت الى تراب . أو كأن الارض قد خسفت بها • فكتبت بعد ذلك الى جبران تبكته وتبكت نفسها وتندب ايمانا جميلا طار من قلبها . فقد ظنت عندما اهتدت الى صاحب « النبى » انها قد اهتدت الى مثل الرجل

الاعلى ، الى الرجل الذى يكفر بجمال روحه وجمال حياته عن كل ما فى أرواح الرجال وحياتهم من شناعة . الا أنها وجدته كسائر الرجال . ووجدته يفعل غير ما يقول . ويقول غير ما يفعل ... أفى الحياة بعد ذلك ما يستحق الاعتبار ؟ اليس الايمان بالكمال وهما والمحافظة على الطهارة ضربا من البلادة ؟

لقد كان من تلك الرسالة أنها دفعت جبران الدفعة القاضية على محاسبة نفسه المحاسبة الأخيرة وتعريتها من كل أكسية الغش التى تحوكها الرغائب والمنى الارضية . واذامثلت لديه نفسه عريانة أقبل عليها يغسلها بكل ما فى وجدانه من ماء الحق ، ويضمخها بكل ما فى روحه من عطر الجمال ، ويدفن عند قدميها أوزار حياته وزرا وزرا . فأحس كأنها كانت قصية عنه فدنت منه . وكأنها كانت غريبة فأصبحت قريبة. وكأنها كانت له خصما فانقلبت صديقا . فعانقها وعانقته وعقد معها الصلح الذى كان ينشده كل حياته . وعندها استدعى اليه الفتاة واستغفرها وتوسل اليها أن تستعيد ايمانها بالحياة وجمالها . والا تدين الله بهفوة انسان ، وان يكن ذلك الانسان جبران خليل جبران . وقال لها نظير ما قاله مرة لمارى هاسكل : « تعالى نقطع الطريق سوية »

وما كان يدرى ، ولم يكن قد بقى من عمره الا بضعة شهور ، أن طريقه أوشكت ان تنتهى وأنه سيقطعها وحيدا حتى آخر خطوة

اشعة فى الغمام

استسلم جبران لمشيئة الحياة . ولكنه ما كان يحسبه مستسلما للموت ، فقد ظل يحاربه حتى آخر نحب من انحابه . وكأنى به كان يعتقد من كل قلبه ما قاله لى فى احدى رسائله الاخيرة :

« أما العلة فهى فى مكان أعمق من الاعصاب والعظام . ولقد فكرت مرات فيما اذا كانت علة أو صحة . هى حالة يا ميشا ، صحة كانت أم علة ... هو فصل من فصول حياتى ، وفى حياتك وحياتى شتاء وربيع ، وأنت وأنا بالحقيقة، لا ندرى أيهما أفضل »

لذلك ، ولانه كان يكره كل مظاهر الضعف ، ما سمعته يوما يقول « آخ » أو « أواه » . فقد كان يقضى الليل بعد الليل ، والنهار تلو النهار يحارب وحده الوجع . فيندر أن يستدعى اليه صديقا الا اذا أشتد عليه الألم أو عضت الوحدة قلبه الى حد لا يطاق . ومما لا ريب فيه أيضا أن اعتقاده بقوة الالم المطهرة كان يدعم جميل صبره عليه

مرة ــ فيأوائل سنة ١٩٣١ ــ خاطبته بالتليفون أسأله عن صحته . فأجابنى : « تعال وانظر » وعندما دخلت عليه وجدته فى فراشه ، وعلى وجهه وفى حركاته علامات ضعف ما رأيتها فيه من قبل . الا انه طمأن بالى واكد لى أن ما الم به لم يكن الا وافدة قوية . وانه قد تعافى منها أو كاد . فلمته أشد اللوم لتهامله فى أمر صحته • وقلت له ان بقاءه

وحـده فى صومعته أصبح ضربا من المجـازفة القـريبة من الحماقة . فاما أن يرضى بى أو بسواى من أصحابه ينام عنده ويخدمه عند الحاجة ، واما ان يأتى بأخته من بوسطن لتسكن معه . فأقنعنى أن لا ضرورة لشىء من ذلك . فزوجة حارس البناية تخدمه بكل امانة . أما أخته فالأفضـل أن تبقى فى بوسطن فلا تحمل من همه اكثر مما تحمل حيث هى . ومن ثم فلو جاء بها الى نيويورك لاضطر أن يفتح بيتا آخـر مع الاحتفاظ بالصومعة . وفى ذلك ما فيه من الأكلاف . وبالتالى فهو لا يرضى عن الصومعة بديلا . ولا يفضل على تشويشها بيتا مهما توافرت فيه معدات الراحـة والرفاهية واكتمـل اتقانه وترتيبه

ـ ومار سركيس يا جبران ••• أما آن أن تفى بنـذرك ؟ صـدق انه لو كان بامكانى لكبلتك الآن و « شحنتك » الى لبنان حتى فى هذا النهار . ان بقاءك فى هذه البلاد وانكبابك على الكتابة والتصوير فى حالتك هذه هما الانتحار بعينه

ـ مار سركيس لا بد منه ، وقريبا ان شاء الله • أما الكتابة والتصوير فلا معنى لحياتى بدونهما . وهما تعزيتى الوحيدة . وانى لأعجب لك من بين كل الناس ، تنهانى عنهمـا . أأنت تنهانى عن الكتابة والتصوير يا ميشا ؟ أأنت تقول مثل هذا القول ؟ لا أكاد أصدق اذنى . انقضى اذن على الفن ــ أنقضى على الشعر ؟

ـ ليس الفن ما نصوره ، ولا الشعر ما ننظمه يا جبران . بل الفن أن ندرك بأرواحنا الفة الحياة فنؤلف ما بين أفكارنا ومنازعنا وأقوالنا وأعمالنا حتى لا يبقى فينا من نقيض يناهض نقيضا . والشـعر أن نجـد لأيامنا وزنا ولليالينا قافية . وما دمنا تمر بنا حالات تتمصر لها قلوبنا ، وتعتم أبصارنا ، ويتحول الشهد فى أفواهنا علقما ، والشدة فى مفاصلنا رخاوة، فما نفعنا من صورة جميلة نرسمها أو من قصيدة «عصماء»

نظمها ؟ أنصور الجمال قبل أن يصورنا الجمال ؟ أنلفظ الحق قبل أن يلفظنا الحق ؟ ونحن لو حيينا حياة جميلة لما استطعنا أن نصور غير الجمال . واذ ذاك كنا فى غنى عن التصوير . ونحن لو كان الحق سلطان أفكارنا لما استطعنا أن نفوه بغير الحق . وعندئذ كنا فى غنى عن الكرازة بالحق

ـ أليس يا ميشا أننا كلما صورنا الجمال اقتربنا من الجمال . وكلما نظمنا الحق اتحدنا مع الحق ؟ أم أنت تشاء أن تحتم الصمت على الفنانين والأدباء ؟ والافصاح عن مكنونات النفس حاجة من حاجات النفس

ـ لابد للنفس من أن تشع بمكنوناتها ، ومن تلقاء ذاتها . لكننا حالما نحاول تصوير تلك المكنونات للناس نشوهها وننقلها الى غير حالها . فاما نزيد فيها أو ننقص منها . وكثيرا ما نستر الذى نحسبه شنيعا فيها ونبرز الذى نعده جميلا . والجمال الذى يحتاج الى يد تخرجه من بيت الشناعة ليس جميلا . والشناعة التى تسكن والجمال فى بيت واحد ليست شنيعة . والانسان الذى لا ينفك يغربل الكون ليفرز جميله عن شنيعه أحرى به أن يقول لرب الكون : « لقد أسأت سياسة خلقك . وقد اختلط عليك حقه وباطله . وجميله وشنيعه . فانزل عن عرشك وأنا اريك كيف أجمع الجميل من كونك الى الجميل ، والشنيع الى الشنيع ، والحق الى الحق ، والباطل الى الباطل . » أو ليس الله أبعد من جمالنا وشناعتنا ، وفوق حقنا وباطلنا ؟

ـ هو كذلك يا ميشا . هو كذلك . وقد يكون أننا نهتدى اليه كلما حاولنا أن نقسمه فوجدناه لا يتقسم . وأنا ما أزال أقول ان الفن ، وان ميز بين الجمال والشناعة ، هو من أقرب السبل الى الله . أما التأمل البحت الذى أنت ترمى اليه فسبيل آخر . لكنه يؤدى الى الصمت وكتم سر النفس ضمن النفس . والصمت أرهب من الكلام وأصدق . انت

محق فى ذلك . ولكن ستأتينا ساعة نصمت فيها . فلماذا نصمت قبل أن تدق الساعة ؟ هو ذا صاحبك لاوتسو لاذ بالصمت ولكن بعد ان اعطى الناس بالكلام خلاصة ايمانه . سنصمت يا ميشا . سنصمت . ولكن لنتكلم الآن . واليك طائفة من الكلام . اقراها وقل لى رأيك فيها

ودفع جبران الى مخطوطة « آلهة الارض » وطلب الى أن اقراها بصوت عال

أخذت اقرأ ما بيدى فاذا به قصيدة منثورة ذات ثلاثة أصوات تمثل ثلاثة أرواح أو آلهة . لكل منهم نزعته الخاصة ونظرته فى الناس وحياتهم . فالاول اله عبوس كؤود ، مل الناس وسياسة الناس ، ومل جبروته والوهيته الى حد انه أصبح ينشد العدم :

« لقد سئمت روحى كل ما هو كائن . وأنا أربأ بيدى أن احركها لاخلق عالما أو لأمحو عالما . وأنا أؤثر الموت على الحياة لو كان فى استطاعتى أن أموت . فقد أثقلت كاهلى دهور لا تحصى . وانين البحور المستمر يسلبنى لذة النوم »

والثانى اله يطيب له اللعب بالارض وما عليها من حياة . لاسيما بالانسان وحياته . فيقول لرفيقه الاول انه ليس نظيره يطلب العدم . لكنه يختار طريقا أصعب من طريقه . وهى :

« ... أن أبعث الانسان من الظلمة الخفية وأترك جذوره عالقة بالارض

« أن أعطيه العطش الى الحياة وأجعل ساقيه الموت

« أن أمنحه الحب الذى ينمو بالالم ، ويتسامى بالشهوة ، ويزداد بالشوق ثم يذوى لدى أول قبلة

« أن أمنطق لياليه بأحلام أيام مشعشعة بالفرح ، وألقح أيامه بخيالات ليال مترعة بالغبطة ، وأن أقيد لياليه وأيامه فتبقى أبدا متشابهة

« أن أجعل خياله كنسر الجبال ، وأفكاره كعواصف البحار ،

ومن ثم أعطيه يدين تترددان فى العمل ، ورجلين يثقلهما التأمل

« أن أعطيه الفرح كيما يرنم لنا • والحزن كيما يضرع الينا • ومن ثم أن ألقمه الارض عندما تصرخ الارض من جوعها طالبة طعاما

« أن أرفع نفسه فوق السماء كيما يذوق طعم غدنا • وأن أدع جسده يتمرغ فى حمأة الارض كيما ينسى أمسه الدابر »

أما الاله الثالث فيصغى الى رفيقيه ، وبصره تائه فى الوادى يرقب فتى وفتاة يرقصان للحب ويرنمان له • وفيهما يرى كل سر الحياة • ولكنه عبثا يحاول أن يجذب اليهما أبصار رفيقيه وأفكارهما . فهما لا ينتبهـــان فى البدء الى ما يقول . الا انه يفوز فى النهاية فيستميل الاله الثـانى الى رأيه بأن الحب هو السر كل السر والحق الذى ما بعـــده حق ، ويبقى الاول حائرا ما بين النور والظلمة • ويختتم الاله الثـالث المحاورة قائلا فى بعض ما يقوله :

« نحن سيكتنفنا الغسق . وقد نستيقظ لنرى فجر عالم غير هذا العالم • أما الحب فسيبقى ، وآثار أصـــابعه لن تمحى الى الأبد »

كنت فى قراءتى كلما وقفت عند عبـــارة بارعة ، أو تشبيه بديع ، أو فكر جذاب أنظر الى جبران فأرى وجهه مشرقا بنور كأنه أذيال الشمس عند المغيب وقد نشبت فى غمامة • والغمامة هى ذلك الألم الذى أنزلته به الحياة وحاول أن يصفه بلسان الاله الثانى • ومع أنى كنت منذ دقائق أنهاه عن الكتابة ، لم يسعنى الا أن أبدى له اعجابى بأسلوب القصيدة النضر وخيالها الواسع • وأسفى لانها من معدن غير معدن « النبى » الصافى ، ولان نفسه التى كانت قد التأمت فى « النبى » عادت فتشعبت فى « آلهة الارض » • وأنا أعلم فى داخلى أن الألم كان مبعث التشعب • أما لسانى فما كان يطاوعنى لأفوه بذلك

بعد أن انتهينا من قراءة القصيدة والتحدث فيها قام جبران

من فراشه وهو فى ثياب النوم وأخذ يعرض على الرسوم التى أعدها لها ـ وعـددها اثنا عشر ـ فكاد ينسيني نفسه ونفسى والقصيدة التي ما برحت أنغامها ترن في أذني • فقد أدهشتني من تلك الرسوم ـ علاوة على ما فيها من رشـاقة وانسجام وألفة ألوان ـ قوة كنت ألمحها فى فن جبران ولكن ما رأيتهـا قط مجسمة الى هذا الحد . وأدهشني كيف أن كفة جبران الفنان أخذت ترجح على كفة جبران الشاعر كلما تمادت بذاك وهذا السنون • فحين أن جبران الشاعر لم يبق عنـده ما يقوله من بعد « النبي » الا اعادة ما قاله ، كان جبران الفنان يزداد براعة وجرأة وقوة فى فنه

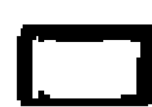
ـ كل هذه من شغل الصيف الماضي يا ميشا ، فقد كان صيفا مثمرا

وبعد فترة من السكوت :

ـ ميشا ، لقد ذكرتك فى وصيتى

سقطت هذه الكلمات على سقوط البرد من غمامة فى الصيف، فأجفلت من سكوتى وشعرت كأن قلبى تحول فجأة الى جرة من دموع . وكادت الجرة تفرغ كل ما فيها من عينى لو لم يسد فوهتها خوفى على الجالس بجانبى ومعرفتى أن دمعة من عينى فى مثل هذه الساعة تنفجر لها ساقية دموع من عينيه •فقلت له وفى صوتى غصة :

ـ ما كنت أحب أن أسـمع ذلك منك يا جبران لا اليوم ولا بعد اليوم • فأنت لو فتشت عن أمر توصى لى به ـ من بعد عمر طويل ـ لما وجدت أعز من نفسك • وتلك أنا حاصل عليها من غير وصية • فأنت معى فى كل حين مثلما أنا معك فى كل حين



بعد ذلك بأسابيع أخبرت نسيب عريضه عما كان بينى وبين جبران بشأن وصيته ، فأجابنى أن جبران قال له عين ما قاله لى : « لقد ذكرتك في وصيتى يا نسيب » وعلى أثر وفاة جبران

حدثني عبد المسيح حداد عن زيارته له قبل وفاته بأربعة أيام، قال :

ـ دخلت عليه وكان النهـار ممطرا • وكان قد طلب الى أن آتيه ببعض الصحف العربية ليتسلى بها • فأخـذت له رزمة كبيرة منها . وكان فى فراشه فنهض وجلس بجانبى . وللمرة الاولى سمعت الموت فى صـــوته ورأيته على وجهه • غير أنى حاولت مقدرتى ألا أظهر له شيئا مما سمعت ورأيت • تحدثنا فى أمور كثيرة • ولكن أكثر حديثه كان عن «الرابطة»واخوانه فيها • فقد أخذهم واحدا واحدا وراح يكشف فكره وقلبه نحو كل منهم كأنه يقصد أن يجمعهم حواليه ولو بفكره وأن يودعهم الوداع الاخير

وعندما سألنى عن عائلتى ذكركل واحد من أولادى وأعطانى بضعة دولارات وكلفنى أن أشترى بها طاقة من الزهر أقدمها كسلام منه الى أمهم • ثم التفت الى وقال : « لا تخف على مستقبل أولادك يا عبد المسيح • اذا مد الله بعمـــرى فأنا سأهتم بأمر تعليمهم • والا فانى قد تركت لهم فى وصيتى ما يكفيهـــم • ووصيتى فى تلك الخزانة » واشار الى الخزانة الصغيرة بجانب سريره »

ولكن لا عبد المســيح ولا نسيب ولا أنا كنا نعرف مرض جبران الحقيقى • فكان يودعنــا ونحن غافلون عن أنه مودع • وكانت الاقدار تلملم خيوط حياته الارضية ونحن نحسبها ما تزال ماضية فى نسجها

الاحتضار

الغرغرة تغور فى الصدر ويبعد قرارها ، كأنها بقايا شريدة من عاصفة فى قعر واد . والأنات تتواهى وتتقطع وتتباعد . ومعاون الطبيب يجس النبض من حين الى حين فى انتظار النبضه الاخيرة

وأنا ، بجانب السرير،أفكر فى القلب المحتضر أمامى ودقاته من الاولى حتى الاخيرة ــ أين هى ؟ فيتراءى لى أن فى الفضاء حافظة تعى كل دقة من كل قلب ، وكل شهوة ، وكل فكر ، وكل عمل ، وكل طرفة عين ، وكل حلم ، وكل نبرة ، وكل نفس • وأن كل انسان سيأتيه يوم تتمزق فيه أغشية الحس عن عينيه ، وتنفك عصائب الوهم عن أذنيه ، فيبصر ويسمع كل ما كان من أمره منذ صدوره من مصدر الحياة حتى عودته اليه . بل يخيل الى أن تلك الحافظة كامنة فى أعماق الانسان نفسه ، وأن الانسان ، من حيث لا يدرى ، يحفر حياته فيها مثلما يحفر الصوت فى صفيحة الفونوغراف • وأذكر قول يسوع « ليس خفى الا سيظهر » فأحس برهبة الدينونةوعدلها وارى أن يوم الدين هو اليوم الذى نسمع فيه فونوغراف حياتنا يردد علينا كل ما كان منا على ممر الدهر . فأستغفر الحياة عن كل ما نسبته أو ينسبه اليها الناس من جور وخشونة وقساوة وأقول لنفسى : مثلما تغنين يغنى لك • والذى تزرعين تحصدين • ما ظلمت الا لانك ظلمت • ولا توجعت الا لانك أوجعت • ولا بكيت الا لانك أبكيت • كما أنت كذلك حياتك

والموت ؟ ــ أتكون حافة السرير بجانبى الحد الذى تنتهي اليه

حياة من فى السرير ؟ أيكون هذا السرير الصغير أوسع من الله الذى انبثقت منه تلك الحياة ، فكانت أزلية مثـــله ، والذى يستحيل عليها أن تخرج عن نطاقه فتبقى أبدية مثله ؟

وعلاقتى برفيقى ؟ أتنقطع بانقطاع أنحابه ؟ وأفكارنا التى تقاربت فتلاصقت فى بعض مناحيها ، وروحانا اللذان تعارفا فتآخيا ـ أتفصل بينها وهدة الموت الى الابد ؟ أين هى المقدرة التى فى وسعها أن تحل حلقة واحدة من سلسلة الزمان وتترك السلسلة مفككة مقطعة ؟ أليس أن عـــلاقتى برفيقى حلقة فى تلك السلسلة ، فهى لا تنفك ما دام الزمان زمانا ؟ أليست كل حلقة فى سلسلة لابدء لها ولا نهـــاية حلقة لابدء لها ولا نهاية كتلك السلسلة ؟ أليس أن حلقتين متصلتين فى مثـــل تلك السلسلة تبقيان كذلك الى الابد ، فاذا ما اختفتا فى ناحية من نواحى الزمان برزتا فى غيرها ، كالشمس تغيب عنا فى بقعة من الارض فتشرق فى سواها ؟ لا . ليس على الارض ولا فى السماء قدرة تستطيع أن تفصم عروة مكنتها الحياة بين انسان وانسان ، أو بين شىء وشىء . وهل فى الكون ذرة ليست مربوطة بكل ما فى الكون ؟



رباه ما أوسعك ! رباه ما أجملك ! رباه ما أعـــدلك ! وما أجهلنا نفصل أنفسنا عنك بكل مانفعل ونقول ونفكر ونشتهى . فنشقى ، ونحزن ثم ننتحب عندما تضمنا اليك . وما اغبانا نحرق العمر طالبين معرفة غير معرفتك ، وحقا غير حقك ، وسلاما غير سلامك . وما أفقرنا ندخر من دنيانا كل أصناف الزاد الا زاد المحبة الذى لا يفنى . وما أضعفنا نتحصن من هذه الساعة بكل أنواع الحصون الا حصن الايمان الذى لا يدك . وما أشد عمانا نفتش عنك فى غير انفسنا !

ولكن ، لماذا كتب لى من بين كل رفاق جبران واخـــوانه أن أشهد عراكه مع الموت وحدى ؟ لقد حاولت مرارا وبغير جدوى

أن أتصل بالتليفون بنسيب وعبد المسيح ، فقد كان يحبهما محبة جمة . فلأحاول مرة بعد

أنهض عن كرسى فأسمع خارج الباب نحيبا • وأفتح الباب فأعرف أن ماريانا قد قدمت من بوسطن فور تسلمها برقيـة تستدعيها الى نيويورك • ولم تكن حتى ذلك اليوم تعرف أن أخاها فى خطر الموت • وأرى النسوة يقدنها الى غرفة محاذية لغرفة أخيها • وهى تشهق بدموعهـا ، وتنتحب وتستغيث • وكانت تعرفنى عندما زرت جبران مرة فى بوسطن وتعـرف الكثير عنى من جبران . فلايقع نظرها على حتى تختنق بعبراتها مستجيرة بى كأن فى قدرتى رفع القدر المحتوم :

ـ دخيلك ! انى أشم فيك رائحة جبران • دخيلك ! أنت أخوه وأخى • أيموت ؟ أمات جبران ؟ دخيلك ! أنتركه يموت؟

أعود الى غرفة جبران وفى قلبى نحيب مثلما فى أذنى • فأسمع الغرغرة تكاد تتلاشى والأنات يهبط قرارها حتى لايكاد يسمع • فتهرب منى افكارى ، وتتشتت خيالاتى • وتسألنى نفسى ألف سؤال فأجيبها بألف لون من ألوان الصمت • وتختلط عـلى مشاعرى فلا أدرى أأحزن أم أتجلد • أأفرح لانعتاق أخى من متاعب الارض ، أم اتفجع لحياته الملأى بالعواصف والخيالات والاشواق والامانى والظلال والانوار تلملم أذيالها عن الارض قبل أن تشبع من الارض أو تشبع الارض منها • لكننى أشعر برهبة الساعة وهيبة السر الذى تتممه الحياة امام عينى . وتخطر ببالى كلمات المصطفى للبحر :

« سيدور هذا الجدول دورة بعد • سيهمس بعد همسة فى هذه الغاب • ومن بعدها سآتيك قطرة لا تحد الى محيط لا يحد »

وكلماته الاخيرة لأهل أورفليس :

« عما قليل ، بعد هجعة قصيرة على أجنحة الريح ، ستحبل بى امرأة أخرى »

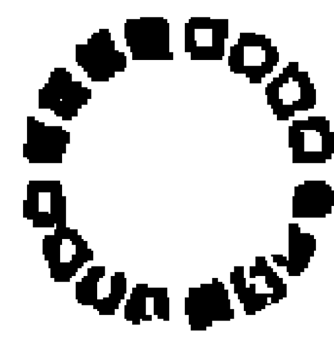
وعندما ينسل آخر نفس من صدر جبران ، نحو السـاعة

الحادية عشرة من الليل ، أحس بقوة تجـــذبني الى الارض . فأهبط على ركبتي بجانب السرير وأدفن وجهي في ثنايا الملاءة البيضاء عليه . ومن كل الاصوات التي تتســابق الى اذني لا أسمع في داخلي الا صوتا واحدا . أسمعه متقطع النبرات، وفي بعض نبراته صلاة قلب منسحق . وفي بعضــها ترنيمة ايمان ظافر . هو صوت داود النبي :

« ارحمني يا الله بحسب رحمتك وبحسب كثرة رأفتك امح معاصي .. اني في الاثم ولدت وفي الخطيئة حبلت بي امي .. تنضحني بالزوفى فأطهر . تغسلني فأبيض اكثر من الثلج ... قلبا طاهرا اخلق في يا الله وروحا مستقيما جدد في داخلي... »

وتغمرني شبه غيبوبة أفيق منها مخاطبا نبي الجليل ومرددا كلماته الوداعية لتلاميذه :

« وها أنا ذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »



الفصل الرابع

ملاحق

جثمان جبران

يحكى عن الفيلسوف الصينى تشوانج تسو الذى عاش فى القرن الرابع ق.م. انه ، عنـدما كان على فراش الموت ، جاءه تلاميذه ليطلعوه على رغبتهم فى الاحتفال بدفنه احتفالا باهرا، فقال لهم : « ما دام لى من الارض نعش ومن السماء كفن ومن الشمس والقمر والنجوم أوسـمة ، وما دامت الخليقة بأسرها ستشيعنى الى القبر ـ أوليست كل معدات دفنى جاهزة ؟ »

فرد عليه تلاميذه : « لكننا نخشى كواسر الجو من أن تمزق جثمان معلمنا » ، فكان جوابه لهم : « أنا على التراب سأكون طعاما للكواسر • وفى التراب سأكون طعاما للدود • فلماذا نجيع تلك لنطعم هذه ؟ »

لكن « للمدنية المنورة » تقاليد عمياء أنى لها أن تبصر حكمة «تشوانج تسو» ! فهى تجل التراب من بعد أن تفارقه نسمة الحياة أكثر من اجلالها اياه ونسمة الحياة ما تزال فيه . وكم خلقت للاحياء من متاعب فوق نكبتهم بموت أمواتهم

قضيت ما تبقى من ليلتى ـ بعـــد أن تركت المستشفى وشيعت ماريانا ومن معها الى النزل ـ ولم يغمض لى جفن•وفى صباح اليوم التالى ـ السبت ـ قصدت محترف جبران فوجدت ماريانا ومن كان معها قد سبقونى اليه • ورحت أهتم مع بعض الاصحاب باذاعة خبر الوفاة فى الجرائد ، وبالتفتيش عن محنط وعن نعش ، وعن قاعة لائقة ومناسبة عند أحد الدفانين تعرض فيها الجثة • فقد رأينا أن يعرض الجثمان كل نهار الاحـــد فى نيويورك ليودعه من شاء من الاصحاب والمعجبين قبل أن ننقله

الى بوسطن • وهكذا كان • وتقاطر المودعون من ســوريين وأمريكيين ليلقوا النظرة الاخيرة على جبران وهو مســجى فى نعشه المحفوف بالرياحين والازهار

فى تلك الاثناء جاءنى من يقول ان كاهن الكنيسة المارونية فى نيويورك لا يرضى أن يعطى تصريحا لكاهن الكنيسة المارونية فى بوسطن بالصلاة على جثمان جبران • لانه زار جبران فى المستشفى وعرف من الراهبة ما قاله لها عندما سألته إذا كان كاثوليكيا ، ولم يتمكن من مخاطبته ليعرف ما اذا كان يرغب فى الاعتراف ومناولة الاسرار الالهية بعد أن انقطع عنها نحو ثلاثين سنة • فقلت لمخبرى ـ وكان مارونيا وذا نفوذ كبير فى طائفته ـ أن يستعمل نفوذه مع الكاهن ليحصل على ورقة تصريح ، لا اكراما لجبران الذى لم يكن يحفل بمثل هذه الامور، بل رحمة بشقيقته التى ما كانت تكف عن البكاء والنحيب دقيقة واحدة . فلم يخيب طلبى

صباح الاثنين نقلنا الجثمان بالقطار الى بوسطن ، وقد رافقه غيري وغير ماريانا ونسيبين من أنسبائها عدد من اخوان جبران فى الرابطة القلمية وسيدتان أمريكيتان من اللواتى لقيتهن فى المستشفى • وفى بوسطن بقى الجثمان مسجى فى قاعة جمعية المساعدة للسيدات السوريات حتى صباح الثلاثاء . وهناك ـ فى تلك القاعة ـ تعرفت بمارى هاسكل التى قدمت من سافانا البعيدة لتحضر الدفن • فرأيت الرصانة والبســاطة والدعة ورحابة الصدر فى كل ملامحها ـ حتى فى ثيابها • ولم أقرأ فى وجهها حزنا ولا سمعت فى صوتها غصة • بل حــدثتنى حينئذ ـ ومرارا بعدئذ ـ عن جبران كما لو كان ما يزال حيا• وأنا مدين لها بالكثير مما صورته فى هذا الكتــاب من علائق جبران معها ومع ميشلين

صباح الثلاثاء نقل الجثمان الى كنيسة سيدة الارز المارونية• ومن بعد الصلاة عليه سير به فى موكب حافل الى المقبرة حيث

أودع مدفنا موقتا ريثما تفتح وصية جبران فنرى اذاكان يبدى رغبة ما فى أمر دفنه اما فى أمريكا أو فى لبنان

بعد أشهر قر رأى ماريانا أن تنقل جثمان آخيها الى لبنـــان الذى كان يحن اليه حنينا دائما . فبلغ الجثمان بيروت فى ٢١ أغسطس حيث جرى له استقبال ما عرفت بيروت نظيره . وفى اليوم التالى سار فى موكب رهيب الى بلدته المحبوبة - بشرى . وهناك استقر، بعد مناورات كثيرة ، فى الخلوة التى كان جبران يمنى نفسه ويمنينى بها - فى مارسركيس . وقد توفق ذووه الى ابتياع ذلك الدير

زرت مارسركيس فى صيف سنة ١٩٣٢ . ولست أعرف ما يصف جمال موقعه وهيبة سكينته أبلغ من الآية المخطوطة باللاتينية فوق بوابته بأحرف تكاد الاعاصير تعبث بها :

Oh Beata Solitudo
Oh Sola Beatitudo

أيتها الوحدة المغبوطة
أيتها الغبطة الوحيدة

وصية جبران

ان الوصية التى قال جبران لى ولنسيب عريضه ولعبد المسيح حداد وعدد من السيدات الامريكيات اللواتى عرفت منهن سيما انه ذكرنا فيها لم يظهر لها اثر . أتراها ما برحت فى ذمة جبران ؟ لااظن ذلك البتة . فجبران اخبرنا عنها كأمر ناجز . حتى انه دل عبد المسيح على الخزانة التى وضعها فيها . وما كان من داع له أن يذكر قبل موته بثلاثة أيام الا رغبته فى تثبيت وجودها . أهى فى ذمة الزمان؟ اهى فى ذمة بعض الناس ؟ الله أعلم . أما الوصية التى ظهرت وتقدمت الى المحكمة فتاريخها فى ١٣ مارس سنة ١٩٣٠ ، أى قبل وفاة صاحبها بما يقارب السنة . وقد وجدت نسخة منها عند ماريانا فى بوسطن ، والاصل عند ادغار سباير فى نيويورك . واليك ترجمتها :

« كل ما لى من دراهم وسندات مالية عند المستر ادغار سباير ، الذى تلطف واحتفظ لى بها ، أريد أن يكون بعد مماتى من نصيب شقيقتى ماريانا خ • جبران الساكنة حاليا تحت رقم ٧٦ شارع تيلر فى مدينة بوسطن من ولاية ماساتشوستس

هناك ايضا ٤٠ (أربعون) حصة من حصص شركة بناية المحترف رقم ٥١ من الشارع العاشر غربا ، وهى موجودة فى صندوقى للودائع فى بنك منهاتان ترست كومبانى ، رقم ٣١ يونيون سكوير ، مدينة نيويورك . وهذه الحصص أوصى بها لشقيقتى كذلك

وهناك ، علاوة على ما تقدم ، دفتران للتوفير فى وست سيدسايفينغس بنك ، رقم ٤٢٢ من الأفينيو السادس فى

مدينة نيويورك . وهذان الدفتران عندى فى المحترف . وأنا اريد من شقيقتى أن تأخذ هذا المال الى بلدتى بشرى وتنفقه هناك على الاحسان

كذلك أوصى لبشرى بريع كتبى التى ، حسبما أعرف ، يمكن ورثتى أن يطلبوا تجديد الاحتفاظ بحقوق طبعها لثمان وعشرين سنة بعد مماتى

كل ما هو فى محترفى من رسوم وكتب وسلع فنية الخ ، أوصى به بعد مماتى لمسز مارى هاسكل مينس ، الساكنة حاليا تحت رقم ٢٤ شارع غاستون فى مدينة سافانا من ولاية جورجيا . لكنى أرغب الى مسز مينس ، اذا هى استنسبت ذلك ، أن تبعث بكل هذه الاشياء أو ببعضها ، الى بلدتى »

بلغ مجمل تركة جبران ٥٣١٩٦ دولارا . أما قبل حلول الازمة وهبوط أسعار العقارات والاسهم المالية فكانت ثروته تقدر بين الثمانين والتسعين ألفا



محتويات الكتاب

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Calegio N° 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O Box 1883,
ACCRA, GHANA

هذا الكتاب

ان قصــــة حياة جبران هى قصة العبقرية والنبوغ التى بهرت الشرق العربى ، ونقلت الى الغرب بانتقال بطلها الى العالم الجديد ، آيات من بلاغة العروبة وسحر بيانها ، فادهش الغرب كما ادهش الشرق بما كتب ونظم ورسم

ويسر « سلسلة كتاب الهلال » ان تقدم بين دفتى كتاب « نابغة لبنان جبران خليل جبران » صورة حية نابضة بالحياة لنابغة لبنان والعروبة ، وفيلسوف الشرق جبران ، بقلم صديقه وصفيه الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة

ولقد ابدع المؤلف فى تصوير صراع جبران مع نفسه لينقيها من كل شــــائن ، ويجعلها جميلة كالجمال الذى لمحه فى خياله ، وبثه بســـخاء فى رسومه التى عرضها ، وسطوره التى كتبها

ان القارىء ليطالع من خلال فصول هذا الكتاب صورة جبران كما عرفه المؤلف وصحبه خمسة عشر عاما . . . قصة حياة عبقرى ، عاش الفن ، ولبلاغة العروبة ولجمال الفن ، وجمال الادب الممتاز

